رحلة الوزير

في

افتكاك الأسير

رحلة الوزير
في
افتكاك الأسير

منشورات مؤسسة الجنرال فرنكو

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

تأليف

محمد بن عبد الوهاب الغساني

وزير مولاي اسماعيل وسفيره الى كارلص الثاني

ملك اسبانيا، عام ١١٠٢ هـ ١٦٩٠—١٦٩١ م

توفي في زنقة الرطل من فاس القرويين

عام ١١١٩

استخلصها من مخطوطات عدة وقدم لها وعلق

حواشيها ووضع لها الجداول والفهارس والتراجم في اللغتين

الأستاذ

الفريد البستاني

المقدمة

هذه هي " رحلة الوزير في افتكاك الأسير " نزفها بكراً الى قرّاء العربيّة والى المعجبين بها من مستعربي الاسبان، والى محبّي البحث والتنقيب من أعلام الآتيين.

لقد كنّا كتبنا لشهور خلت في مجلة موريتانيا بحثاً مستوفياً عن هذا الأثر التاريخي النفيس الذي كان ولا يزال مدفوناً في بطون بعض خزائن الكتب القديمة.

فطلب منّا كثير من ارباب البحث وعشّاق التاريخ ان نستخلص هذا المخطوط وننشره بنصه الكامل بعد درس وشرح وتمحيص ايضاحاً لبعض القضايا التاريخية.

فلبينا نداء الواجب الثقافي الذي يحتمه علينا معهد الجنرال فرنكو الذي أنشئ للقيام بمثل هذه الاعمال الجليلة خدمة للثقافة العالية.

وقد اعتمدنا في طبعتنا هذه على ثلاث مخطوطات: مخطوطة تطوان وقد اشرنا اليها برقم (١) واحياناً بحرف (ت) ومخطوطة بني بوزين، من قبائل الاخماس العليا في شمال المغرب واشرنا اليها برقم (٢) ومخطوطة مكتبة مدريد الاهاليّة وقد اشرنا اليها بحرف (م) وكان جلّ اعتمادنا على المخطوطة رقم (٢).

وقد ذيّلنا هذه الطبعة بجداول وفهارس جغرافية وتاريخية تحتوي على اسماء المدن والقرى والاماكن والأعلام الوارد ذكرها بهذه الرحلة مع ما يقابلها باللغة الاسبانية.

وقد شرحنا الكلمات الاجنبية والدخيلة والتعابير الاعجمية التي سمعها المؤلف فرواها على علاّتها واثبتها على اعجميّتها، وكذلك شرحنا الالفاظ والتعابير الوضعية المصطلح عليها في المغرب.

لغة الرحلة وأسلوب المؤلف

اما الرحلة فانشاؤها مضطرب وتعابيرها ركيكة تظهر عامية احياناً، فقد نهج المؤلف بأسلوبه نهج كتّاب الدواوين في ذلك العصر، فسار مع تيّار عقلية عصره ووضعية محيطه.

هفوات المؤلف

وقع الكاتب المؤلف في هفوات تاريخية، واغلاط هامة في تعاليقه وشرحه العقائد والقضايا الدينية، فقد سطّر اموراً مشوّهة عن النصرانية وتعاليمها وعن طُرق ومذاهب الرهبانيات وقوانينها ودوّن سفسطات مضحكة نظن ان بعضها من تلاعب النسّاخ لما فيها من تحريف وتصحيف.

فقد توخّينا الامانة والصدق في النشر والترجمة محافظة على قيمة اصول المخطوط التاريخية، فلم نصحح شيئاً من اغلاط المؤلف، انما اشرنا احياناً الى بعض الهفوات التاريخية الهامة، ونقحنا بعض تعابير والفاظ كان قد شوّهها وحرفها النسّاخ، كما ان

المؤلف قد خلط في ابتداء روايته عن فتح الاندلس بين طارق بن زياد الطنجي وطريف بن مالك النخعي، وذلك ايضاً ان حادثة الخلاف التي وقعت بين البابا وانريكوس الثامن ملك انكليترا وانشقاق هذا الاخير عن الكنيسة الكاثوليكية وتأسيسه للمذهب الانكليكاني البروتستانتي وزواجه من امرأة عشقها فاخذها مع زوجته الاولى رغم تهديدات البابا، قد نسبها المؤلف الى ملك فرنسا، كما ذكر في شرحه لقضية تأسيس المذاهب الانجيلية، الى غير ذلك من النقاط التاريخية الهامة التي اشرنا اليها .

قيمة المخطوط التاريخية

ان لهذا المخطوط النفيس قيمته التاريخية لما فيه من صدق لهجة وامانة وسذاجة في وصف ما شاهده الوزير المؤلف من مرافق الحياة والعمران والحضارة في البلاد الاسبانية وما لاحظه من عادات ذلك الشعب ومدنيته، وما سمعه واختبره في تلك البلاد من تطور سياسة الأمم وتجويد انظمة الدول، وما لقيه من الاكرام والاحترام وحسن الضيافة، وما عمله لتوطيد الصلات وتبادل المصالح المشتركة وتأمين حسن الجوار بين اسبانيا والمغرب وابرام المعاهدات بين ملوك الدولتين العظيمتين .

فقد اتحفنا الوزير بملاحظات دقيقة واستنتاجات قيّمة ورسم لنا صورة مصغّرة طبيعية عن اسبانيا في عهد كرلوص الثاني ربما كانت من اقرب الرسوم الى الحقيقة المجرّدة وافضل ما كُتب عن اسبانيا في ذلك الزمن .

وقد بيّن المؤلف من ناحية اخرى ما كان للمغرب من عظمة ومجد وسؤدد وما كان لسلاطينه العظماء من جلال الملك والأبهة والشهرة الواسعة، وما كان عليه مولاي اسماعيل من دهاء وحزم وعظمة وبطش وقوة وسعة ملك، وما كان له من فضل عميم

وسعي مشكور في افتكاك ما بقي من اسارى المسلمين باسبانيا، وجلب كل الوسائل الفعالة التي تؤول الى ما فيه عظمة وخير الانبراطورية المغربية .

بين رحلة الغساني ورحلة الغزال

لقد خلط كثير من مؤرخي العرب والفرنج بين سفارة الغساني وسفارة الغزال ورحلتهما الى اسبانيا، فقد نسبوا خطأ هذه الرحلة الى الفقيه الكاتب احمد بن المهدي الغزال المتوفى عام ١١٩١ هـ .

فان رحلة الغزال المعروفة بالرحلة الاسبانية كانت في عام ١٧٦٦ م، اواخر عام ١١٧٩ هـ، في عهد مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب وكراوص الثالث ملك اسبانيا .

فقد كتب حضرة البحاثة المعروف والكاتب الاسباني القدير ضون طوماس غرسيا فيكيراس بحثاً قيماً حول هذه الرحلة وزيارة الغزال لمدينة شريش (١) .

اما رحلة الوزير في افتكاك الأسير فكانت في عهد مولاي اسماعيل وكراوص الثاني عام ١١٠٢ هـ ١٦٩٠ ١٦٩١ م، فكانت ولا تزال مطمح انظار البحاثة .

فالمستعرب الفرنسي المسيو سوفير نقل الى لغته سنة ١٨٨٤ ترجمة مختصرة لهذه الرحلة تحت عنوان : (رحلة سفير مغربي الى اسبانيا) (٢) وقد اعتمد على مخطوطة مكتبة مدريد الاهلية رقم ٥٣٠٤ (مبتورة الاول) وعلى مخطوطة

(1) Embajada de El Gazzal (1766) Nuevos datos para su estudio.–Tomás García Figueras.–Larache, Casa de Miguel Boscá Mata (1938).

(2) Voyage en Espagne d'un Ambassadeur marocain. Par M. H. Sauvaire. Paris, 1884.

المستعرب الاسباني السنيور كاينكوس التي هي نسخة عن الاولى . وقد ذكر في توطئته ان صاحب الرحلة لا يزال مجهولاً (١).

كما ان تعليق مكتبة مدريد الاهلية على هذه الرحلة لايخلو من الخطأ الفاضح . فقد سُجلت المخطوطة تحت عنوان : رحلة سفير الى اسبانيا ، بعثه مولاي اسماعيل الى كرلوص الثاني سنة ١٦٨٠ ١٦٨٢ (٢).

فحقيقة تاريخ الرحلة اوائل عام ١١٠٢ هـ ، موافق ١٦٩٠ — ١٦٩١ . فان الحوادث الهامة التي ذكرها المؤلف والاحداث التي حدثت وهو في اسبانيا وقعت بين عامي ١٦٩٠ و ١٦٩١ م ١١٠٢ هـ : كوفاة البابا اسكندر الثامن سنة ١٦٩١ وانتخاب البابا انوسنسيوس الثاني عشر النابولي سنة ١٦٩١ واستلاء الفرنسيون على مدينة مونص سنة ١٦٩١ واسترجاع الاتراك مدينة بلغراد ١٦٩٠ الى غير ذلك من الحوادث والاحداث التاريخية الهامة التي تثبت تاريخ الرحلة التي وضعناه تأييداً للتاريخ الذي وضعه المؤلف والذي ردد ذكره في رحلته عدة مرات .

كما ان المستشرق المعروف والبحاثة القدير السيد درنبورغ لم يتعرض في كتابه (٣) «تعاليق نقدية على المخطوطات العربية مكتبة مدريد الاهلية » الى رحلة الغساني انما تكلم مطولاً عن رحلة الفقيه احمد بن المهدي الغزال؟ . . .

---

(1) Son nom nous est inconnu.

(2) Manuscritos Arabes de la Biblioteca Nacional de Madrid: Manuscrito 5.304.
Viaje a España de un Embajador enviado por Muley Ismael a Carlos II, y observaciones que hace en todo lo que vió.
4º papel; 108 folios; foliación castellana; magrebí; algunas mociones; al principio un folio en blanco y en el siguiente el antedicho título en castellano, que debajo lleva esta nota: «Esta Embajada se hizo por los años 1680 a 1682.»
Catálogo de la Biblioteca Nacional de Madrid.

(3) Notes critiques sur les Manuscrits arabes de la Bibliothèque Nationale de Madrid. Hartwig Derenbourg. Paris, 1904.

وقد كتب ايضاً البحّاثـة الفرنسي المسيو هنري بيرس درساً قيماً وبحثاً هاماً حـول سفارة الغسّاني ومهمته في اسبانيا، في كتابه المعنْوَن . (اسبانيا بنظر الرحّالـة المسلمين من سنة ١٦١٠ الى ١٩٣٠) (١).

فقد اعطانا في بحثه فكرة عامة وصورة مجملة عن قيمة الرحلة التاريخية وعن نباهة الوزير وما كان عليه مـن حسن الشعور والفطنة والانتباه الحسّاس والملاحظات الدقيقة التي رافقته في جميع اسفاره. غير أن البحّاثة الفاضل قد سجّل بعض نقاط وتعاليق مشوّهة، لو انه طالع بامعان الاصل العربي لكان تجنب السرعة في احكامه واظهر نقده المخاص، كتأييده لمتانة وقوة انشاء الوزير، الى غير ذلك . . . فاننا نعتقد انه لم يطلع على النصوص العربية الاصلية بـل اكتفى بالترجمة التي وضعها بالفرنسية المسيو سوفير وتعاليق غيره من البحّاثة والكتبة.

ثم ان الكاتب يتساءل : ؟ ما حلّ بالاسارى المسلمين بعد مجيء السفير الى المغرب ؟هـل اصحبهم معه ام تركهم يأتون لحالهم؟ ام التزم الاسبان نقلهم الى سبتة او الى احد الشواطيء المغربية؟ هذا ما ستجيبنا عليه الايام المقبلة المتأثرة بقوة تنقيب الباحثين المرتبطة بين طي التاريخ ونشره.

غيـر أن لدينـا بعض الظهـائر الاسماعيلـة تفتـح امامنـا كوّة من نور ننظر منها الى هذه العقدة التي تكتنفها غيوم متلبدة تارة تنقشع عنها فيظهر ضوء بعيد يحاول ان يسلط اشعتـه الضعيفة لانارة شبح السبيل المؤدي الى باب الحقيقة، وطورا تتجمع متلبدة فتمنعنا من تميزها تماماً وصدق الحكم عليها.

---

(1) L'ESPAGNE vue par les Voyageurs Musulmans de 1610 à 1930.–Henri Pérès. Paris, 1937.

غير اننا نعتقد ببقاء الاسارى في اسبانيا بعد مجيء السفير الى المغرب حسب ما تفيد بعض الظواهر، وهذا ايضاً من الاسباب التي اوجبت تأليف سفارات اخرى بعد سفارة الغسّاني .

اما اشارة الغسّاني الى مكتبة الاسكوريال وقوله ان معظم كتبها جُلبت من أشبيلية وقُرطبة، لا يعني انه كان جاهلاً بحقيقة قضية مكتب مولاي زيدان كما ذكر البحّاثة الفاضل .

فان كتباً كثيرة نقلت من قرطبة واشبيلية الى العاصمة، فكان للاسكوريال النصيب الاوفر منها . واننا لا ننكر ان أُسس مكتبة الاسكوريال العربية وقوامها وشهرتها الواسعة هي كتب مكتبة مولاي زيدان (١) التي حُجزت في البحر سنة ١٦١٢ م ثم جُلبت الى مدريد في عهد فيليب الثالث .

فان اهمال الوزير لهذه الحقيقة وتسليمه بحادثة حرق الكتب عائدة الى بعض اسباب تجنّب الوزير ذكرها . . .

ونحن بدورنا لا نسلّم بان سفارة الغسّاني ومهمته الدبلوماسية وسبب رحلته الى اسبانيا كان غايتها افتكاك الاسارى وجلب الكتب فقط، بل كان هنالك بعض الأمور الخطيرة لم يشر اليها الوزير رغم ما ذكره في مقدمته . فانه رجع الى وطنه والحكومة الاسبانية تفتش عن الاسارى؟ . . .

وبينما نحن في معترك البحث وميدان الدرس فوق مائدة التشريح في المختبر العقلي نحلل مقاييس ومقادير عقدة هذه القضية، فاذا بالوزير المؤرخ يتقدم الينا بمجموعة

---

(١) مولاي زيدان ١٠١٢—١٠٣٧ هـ ١٦٠٣—١٦٢٨ م .

تاريخية كلها عبر، فترك لنا ملاحظات دقيقة ودروساً قيمة في حياة الأمـــم الاجتماعية والتاريخية ولم يهمل الاقتصادية والدينية منها، وقد رسم لنا بريشته الساذجـة البريئة الطبيعية لوحة رمزية لها تشبحاتها الغامضة وتموجاتها الساحرة وقيمتها الفكرية في عالم البحث والتنقيب والتفكير.

وتتميماً لفائدة بحثنا التاريخي قد الحقنا بهذه المقدمة ترجمة مختصرة لحياة مولاي اسماعيل ولوزيره وسفيره الغسّاني صاحب الرحلة.

وانا ملء الأمل ان تؤخذ اعمالنا هذه بعين الانصاف والتشجيع.

والله الموفق.

للصواب والوحده العصمة وهو حسبنا.

ونعم الوكيل

مدريد — تطوان في ٣ نونبر سنة ١٩٣٩.

الفريد البستاني

مولاي اسماعيل

١٠٨٢ — ١١٣٩ — هـ ١٦٧٢ — ١٧٢٧ م

هو الشريف العلوي، السلطان المظفر، الفاتـــح البطّاش، الاداري الحازم، المستبد العادل ابو النصر مولاي اسماعيل.

بُويع بالملك ليلة الاربعاء السادس عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وثمانين والف، وقد حضر على بيعته اعيان المغرب وصلحاؤه وكانت سنه ستاً وعشرين.

فنهض باعباء الملك وضبط الأُمور بشدة وحزم فتمهدت له البلاد ودان له قريبها وبعيدها واخمد ثورة مراكش التي قام بها ولد اخيه احمد بن محرزه وكان قــد شقَّ عليه ايضاً عصا الطاعة اهــل فاس وامتنعوا عن المبايعة فحاصرهم مدة خمسة عشر شهراً الى ان اتوه مذعنين في التاسع عشر مـــن رجب عام ١٠٨٤ هـ ١٦٧٣ م، فلما دانت له البلاد المغربيـــة مـــن اقصاها الى اقصاها بعد معارك وحروب طويلة واستتب الأمن في الداخل واجبر الانكليز على الانسحاب من طنجة سنة ١٦٨٤ واسترجع العرائش من الاسبان سنة ١٦٨٩ وضرب الحصار على سبتة، فكّر في الفتوحات الخارجية:

فاستولى على تخوم السودان وبلغ فيها الى ما وراء النيل، فانتشرت دولته وامتدت مملكته من جهة الشرق الى قرب بلاد بسكرة ونواحي تلمسان.

فهابتــه دول اوروبا وتسابــق ملوكها وسلاطينها الى خطاب وده والتقرب اليه، فبادلهم الولاء وابرام معاهدات الصداقة وارسال السفراء.

فكان اقربهم اليه : الدولة الاسبانية فبعث الى ملكها كرلوص الثاني وزيره محمد بن عبد الوهاب الغسَّاني الاندلسي .

الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسَّاني الاندلسي الفاسي

تـوفـي عـام ١١١٩ هـ

قال : القادري في نشر المثاني : هو الكاتب الارفـع ابـو عبد الله محمد المدعو حمو بن عبد الوهاب الوزير الغسَّاني الاندلسي الفاسي .

كتب للسلطان مولانا اسماعيل وكان نجيباً في ذلك، ذكر انه كان كـل ما يلقى من الأوامر يكتبها ويستوفيها ولا يغرب عليه شيئ منها مع كثرتها، وقـد ارسله مولانـا السلطان الى بلاد الروم بالاندلس بقصد ان يستخرج مـا بايديهم من اسارى المسلمين ويستخرج ما بقي من الكتب بالمشاهد التي كانت للمسلمين، وألف في رحلته تلك كتابا اسماه :

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

وقد ترجم له ايضاً سيدي محمد بن جعفر الكتاني في سلوة الانفاس بمثل ما ترجم له القادري وزاد عليه : ووصفه بالفقيه المتفنن الدرّاك المتقن .

وقال : كانت له سرعة في نسخ الكتب لا تعرف لغيره .
وابدل لفظة المشاهد بالمساجد المهجورة .

ثم قـال : توفي من مرض بدارهم الكائنة بزنقة الرطل من فاس القرويين عـام تسعة عشر ومائة والف .

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل نزهة العقول والافكار، في التنزه في روضات التواريخ والأخبار، ووسع صدور الاختيار، لجولان الاقاليم والاقطار، وزين قلائد البلدان بجواهر الامصار، نحمده سبحانه على ما اطلعنا من حكم الاسفار، ما يملأ الدفاتر والاسفار، ونشكره تعالى ان اختص الجولان باسرار البدائع وبدائع الاسرار، ونصلي ونسلم على سيدنا ونبينا ومولانا محمد اشرف من اظلت السماء واقلت البسيطة، الحائز مديد الشرف وكامله، ووافره وبسيطه، وعلى آله الاطهار وصحابته الاخيار.

اما بعد:

فانه لما كان سيدنا السلطان الامام، المظفر الهمام، ذو الشيم التي آذنت مآثر الاوائل والاواخر، والمزايا التي فاضت على الانام فيضان البحور الزواخر، والهمة التي لا تزل تراقب المعالي، وتصرفه الكلية لحماية البلاد والعباد والدين والدنيا بالبيض المحامي والسمر العوالي، وتحمي بيضة الاسلام، وتحيي سنة جده عليه الصلاة والسلام، الماجد الاصيل الغطريف، ظل العدل الوريف، ابو النصر مولانا اسماعيل ابن مولانا الشريف ادام الله نصره واعلى قصره واغلى مصره مغرماً باحياء السنن وجارياً في اقامتها على اوضح السنن، وكانت همته مصروفة لفكاك الاسارى، لاستخراجهم بيد من كانوا في يده من النصارى، ليغتنم ثواب فكاك الاسير ويفوز بما ورد في ذلك عن الرسول

البشر. وكنت ممن امنّ الله عليه لخدمة بابه، وتفضل عليه بالانحياز لجنابه، وجهني ادام الله علاه لبلاد الروم لآتيه بمن هنالك من اسارى الاسلام، وابحث في الخزائن الاندلسية عما ابقاه المسلمون هنالك من كتب الاحكام، ليكون لي معه دام مجده كفل من الثواب، وما هي باول بركة نالتنا من ذلكم الجناب. فتوجهت مستعينا بالله تعالى الى هاتك الاقطار بأذنه الشريف وامره، مستظلاً بظل جلالته وفخره، ورأيت هنالك من العجب العجاب، ما يسحر العقول ويبهر الالباب، فجمعت بعض ذلك في هذه الرقاع، لئلا تعدو عليه يد الضياع، ورسمته مخافة النسيان، ورجاء ان يستفيد من يطلع عليه من الاخوان، مستمداً من الله العون والمنة انه ذو الفضل (١) والكرم والاحسان والجود والمنة.

---

(١) وفي مخطوطة ٢ : التفضل

الخبر عن مرسى جبل طارق

وهو الجبل المسمى بجبل الفتح اذ كان منه مبدئ فتح العدوة الاندلسية لما عبر طارق رحمه الله اليها وذلك كان بعد ما وجه موسى بن نصير رحمه الله الى العدوة سرايا بامر اميره الوليد بن عبد الملك، وذلك حين كان موسى عاملا للوليد على افريقية وطارق عامل موسى على طنجة وكانت وقعت بين (يليان) والي ما يلي البحر من العدوة وبين موسى مداخل ومراسلة يدعوه فيها الى العبور والدخول الى الجزيرة، فكتب موسى للوليد يخبره بذلك فقال له: اختبرها بالسرايا، فاختبرها ببعث طارق المذكور، فغزى واصاب مالاً وسبياً ورجع الى البلاد البربرية، فلما دخلوا في الاسلام بعد غزو شنيع وسبي ذريع تدرج الغزو الى كفار الاندلس وحين رجعت هذه السرية سالمة غانمة عمل موسى على اجازة سرية اخرى في العام الذي بعده. قيل: ولما دعي يليان موسى الى الاندلس ذكروا ان موسى نهض الى امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فاعلمه بذلك فمنعه وقال له: لا تغرر بالمسلمين، فقال له: يا امير المؤمنين انما ارسل عبدي طارقاً مع البربر فان اصابوا فلنا وان أصيبوا فليس علينا منهم شيء. فامره بالنهوض الى ذلك، وكان قد (١) قام يليان باثنة من قصر الذريق الى سبتة وموسى بافريقية، فقدم عليه ووصف له حال الاندلس وطيبها وقرب مراحها وهون عليه رجالها وقرب حالها

(١) وفي مخطوطة ١: وبعد ذلك قام.

فقال له موسى : اصدقك في نصيحتك الا انه ليس في نفسي شيء بسبب الديـن فأخذ يليان معه الرجال مع طريق (١) واغاربهم على البلد وانصرفوا غانمين سالمين فاطمئن موسى ونظر في ارسال طارق ومعه البربر، فعبر طارق اليها من ناحية سبتة ونزل بالقرب من هذا الجبل في جزيرة صغيرة تقابل المدينة التي في سفحه وهي جزيرة صغيرة بقدر ميل واحد طولاً وعرضاً يحدها واد كبير ينحدر من جبال الرندة واحوازها وهي جبال كثيرة شاهقة تقابل من البلاد البربرية جبال الفحص والهبط وغيرها، وباسم هذه الجزيرة الصغيرة تسمى هذه العـدوة جزيرة، والا فبلاد العـدوة ليست بجزيرة لاتصال برها وامتداده الى البلاد التركية وغيرها من بلاد الكفرة مثل فلا نضس وبلاد الايطالية والالمانية . وليس بهـذه الجزيرة المذكورة اليوم عمارة ولا بناء . ومرسى جبل طارق هي مرسى كبيرة واسعة الجون وعلى بابها حصن منيع مبني احسن بناء وبه مـن العدة والمدافع ما شحنه، اذ هو موضع مبيت العسس واهل الحرس وهـو مطل على المرسى جميعها وقد امتد صور (٢) مع سفح الجبل مار من الحصن الـى المدينة بقدر ميل على شفير البحر الى ان ينتهي الى المدينة . والمدينة تصل المراكب اليها، وهي مدينة متوسطة الى الصغر اقرب واكثر عمارها الشلطاظ (٣) ومن في معناهم وليس بها كبير تجارة ولا عمارة مثل الحواضر التي تقصد السكنى حيث كانت طرفا، وفي مقابلة بر الاسلام، ومنها تمتد سبتة بأقوات سكناها وعمارها لقرب المسافة اذ ليس اقرب منها في جميع بلاد العدوة وقدر ما بينها في البحر خمسة عشر ميلاً . واكثر حرس هذه العدوة وانتباههم هـو ساحل جبل الفتح هذا من البلاد البربرية اذ ليس لهـم تخوف واحتراز الا منها، لما

---

(١) وفي مخطوطة ٢ : طريف وهو الاصح

(٢) وفي مخطوطة ٢ : سور

(٣) لفظة اسبانية معناها : الجند

(3) Soldados

تدارسوه في تواريخهم وتقرر لديهم انه قط ما عبر احد الى العدوة في البحر الا من الناحية البربرية، ولم تفتح العدوة اولاً ولا عبر اليها بعد ذلك من عبر في ازمنة من عبر اليها من ملوك مغربنا رحمهم الله الا من مقابلة جبل الفتح ومقابلة طريق(١).

وسبب تسمية هذه المدينة بطريق هو انه لما كان موسى بن نصير رحمه الله عاملاً على افريقية للوليد بن عبد الملك وطارق كان عاملا لموسى في طنجة وحين دخل يليان العلج من الجزيرة الخضراء كتب موسى بذلك الى الوليد فكتب اليه الوليد ان اختبرها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بلاد شديدة الاهوال. فكتب اليه موسى يقول انه ليس بهذه البلاد خليج. فكتب اليه الوليد: اختبرها بالسرايا ان كان الامر كما ذكرت. فجهز موسى رجلاً من البربر مواليه يسمى طارقاً ويكنى ابا زرعة في مائة فارس واربعمائة راجل فجاز في اربعة مراكب حتى نزل في ساحل البحر بالاندلس في الموضع المعروف اليوم بجزيرة طريف سميت بذلك لنزوله هناك فاغار منها على ما يليها الى جهة الخضراء واصاب سبياً ومالاً كثيرا ورجع سالما. والذي يقابل جبل الفتح من بلادنا هو جبل (بليونش) ويعرف بجبل موسى ويسمى هذا الجبل بليونش باسم مدينة كانت به قديماً وقد بقي بها اثر الجدران والحيطان واشجارها باقية الى الآن تدل على مكانتها، وهي في غرب سبتة ومقدار ما بينهما نحو ميلين وفي غرب بليونش عيون مياه عذبة تعرف قديماً بعين الحياة، زعموا انها عين الحياة التي شرب منها الخضر عليه السلام، وبازاء تلك العيون صخرة يزعم بعض اهل التواريخ ان عند تلك الصخرة نسي فتى موسى الحوت، والذي يقابل طريف هو القصر الصغير الذي في حدود بلاد (انجرى) وهو اقرب من غيره في جميع البوغاز لكون مقدار ما بينهما ثمانية اميال وقع هذا، فالعمران من هذه النواحي ليس هو على قدر توقع الكفرة وتخوفهم اذ ما بين مدينة

---

(١) وفي مخطوطة ٢ : طريف وهو الاصح

جبل الفتح ومدينة طريف هو خلاء لا عمارة به وفيما بينهما مدينة فسيحة متسعة الارجاء .

وكان وصولنا الى هذه المرسى عشية يوم الاربعاء اواسط محرم فاتح اثنين بعد مائة والف ١١٠٢ وهو يوم ركوبنا البحر من قصبة (افراك) المطلة على سبتة اعادها الله دار الاسلام، فوجدنا بالمرسى مركباً مهيئاً مشحوناً بالاقامة (والشلطاظل) وما يستحقه من الآلات وكان وجه بذلك الدوكي القاطن بمدينة سان لوكار بامر عظيمه وهو الذي ينتهي اليه امر تلك (الكوشطة) (١) كلها وهو من اعيان اكابرهم اذ لا يتولى عندهم امر الكوشطة الموالية لبرنا الا من له اصالة في الكبيرة ومن له لقب الدوكي او الكندي لا غير .

وكان هذا المركب لما ان وجه به الدوكي المذكور على يد حاكم قالص ارسى في سبتة اعادها الله للاسلام .

فلما تحرك الريح الشرقي الذي لايمكن معه بقاؤهم في قرب سبتة ولا في حوزها رجعوا به الى مرسى جبل الفتح وقاموا هنالك ينتظرون الريح الذي يمكنهم فيه الرجوع الى مرسى سبتة للاقتنا، وكان معهم ولد القبطان واعلمونا بانتظارهم لورود المراكب التي في جبل الفتح، قلنا لهم اما ان توجهوا اليها واما ان نعبر نحن البوغاز في مراكب صغار لسرعتها في العبور وخفتها وشدة جريها . فاعدوا لنا ثلاث مراكب صغار وهيؤها وشحنوها بالشلطاظل والمدافع التي تحميها وركبنا فيها وسرنا فيها بحفظ الله وكلاءته نصف يوم الى ان دخلنا المرسى المذكورة وانتقلنا من المراكب الصغار الى المركب المعد لنا هنالك وتقدمنا الى مدينة قرب جبل الفتح وبتنا بالمركب .

ولما انتصف الليل هاج علينا البحر واشتد هيجانه وتلاطمت امواجه والمركب

---

(١) لفظة اسبانية معناها : الشاطئ

(1) Costa

يتقلب يميناً وشمالاً ويتمرغ كما تتمرغ الدابة الى ان دخلنا الفزع والرعب، وبقي الحال كذلك الى ان طلع الفجر، واهوال البحر لا تحصى ولا تحصر والشيء يسمع فيحقر حتى يبصر، فرحم الله القائل :

هو البحر حدث عنه غير مكذب فما تنقضي آياتـه وعجائبـه

فاستأذنا رئيس السفينة ان يرجع بنا الى باب المرسى من حيث دخلنا اذ هو موضع متنكب عن الرياح والبحر فيه كأنه بركة ماء، وحيث سكن هائجه وركد مائجه ارسينا تحت الحصن وفي ظل جبل الفتح وقمنا هنالك ثمانية ايام ننتظر هبوب الهواء الشرقي الذي يمكننا فيه السفر الى (قالص) حيث كان قصدنا، وفيه استعد النصارى للملاقات وجمعوا جموعهم. وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور كان قائد البلد يختلف الينا ويتعاهدنا كل يوم بالفواكه الرطبة واليابسة ويعتذر عن تقصيره، الى ان استنشق بعض اصحابنا هبوب الريح الشرقي نصف ليلة الاربعاء الثامنة من حلو لنا المرسى المذكورة، وكان الصاحب المشار اليه عارفاً باحوال البحر لتعدد سفره فيه، ورئيس المركب اذ ذاك مستغرق في نومه فنبهناه واعلمناه بهبوب الهواء فارتحلنا من ساعتنا وخرجنا من موضعنا ذلك. وحين مطلع الفجر قابلنا مدينة (طريف) وهي مدينة متوسطة على ثغير البحر في بسيط من الارض وقد سميت باسم نازلها طريف (١) كما تقدم، ويقابلها من بلادنا القصر الصغير المتقدم الذكر، ولم نزل نصف ذلك اليوم سائرين الى وقت حلول صلاة الظهر فرأينا اذ ذاك مدينة قالص وهي مدينة كبيرة في جزيرة على البحر ولها طريق ممتدة الى البر. والبحر يدور بها من نحو سبعة اثمانها، ولها مرسى كبيرة لاتقدر لسعتها وبها من المراكب الكبار (٢) والصغار ما لا يحصى.

---

(١) قد خلط المؤلف بين طارق وطريف

(٢) وفي مخطوطة ٢ : الكبيرة والصغيرة

وحيث كانت مدينة كبيرة يقصدها المسافرون والتجار من كل صوب ويبتنا اون عليهامن كل ريح وترد عليها النصارى من كل دشرة (١) او مدينة (٢) تجاورها او تقرب اليها بقصد البيع والشراء والنفقة والخدمة، ويجتمع من المراكب الصغار التي تجلب اليها المدد والاقوات والفواكه وغير ذلك العدد الذي لا يحصى. فما تطلع الشمس الا والزوارق تهفو بقوادم غربان وتعدو بسوالف غزلان تخالها في سمائه اهلة مكشوفة وتحسبها فوق مائه جريدة دهم مصفوفة، فسبحان المالك الخلاّق المقدر الارزاق.

ولما رأى حاكم البلد ذلك اليوم هبوب الريح الذي يقدمنا عليهم استعدوا للملاقات استعدادا كثيراً وتأهبوا تأهباً (٣) كبيراً وجمعوا الشلطاط والخويلة التي عندهم وعمّروا مدافعهم البحريّة والبريّة وخرجوا الى البحر ينتظرون ورودنا، ولمّا قربنا الى المدينة بمقدار ميلين ورد علينا قبطان في مركب الحاكم وقد زيّنه بانواع الفرش والحرير والديباج وقد علق على المركب صنجقاً من صناجق الطاغية وصعد الى السفينة وادّى سلام كبيره واعتذر على لسانه بتهيّئه الملاقات، فانحدرنا من المركب الكبير الى الزوارق وقصدنا المدينة، فوجدنا حاكم المدينة واقفا على طرف الموج وقد برز معه جميع من بالمدينة رجالاً ونساء وصبياناً، ولم يدع بالمدينة صاحب لهو وطرب الا وقد احضره، ولم يترك باسوار المدينة ولا بالمراكب الكبار مدفعاً الاّ وقد اخرجه، ولقينا الحاكم المذكور احسن ملاقات وفرح بنا اتم فرح، ولقينا من بمدينة قالص من الاسارى رجالا ونساء وصبياناً وهم يفرحون ويعلنون بالشهادة ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله، فذكرناهم ووعدناهم بالخير من ان سيدنا

---

(١) الدشرة والمدشر: بلغة عامة المغرب هي القرية

(٢) وفي مخطوطة ١ : ومدينة

(٣) وفي مخطوطة ٢ : تأهيباً

نصره الله غير تاركهم ما دام فضل الله عليه، فكان عندهم ذلك اليوم يوم عيد لاستبشارهم بالفرح من الله تعالى على يد المولى المنصور بالله لا سيما وقد تقرر لديهم ان سيدنا نصره الله لم يكن له قصد ولانية في جمعه لسائر النصارى الذين في ربقة الاسر الا لاجل فكاك المسلمين من يد العدو الكافر دمره الله. فاستبشروا بالبال المصروف اليهم من المالك ابقاه الله تعالى وادام وجوده، ثم دخل بنا الحاكم المذكور المدينة وقصد بنا دار كبيرة اعدها لنزولنا وقد احضر انواع الاقامة على اختلافها ولم يزل يشاهدنا هو ومن معه من اعيان البلد ذلك اليوم والليل كله الى الغد ثم بدأ يستفهمنا عن غرضنا في السفر وهل لنا أرب في المقام عنده والاستراحة بعض الايام؟ فقلنا له لا يمكننا المقام بموضع من المواضع مالم نصل البلاد التي نحن قاصدون اليها والطاغية الذي توجهنا اليه؛ فقال: ان ذلك هو مراد سيدنا وعظيمنا وهو مستبشر بقدومكم ومنتظر وصولكم اليه عاجلاً. فاتفقنا على الرحيل من الغد واتانا بكدشين(١) وخرج بنا الى المدينة فأرانا اياها حومة حومة، فاذا هي مدينة كبيرة عامرة واسواقها مشحونة بالتجار واهل الحرف والبيع والشراء واذا المدينة لا سور لها الا من جهة المرسى ومن الجهات الاخرى سورها البحر لقصره ولعدم دخول المراكب اليه لما فيه من الحجر وقصر البحر. ومن الغد اصبح الحاكم المذكور ومن معه في تهيئة رحيلنا وقد برز ايضاً على العادة جميع من بالمدينة من الشلظاظ والخويلة وسائر الناس لتشييعنا بعد ان قدم الحاكم الذي بمدينة (سانتا مرية) (٢) بعض اصحابه مخبراً بورودنا عليها ليعد موضع النزول من صبيحة اليوم الذي خرجنا من قادس. وبينما نحن في تهيئة الرحيل اذ دخل علينا قسيس من قسوس

---

(١) لفظة اسبانية معناها: العربة — (1) Coche

(٢) وفي مخطوطة ١: سنتا ماريا

النصارى تربى في بلاد القسنطينطينة (١) واخبرنا بالفتح الذي من الله به على جيش المسلمين وان السلطان سليمان امده الله تعالى بمعونته استخلص مدينة (بير الاغراص) وعمالتها وما حولها، وهو معتن بما هد من حيطانها ومشتغل باصلاح ما خرب من اسوارها، وقد جعل بها من العملة لاصلاحها وخدمة البنيان اثنا عشر الفا، واستبشرنا اذ ذاك بما خول الله تعالى من نصر المسلمين، وكان النصارى يرون له بفتحه تلك المدينة واسترجاعها قوة ويدا ويذكرونه احسن الذكر، وخرجنا الى البحر فوجدنا المركب الذي انحدرنا من السفينة اليه على حالته الاولى فركبناه في حفظ الله تعالى وقصدنا مدينة (سانتا مرية) في البحر وقدر ما بينهما ستة اميال فما كان الا اسرع من مرور ساعة زمانية وقد اشرفنا على بر المدينة المذكورة فوجدنا بها سرية من الخيل تنيف على المائة وقد برزت لملاقاتنا واظهروا من الفرح والسرور ما اظهروا، وحين ارسينا على مدينة (سانتا مرية) وجدنا بساحل بحرها خلقا كثيرا من الرجال والنساء وقد برز حاكمها وقاضيها الملاقات ومعهما كدشان لركوبنا وحين التقينا بهما عملا من الصواب وحسن الملاقات ما لا ينكر لهما، فدخلنا المدينة وطفنا بها جميع ازقتها وديارها واسواقها واذا هي مدينة كبيرة واسعة رحبة الفناء فسيحة الارجاء وازقتها مفروشة بالحجارة وهي من حواضر العدوة ومن المقصودين في السبب والتجارة، ومع هذا فلا سور لها حاجز بين المدينة وبين البحر وكذلك ما يلي البر منها، وبطرفها من جهة البحر دار كبيرة وقد سدوا بابها الذي يدخل اليها منه وهي الدار الذي نزلها السلطان الشيخ ابن السلطان احمد الذهبي الداخل الى اسبانيا، فلا يعمرها احد ولا يسكنها . اذ عوائد النصارى ان يحترموا الدار التي كان قد نزلها ملك من الملوك ويبنوا بابها فلا يسكنها احد، وبناء بابها علامة ذلك عليها كما فعلوا بمدريد في دار هي اليوم غير معمورة من عهد كرلوص كينطو

(١) هكذا في الاصل وفي مخطوطة ٢ : قسطنطينية

الذي حارب ملك الفرنسيس وتغلب عليه واسره وتي به الى تخت ملكه ودار سلطنته مدريد وانزله بالدار المذكورة وبقي تحت يده زماناً الى ان سرحه، ومنّ عليه فتركوا الدار التي كان بها على حالها واغلقوا بابها بالبناء . فهي معروفة مشهورة .

* * *

ولما حللنا دار النزول بمدينة (سانتا مريّة) ورد اهلها واعيانها للسلام والترحيب وفيهم من البشاشة وحسن الملاقات والبشر ما ليس في غيرهم، ولم يزل الحاكم والقاضي يختلفان الينا ويترددان الى ان مد الليل رواقه وارخى في عنق الجوز اطواقه . ومن الغد حين اصبحنا ورد علينا بعض الاعيان مع الدوكي المتولي امر هذه (الكوشطة) القاطن بمدينة سان لوكار معتذراً عن حال مشيه بمرض منعه عن القدوم فقبلنا اعتذاره وخرجنا من المدينة بعد ان برز اهلها ايضاً للتشييع وخرج القاضي والحاكم المذكوران وقبطان الخيل مع سريته وساروا معنا مسافة ثلاثة اميال الى ان وصلنا حداً معلوماً عندهم فاصلاً بين عمالتهم وعمالة مدينة (شريش) فترجل الاعيان وجميع من برز معنا وشيعونا بعد ان اعتذروا عن التقصير، وقالوا هذا الحد هو فاصل بيننا وبين حاكم البلد الاخرى التي تقابلنا ولو امكننا الزيادة لسرنا معكم اليوم كله اجلالاً وتعظيماً لمرسلكم وقصدهم معنى ما قيل : ولفرد عين الف عين تكرم .

فشيعناهم ورجعوا عنا وسرنا مسافة فوصلنا مدينة شريش وفيما بين المدينة بلاد متسعة ذات اشجار وانهار وبها من الزياتين والبساتين والكروم وانواع الغراسة ما لا يحصى .

* * *

ومدينة شريش مدينة كبيرة واسعة واثرها اثر الحضارة القديمة وقد بقي من

اسوارها اثر واكثره دثر وخرب لان النصارى لم يكن لهم اعتناء ببناء الاسوار ولا بتحصين المدن الآ في البعض مما قارب البحر كقادس من جهة المرسى، ومدينة جبل الفتح فانها حصينة ولها سورغير شاهق لبنائه على الموج، ومدينة شريش هذه تلقب بشرش لفرونطيره (١) ومعناها المقابلة ويعنون بها المقابلة لبر الاسلام عزه الله، وجل اهلها من اهل الاندلس واعيانهم لانهم تنصروا وهم اهل حراثة وفلاحة، فعبرناها ضحوة ولم نزل سائرين ذلك اليوم الى ان بلغنا عشية مدينة يقال لها (البريجة) هي مدينة صغيرة الى البداوة اميل، واثر سورها ايضاً خرب ودثر، فلقينا حاكمها وقاضيها وانزلونا داراً لبعض اكابرهم وجعلوا بها لون علينا السلام. وفيها انتسب لنا بعض الى الاندلس باشارة خفيفة لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي، والغالب على جل سكانها انهم من بقايا الاندلس الا ان العهد طال عليهم وربوا في بحبوحة الكفر فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله.

ومن الغد ارتحلنا الى مدينة يقال لها (اطريرة) وفيما بينهما بلاد متسعة وارض فسيحة معمورة بعزائب الحرث والمواشي واكثر غنم الاندلس اسود، وعن يسار المار من البريجة الى اطريرة مقدار ميلين او ثلاثة الواد الكبير (٢) المنحدر من اشبيلية الذي تجتمع فيه سائر اودية الاندلس وتسافر فيه المراكب من البحر الكبير الى ان تصل اشبيلية على مسافة اربعين ميلاً من البحر المذكور.

ومدينة اطريرة هذه هي مدينة بين الصغر والكبر وجل اهلها من بقايا الاندلس

---

(1) Jerez de la Frontera

(٢) وفي مخطوطة ١ : الوادي. والوادي او الود هو النهر في لغة عامة الاندلس والمغرب.

فوصلناها عشية اليوم فوجدنا جميع اهلها وقد برزوا لنا للاستسقاء وهــم على عــدد نسائهم قد رفع كل واحــد منهم صليباً على كتفه فلقونا على تلك الحالة حيث لــم يمكنهم التخلف فنزلنا بالمدينة داراً كبيرة مشرفة على جبــل المدينة وبعد ان طرحوا صلبانهم وردوا ايضاً السلام علينا وهم في البشاشة والفرح بمكان، واهلها ذوات عظام والغالب عليهم الحسن رجالاً ونساء ولقد شاهدنا البنتين: بنت حاكم البلد والاخرى بنت القاضي في غاية من الحسن والجمال والكمال لم تر عيني في جميع ما رأيت من بلاد اسبانيا على سعتها اجمل منهما، وهما من بنات الاندلس ومــن دم ملك غرناطــة الأخير الذي كان غلب عليها وهو الملك المعروف عندهم بالري الشيكو ومعناه السلطان الصغير، ولقد اخبرني بمدينة مدريد رجل يسمى ضـون الونصو حفيد موسى اخــي السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة ان البنتين اللتين باطريره من دمه، وضون ألونــصو هذا هو رجل حسن الاخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة، معروف عند النصارى وهو معدود من فرسانهم وشجعانهم ويقوم الى الاعجال (١) والشرور، قبطاناً على جماعة من الخيل، والنصارى يعتدون بشجاعته، ومع هذا فهو مائل الى من يلقاه من اهل الاسلام ويذكر نسبته ويعجبه ما سمعه من الحديث عن الاسلام واهله، ولقد حدثني عن امه انها حين حملت به اشتهت اكل الكسكوس (٢) فقال لها ابوه لعل هذا الحمل الذي في بطنك من ضناو المسلمين يداعبها بذلك اذ كانوا لا ينفرون عن نسبتهم لعلمهم به، وانهم مــن بيت الملك، نعوذ بالله من الخذلان والغواية ونسئله التوفيق والهداية. ومن عظيم بشاشة اهــل اطريرة انهم وردوا علينا ليلة مبيتنا عندهم بانفريلية الذين يحسنون الغناء فــي

---

(١) هكذا في الاصل

(٢) لون طعام مغربي اندلسي يعمل مــن دقيق يلت بالسمن ويضع معه دجاج وتوابل وهو مشهور جداً بالمغرب.

كنائسهم وبيدهم آلات اللهو والطرب منها آلة يسمونها الأربة ذات اوتار عدة وهي خشنة الشكل يزعمون انها آلة النبي داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وعلى شكلها رأيت بيدي صورة من الصور التي يجعلونها في بيوتهم وديارهم ويزعمون انها صورة النبي داود عليه السلام اذ جميع تواريخهم ودياناتهم هي مأخوذة عن ديانات بني اسرائيل وعن التوراة في زعمهم، الا ما زاده من الفرق الحاصل بينهم وبين اليهود حين تألبوا على المسيح وصارت العداوة بينهم بسبب ذلك، ولم يزالوا من ذلك العهد يحدثون في ديانهم واعتقاداتهم الفاسدة وضلالهم ما يحدث لهم البابا بروما، احمقه الله بكابر قومه. وبين مدينة اطريرة هذه الى مدينة (مرشينة) عشرون ميلاً فيما بينهما ارض واسعة فسيحة متسعة الارجاء سهلة. وليس بهذه البلاد الاندلسية جبال الا ما هو عن يمين المار تظهر على مرءى العين كجبال الرندة وما والاها، وفيما بين اطريرة ومرشينة واد كبير عليه قنطرة كبيرة مبنية احسن بناء من عهد المسلمين وبهذا الواد كانت وقعة (الزلاقة) الشهيرة الذكر، وعلى هذا الواد كنيسة صغيرة بها صورة حرب الزلاقة منقوشة بحيطانها.

* * *

ومدينة مرشينة هي مدينة متوسطة ايضاً اثرها اثر الحضارة القديمة وهي اليوم الى البداوة اميل واهلها اهل بشاشة ومنهم من ينتسب الى الاندلس انتساباً. ومنها الى مدينة (ايشكا) احد وعشرون ميلاً وفيما بينهما بلاد متسعة الارجاء فسيحة ذات جنات وبساتين واكثر شجرها شجر الزيتون، فعلى مدينة مرشينة من ناحية ايشكا ثمانية اميال كلها معمورة بالزياتين وفي كل غابة من زياتينها دار مخزن الزيتون واعمران من يقوم بها وبأمرها، وكذلك فيما يلي ايشكا من طريق مرشينة ايضاً من الزيتون مسيرة

ثمانية ايام اخرى يميناً وشمالاً وخلفاً واماماً اذ الاندلس اكثر عمارة العدوة شجراً وزيتوناً وعلى قرب مدينة ايشكا على ربوة من الارض مطلة على المدينة اثر بناء قديم مصالح زعموا انها روضة صالح من صلحاء المسلمين رأوا له بركة عظيمة فتركوا روضته على ما هي عليه .

ولما اشرفنا على مدينة ايشكا رأينا بها من حسن المنظر وبهائه ما ليس في غيرها من سائر مدن العدوة وهي في غور من الارض على شفير الوادي المسمى بواد شينيل .

وشنيل هذا من حيث البناء عليه من المنتزهات والبساتين وحسن المنظر ما خامل عقول كثير من ادباء الاندلس وقد اكثروا فيه من قول الشعر على كل وزن وكل قافية ونظموا فيه من الازجال والموشحات مالا يحصى ولا يعد وما يفوت الحصر والحد .

فمن ذلك ما علق بالحفظ من قول اثير الدين ابي حيان رحمه الله وهو في مصر يتشوق الى وطنه بغرناطة ويصف منازله بها ويبث شوقه واشجانه ويندب معاهده بها ومشاهده وهو قوله :

هل تذكرين منازلاً بالاجبل	ومنازلاً حفت بشطي شنّل
ومشاهداً ومعاهداً ومناظراً	ومقاصراً للقاصرات الرفل
حيث الرياض تفتحت ازهارها	فشممت اذكى من اريج المندل
والطير تشدو مفصحات بالغنا	فوق الغصون الناعمات الميل
فتثير المشتاق داء كامناً	وتديل صائر دمعه المتدلل

وما زال يسمى عند النصارى باسمه الاول المعهود، وهو واد كبير ينحدر من واد آش ومن واد شينيل من احواز غرناطة وجبالها وعلى هذا الواد من المتنزهات والاجنات والبساتين والارحية وانواع الغراسة مالا يحصى . وليس ما رأيناه في سائر العدوة

الاندلسية منتزهاً ابهى منه منظراً، والمدينة على شفير هــذا الواد المذكور مــع ما دار بها من البساتين والمنازه والدور التي في البساتين كلها فلك دارت كواكبه .

ولقد ذكرني ما شاهدته من حسن هذا الوادي وبديع منظره وبهائه قول حمدة الاندلسية الشاعرة التي من واد آش .

ابــاحَ الدمــعُ اسراري بــوادٍ   لــه في الحسـن آثــار بــوادي
فمن نهــرٍ يطوفُ بكل روضٍ   ومن روضٍ يطـوف بكـل وادِ
ومن بين الظبــاء مهــات رمــلٍ   سَبَت لُبي وقــد سلبت فوادي
لهــا لحــظ ترقــده لأمــرٍ   وذاك الأمر يمنعني رقــادي
اذا سدلــت ذوائبهــا عليهــا   رأيت البدر في جنــح السوادِ
كأنَّ الصبح مــات لــه شقيــقٌ   فمن حزن تسربــل بالحــدادِ

وحمدة هذه هي من شاعرات الاندلس واخبارها مشهورة في محلها مــن اخبار شعراء العدوة وشاعراتها وهي القائلة .

ولما ابى الواشون الآ فراقنــا   ومــا لهم عندي وعندك من ثــارِ
وشنُّوا على اسماعنا كل غارة   وقلّ حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهــم مــن مقلتيَ وادمعــي   ومن نَفَسي بالسيف والقتل والنارِ

وقد انشدت حين أبصرت هذه المدينة وجميل منظرها متمثلاً بيت من الحريري وضمنته بيتين آخرين .

آليت اذ نظرت عيني محاسنهــا   ان لا نظير لهــا في مطلق الصورِ

وهذان بيتا التضمين تذليلاً .

فالله ينقذهــا حتى يــدان بهــا   دين المهيمن محروساً مــن الكدر
بكف محتسب الأجــر منتدب   للــه منتسب لافضــل البشــر

وحين قربنا من المدينة برز حاكمها في كدشه ومعه اولاده ومن معه من اصحابه راكبين خويلة له زعم انها من احسن الخيل الاندلسيّة واجودها، فالتقينا خارج المدينة ورحب بنا ولم يدع من البشر وحسن الملاقات شيئاً، وسار بنا الى المدينة وطفنا اسواقها ورحابها وازقتها فاذا هي مدينة متحضرة بين الصغر والكبر وهي في غاية النظافة ولاهلها حسن اخلاق وجمال، وبوسطها المسجد الجامع عجيب الشكل متقون البناء وبصحنه اشجار النرنج وهو من عهد المسلمين وقد بقي على حاله، فوصل بنا حاكم المدينة الى داره وهي دار كبيرة واسعة فانزلنا بها احسن نزول ولم يقصر في الاكرام ولا فيما وجب عليه من الصواب وحسن الخطاب. فبتنا في داره تلك الليلة، وفي الغد خرجنا من المدينة واذا على طرفها قنطرة عجيبة وعلى باب هذه المدينة وتحت هذه القنطرة من الارحية والبناءات شيء كثير، وتابعنا السير حتى وصلنا الى مدينة (قرطبة) وهي مدينة كبيرة حاضرة من حواضر العدوة وهي دار ملك قديم وفيها كان سكنى ولاة الاندلس قبل دخول عبد الرحمان بن معاوية. وفي سنة ثمان وستين ومئة انتقل عبد الرحمان من الرصافة حيث يسكن الى قرطبة وجعلها مقر ملكه وسرير سلطانه وخلافته وقد كانت قبلاً سكنى ملوك بني أمية من عهد عبد الرحمان الداخل وغيره ممن كان قبله ومن ولي من بعده ومن خلفه.

والمدينة في سفح جبل يسمى (سير مدينة) وهي على ضفة الواد المسمى بالواد الكبير الذي ينحدر من جبال بياسة وجبال جيّان وغيرها.

والنصارى يسمونه باسمه المعهود في عهد المسلمين. وهذا الواد هو اكبر اودية الاندلس كلها وبه يجتمع سائرها وهو الذي يمر باشبيلية وينحدر الى البحر عند مدينة سان لوكار. وبخارج مدينة قرطبة من البساتين والجنانات وانواع الكروم ما لا يحصى.

وحين قربنا من المدينة برز اهلها للاقات وبرز من بها من الاسارى وهم يُعلنون بلفظ الشهادة ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى، وصبيان النصارى يقولون مثل ما يقوله الاسارى. ولما دخلنا المدينة رأيناها مدينة كبيرة عامرة مشحونة بانواع الحرف والصنائع واكثر باعتها نساء، فنزلنا دار حاكمها.

*

* *

ومن الغد خرجنا منها بعد ان زرنا مسجدها الاعظم الشهير الذكر البعيد الصيت وهو مسجد كبير جداً في غاية الاتقان وحسن البناء وبداخله الف وثلاث مائة وستون سارية كلها من الرخام الابيض، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر، وله من الابواب الآن اربعة عشر باباً وقد سدّ كثير من الابواب وغيرها. ومحرابه الاسلامي باق على حاله لم يتغير ولم يحدث فيه شيء الا انهم جعلوا عليه شباكاً من نحاس وطرحوا امامه صليباً فلم يدخل عليه احد الاقيم ذلك الصليب، ولم يرد بداخله ولا بحائطه شيء قليل ولا كثير. ولهذا المسجد صحن كبير جداً مشتمل على خصة ماء في وسطه ويدور بها في سائر الصحن من اشجار النارنج (١) مائة وسبعة عشرة شجرة، ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد وهو منار كبير مبني من الحجارة الآ انه ليس بغاية الارتفاع كمنار طليطلة واشبيلية وهو مبني على باب من ابواب المسجد المقابلة لموضع العنزة وما زال سقف المسجد وابوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء الآ ما تدعو الضرورة اليه من اصلاح السقف الذي يتداعى الى السقوط وشبه ذلك، وقد احدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلاً لمحرابه

---

(١) وفي مخطوطة تطوان: الرنانج

قبة كبيرة مربعة مشبكة بشبابيك من نحاس اصفر جعلوا داخل هذه القبة صليباً من صلبانهم وكتب صلواتهم التي يحضرونها مع الموسيقى وشبهها .

وابواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الاول والنقش بالكتابة العربية، وهذا المسجد هو اكبر مساجد الدنيا واعظمها صيتاً .

وفي سنة تسع وتسعين ومائة ابتاع الامام عبد الرحمان الداخل موضع الجامع بقرطبة من نصارى الذمة وكان بالموضع المذكور كنيسة قديمة فاشتراه بمائة الف دينار وزاده في ساحة المسجد .

وفي سنة كذا ومائة أسس الامام الجامع بقرطبة واخذ في بنائه اتقانا وبناه من مال الاحباس (١) وانفق في بنائه مايتي الف دينار وفي ذلك يقول بعضهم :

وابرز في ذات الالاه ووجهه — ثمانين الفا من لجين وعسجد
وانفقها في مسجد أسه التقى — ومنهاجه دين النبي محمد
ترى الذهب الوهاج بين سموكه — يلوح كلامع البارق المتوقد

وجعل للجامع سبعة ابواب اذ ذاك، وما زال ملوك بني أمية يزيدون في بناء هذا المسجد والاحتفال فيه الى زمن المنصور ابن ابي عامر وقد زاد فيه من قبله الامام عبد الرحمان بن الحكم ابن هشام ابن عبد الرحمان الداخل على ما كان، وزاد فيه ايضاً جده الداخل زيادة كثيرة ورفع سمكه وفي ذلك يقول شاعره ابن المثنى :

بنيت لله خير بيت — تخرس عن وصفه الانامُ
حج اليه من كل أوب — كأنه المسجد الحرامُ
كأن محرابه اذا ما — حف به الركن والمقامُ

وقال آخر :

---

(١) الاوقاف

بنى مسجداً لم يبن لله مثله ... ولا مثله لله في الارض مسجد
سوى ما ابتنى الرحمان والمسجد الذي ... بناه نبي المسلمين محمد
له عمد حمر وخضر كانما ... تلوح يواقيت بها وزبرجد
الا يمين الله لا زلت سالماً ... ولا زلت في كل الأمور تسدد
فياليتنا نفديك في كل حادث ... وانك للاسلام فينا مخلد

وعبد الرحمان هذا هو اول من كسى الاندلس أبهة الخلافة وامر ببناء الجامع باشبيلية وبناء سورها من اجل طروق المجوس فيها من البحر الرومي سنة ٢٣٠ وفي سنة ٢٣٤ أمر الامام عبدالرحمان هذا ببناء الجوامع الكبيرة بسائر الاندلس فبنيت، وصنع بها المنابر للخطباء وتنافس جواريه في بناء المساجد وعمارتها واتخاذ الاوقاف لها اقتداء بفعله فبنى مسجد طروب ومسجد مجد ومسجد الشفا ومسجد متعة وكانت له همة في كتب العلوم والأدب فلقد بعث ثقته عباس ابن ناصح الثقفي الى بغداد بالاموال فاشترى له منها كل غريب، وكان ضابطاً للغريب راوياً لاشعار العرب ذاكراً لايام الناس ولقد وردت عليه حسانة التميمية متشكية بجابر بن ابيد والي البيرة، وكان والده الحكم قد وقع لها بخط يده بتحرير املاكها وحملها في ذلك على البر والاكرام فتوسلت الى جابر بخط الحكم فلم يفدها .

فدخلت الى الامام عبد الرحمان واقامت بفنائه وتلطفت مع احدى نسائه حتى اوصلتها اليه وهو في حال طرب فانتسبت اليه فعرفها وعرف اباها ثم انشدته مرتجلة هذه الابيات :

الى ذي العلى والمجد سارت ركابنا ... على شحط تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدعي انه خير جابر ... ويمنعني من ذي الظلامة جابر
فانا رأينا من بقبضة جابر ... كذي الريش اضحى في مخالب كاسر
جابر بمثلي ان تكون مروعه ... لموت ابي العاصي الذي كان ناصري

سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى علي زمان باطش بطش قادر
ايمحوا الذي خطته يمناه جابر لقد هام هذا الملك احدى الكبائر

فلما تمت انشادها دفعت اليه خط والده الحكم بتحرير املاكها وحملها على المراعات والمعابات، وقصت عليه جميع امرها مع جابر وامتناعه عليها، فرّق لها وأخذ خط ابيه فقبله ووضعه على عينيه.

وقال لقد تعدّى ابن لبيد طوره وسفه رأيه. كيف ينقض امر الامام الحكم وحسبنا ان نسالك سبيله بعده ونحفظ بعد موته عهده. انصرفي ياحسّانة فقد عزلته لك، ووقّع لها بمثل توقيع ابيه الحكم، فقبلت يده، فامر لها بجائزة فانصرفت وبعثت اليه بقصيدة من البيرة منها:

ابن الهاشمين خير الناس مأثرة وخير منتجع يوما لرواد
ان هزّ يوم الوغى اثناء صعدته روى انابيبها من صوب فرصاد
قل للامام ايا خير الورى نسباً مقابلاً بين آباء واجداد
جدبت طبعي ولم ترض الظلامة لي فهاك فضل ثناء رائح غاد
فان اقمت ففي نعماك عاكفة وان رحلت فقد زودتني زاد

ثم ان عبد الرحمان الناصر وهو عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وهو نجم بني أميّة بالاندلس شرع في الزيادة في جامع قرطبة فبناه وكمله وارتفعت في الزيادة عند كمالها ست وستون ثريّة في كل ثرية عشرون كأساً كانت كلها مذهبة.

*
* *

وفي سنة خمس وخمسين وثلاث مائة تم منبر جامع قرطبة بالعمل ونصب

بالمقصورة مؤلفاً مـــن الابنوس والصنــدل الاحمر والاصفر والعناب والبقم وانتهى الانفاق فيه الى خمسة وثلاثين وخمس مائــة دينار (١) وعدد درجه تسع درجات، وقام هذا المنبر من ستة وثلاثين الف رطل، وكان الانفاق في الزيادة في الجامع : ماية الف دينار واحدى وستين الف دينار ونيف، وفي سنة احدى وثمانين وثلاث مائة ابتدأ المنصور بن ابي عامر بالزيادة في المسجد الجامع بقرطبة فزاد فيه نحو النصف على ما كان بناه الخلفاء قبله، وصلى الناس فيه سنة اربع وثمانين فكان العمل فيه ثلاث سنين وخدم في بنائه الاعلاج ووجوه فرسان الخلافــة والفرنج يعملون مــع الصناع مصدفين في الحديــد الى ان كمل، وبنى فيه الجباب لاستقرار الماء من الامطار في صحن الجامع، وعدد سواريه الــف واربعمائة سارية وسبــع سواري منها في المنار والمقصورة وغير ذلك. ويقابل هذا المسجد القصبة الكبيرة التي كانت دار ملك قرطبة وسرير سلطنة العدوة حين اجتماع كلمتها وقبل حلول ملوك الطوائف بها، نسأل الله تعالى ان يعيدها دار اسلام بجاه نبيه عليه السلام. وما زالت أسوار القصبة باقية على حالها من حسن البناء، وارتفاع سمكه وعلوه في الجو على قدر علو المسجد.

ومن العظيم اثر بنيان هذا المسجد وعلو سمك جدرانه في الجو جعلوا له سواري من خارج الجدران مبنية من الحجارة خارجة من الحائط نفسه، وبين كل ساريتين مقدار عشرة اذرع لشد حيطانه وترصص جدرانه، ويدور بالمسجد كله بنيان على قــدر قامة الانسان بارزاً مثل الشدر وان احتفاظاً لحائط المذكور وهذا المسجد هو من احسن مساجد الاسلام وصيته يغني عن الاطناب في وصفه وهــو بمقدار المسجد الاقصى على ما قيل ولقد نقلت من كتاب نزهت المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والمدائن والآفاق حيث ذكر المسجد الاقصى ووصفه الى ان قال : وليس في الارض

---

(١) وفي مخطوطة ٢ : الى خمسة وثلاثين الف وخمسماية دينار

كلها مسجد على قدره الا المسجد الجامع الذي بقرطبة من بلاد الاندلس . وفيما يذكر ان سقف جامع قرطبة اكبر من سقف الجامع الاقصى، وصحن المسجد الاقصى في تربيع طوله مائتا باع في عرض ماية وثمانين باعاً .

وفي احواز (١) مدينة قرطبة على شفير الوادي من ارض الحراثة والعزائب لانتاج (٢) الخيل مالا يحصى، لان خيل بلاد قرطبة واحوازها من البلاد الاندلسية احسن عند النصارى من خيل جميع بلاد اسبانيا على سعتها، وبسبب ذلك منع طاغية اسبانيا اهل الاندلس من ان ينزوا حماراً على (٣) فرس، ومن قبض عليه في ذلك يعاقب عقوبة كبيرة : بأخذ ماله، او حبسه او غير ذلك من انواع العقوبات ونتاج البغال عندهم هو بالبلاد المعروفة عندهم بما نشا ومعناها العلامة، وما نشا هذه هي بلاد واسعة جداً مسيرة ستة ايام وهي ارض خشنة ذات احجار، ومنابتها الشيح وغيره من المنابت اليابسة وهي البلاد الفاصلة بين الاندلسية وبين قشتالة الجديدة، وبغال هذه البلاد تشاكل بغال بلاد الشام او تقرب منها .

واهل قرطبة اهل حراثة وفلاحة، وبلاد الاندلسية كلها قليلة المياه سوى في اوديتها (٤) المذكورة ولم يكن لاهلها اعتناء، بالسواني ولا باخراجها، اذ حراثتهم كلها في البلاد البعلية الا ما سمع عن غرناطة واحوازها من تدفق المياه وجريانها من كل موضع . وعلى هذا الوادي من القناطير المبنية احسن بناء عدد كثير، وعلى باب مدينة قرطبة قنطرة كبيرة وتحتها آثار قنطرة أخرى زعموا ان المسلمين أسسوا قسم السفلى منها وقد خربها

---

(١) وفي مخطوطة (م) : وبأحواز

(٢) وفي مخطوطة (م) : لنتاج الخيل

(٣) وفي مخطوطة مدريد : من ان ينزو احد حماراً على فرس . . .

(٤) وفي مخطوطة مدريد : الا ما بها من الاودية

السيل من مدة عشرة اعوام فجدد النصارى فوقها بقليل قنطرة اخرى لها من الاقواس سبعة عشر. وقد قيل في مدح قرطبة ووصف مفاخرها.

بأربع فاقت الامصار قرطبة … وهن: قنطرة الوادي وجامعها

هاتان اثنتان والزهراء ثالثة … والعلم اكبر شيء وهو رابعها

*
* *

ومن قرطبة الى مدينة تسمى الكاربي خمسة عشر ميلاً، وهي مدينة صغيرة على نشز من الارض بمقربة من الوادي ايضاً، وبهذا الوادي دو اليب ونواعير تصعد الماء من الوادي الى بساتين تحت المدينة، واهلها اهل فلاحة وحراثة وهم الى البداوة اميل! وعلى هذا الوادي من جانبيه من المداشر والقرى ما لا عدد له، ومن مدينة الكاربي هذه الى مدينة تسمى اندوخر واحد وعشرون ميلاً، وهي مدينة قديمة اثرها اثر الحضارة وهي على ضفة الوادي الكبير ايضاً، وعلى هذا الوادي بقرب المدينة قنطرة قديمة من عهد الاسلام، وبفحص هذه المدينة من الزياتين والغرس والبساتين وارض الحراثة ما لا يحصى، واهلها اهل حراثة وفلاحة، والغالب على عمارها انهم من بقايا الاندلس وجلهم من اولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان ابي الحسن آخر ملوك غرناطة وذلك فيما يزعمونه النصارى.

وينقلون في تواريخهم ان بعض اولاد ابن زكري الغرناطيين بغرناطة كان وشى الى الملك باحد اولاد السراج وذكر عنه ان له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة، فحنق الملك على اولاد السراج الذين معه بغرناطة فقتل منهم جماعة اعيان، وكان اولاد السراج في ذلك العهد هم اقوى جيش المسلمين وبلادهم اندوخر بيدهم باقية بعد تغلب الكفرة على قرطبة واحوازها يحاربون عليها ويذبون عنها فحين بلغهم خبر من

قتال من اخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والأنفة والحنق والغيظ على ان ركبوا من ساعتهم وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده وخرجوا من عنده قاصديـــن غرناطة فاغاروا عليها وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة واحوازها نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ومن الغواية بعد الهداية.

وجل هؤلاء المتنصرة الذين باندلوس يعد من اكابر اهـــل البلد غير انه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبيرة التي يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف مثل الدوكي او الكندي وشبههما واكثر ما يحصل لهم اليوم من الكبيرة ان من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا ان يرث حمل الصليب على كتفه يرقمه في ثوبه المذكور بـــه فذلك هي علامة الاصطبار منهم. والخطط التي يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكومة البلدان والشرطة وغيرهما ليست له وجاهة كبيرة وولاية شنيعة مثل التصرف في المعاملة او الولاية للاقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل اشبيلية وما شاكلها، وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يعدون فمنهم مـــن ينتسب ومنهم من لا ينتسب ومنهم من ينفر من سماعه لانتساب ذلك والذي ينفر مـــن هذه النسبة ويتأبى عنها ينتسب الى جبال نبارى، وهي جبال بعيدة من قشتالة كان انحاز اليها من بقي من النصارى من ساعة تغلب المسلمين على العدوة يتفاخرون بالانتساب الى تلك الجبال وما والاها والذين بيدهم ولاية او خطة من الخطط المخزنية من اهل هذا الجنس لا ينفرون من هذا الانتساب.

فلقد لقيت يوماً بمدينة مدريد رجلاً (نسيت اسمه الآن) راكباً في كدش له ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً لهم حسن وجمال فوقف وسلم سلاماً كثيراً والناس هو ومن معه من النساء بشراً وترحيباً فقابلناه بما يجب، وحين اراد الانصراف عرّف بنفسه بأن قال: نحن من جنس المسلمين من نسل اولاد السراج، فسألت عنه بعد ذلك

فقيل لي انه من كتاب الديوان وهو الذي يقرأ ما يحصل بالديوان من رقاع وعرض حال وشبهه .

وكذلك ايضاً كانت جماعة من اهل غرناطة لهم بها ولاية واحكام وسكناهم بمدينة مدريد ترد علينا صحبة ضون ألونصو الذي هو من عقب غرناطة وينتسبون الى الجنس الذي كان بغرناطة وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله .

ولقد كانوا يسئلون عن دين الاسلام وعن اشياء منه، فحين يسمعون ما نجيبهم عنه من الديانات واحكام الطهارة التي بني الاسلام عليها وغير ذلك، يعجبهم ما يسمعون منه وينصتون اليه ويشكرونه بمحضر النصارى ولا يعبئون بمن حضر، ولم يزالوا مدة مقامنا بمدينة مدريد يكثرون التردد لدينا ويردون علينا المرة بعد المرة ويظهرون من المحبة والتحنن شيئاً كثيراً . نسئل الله تعالى ان يهديهم الى الصراط المستقيم ويرشدهم الى الدين القويم .

ومن مدينة اندوخر هذه الى مدينة تسمى لينارس اربعة وعشرون ميلاً، وهي على مسيرة ثلاثة اميال او اربعة من مدينة اندوخر، يفارق المار الوادي الكبير ويتركه يمينه (١) عند انحداره من الجبال .

ومدينة لينارس (٢) هي مدينة متوسطة اثرها اثر الحضارة قديماً وبها من بقايا الاندلس النزر القليل من سكانها وبخارجها معادن كثيرة من الرصاص الذي ينقل الى كثير من بلاد اسبانيا .

ولما وصلنا هذه المدينة ورد علينا اهلها للسّلام كالعادة، منهم جماعة من الفرايلية (٣)

---

(١) وفي مخطوطة (م) : يمنته عند ما ينحدر من الجبل

(٢) وفي مخطوطة (١) : لينارس

(٣) لفظة اسبانية معناها الرهبان (3) Frailes

مسلمين علينا وطلبوا منا على لسان الراهبات ان نصلهم وننظرهم فواعدناهم من الغد.

ولما اردنا الخروج من المدينة ضحوة طرقنا الكنبينطوا (١) الذي هنّ به فدخلنا عليهن فوجدناهن في دار مجاورة الكنيسة يسمعن الميسة (٢) وهنّ في غاية ما يكون من التحفظ والصون من الصغيرة التي يبلغ عمرها سبعة اعوام الى العجائز والمتجالات وهنّ ابكار، ومن عادتهن في ذلك ان جميع من احبت الترهب والتزهد تدخل الكنبينطوا المعد لذلك سواء كانت صغيرة او كبيرة بعد ان تحلف وتشهد على نفسها انها لا تدخل الى ذلك الموضع (٣) الا بعد ان لم يبق لها في الدنيا أرب ولا غرض ولا تتعلق لها شهوة في رجل ولا في نظر ولا في دخول ولا في خروج. فتدخل الكنبينطوا وتلبس من اللباس ما خشن فان كان لها مال يجري عليها منه بالقسط ومن ليس لها مال منهنّ تخدم غيرها وتعيش معها او تأكل من الحبس الموقوف عليهنّ وهذا الكنبينطوا المعد للراهبات ويسمونهنّ بالعجمية المونكاص لا يدخله احد من الرجال اصلاً وعليهن عجائز موكلات بهن، فاذا حصل باحداهن مرض تتوقف فيه على الطبيب يدعى لها الطبيب ويدخل عليها بعد ان يحدق به اربعة عجائز، واحدة عن يمينه والاخرى عن شماله والثالثة من خلفه والرابعة امامه فيدرن به حين دخوله باب الكنبينطو ولا يفارقه حتى يخرج.

ودخول المرأة للكنبينطو هو بمثابة موتها اذ لم يبق لها أرب في شيء من الدنيا الا من دخلت منهن صغيرة السن قبل البلوغ فتستشار حينئذ وتخير في امرها ويلقى اليها امر نفسها فاذا اثرت ذلك الموضع واحبته وقالت لا أرب لي في الخروج ولا في الزواج بعد ان يخلى بينها وبين نفسها يشهد عليها بقبول ذلك ويوخذ عليها العهود والمواثيق على

---

(١) الكنبينطوا : لفظة اسبانية معناها : الدير — (1) Convento

(٢) الميسة : لفظة اسبانية معناها القدّاس — (2) Misa

(٣) وفي مخطوطة (م) : انها لاتوثر الدخول لذلك الموضع

مقامها هنالك بغرضها وانها لم يبق لها تعلق ولا تشوق الى شيء من امور الدنيا وان هي احبت الخروج والترويج لا تمنع منه وتجاب اليه فمنهن من تؤثر المقام هنالك لاجل الألفة ومنهن من تؤثر المقام لما يغلب على ظنهن انهن على طريق قويمة ومنهن من تخاف السبة والعار بخروجها بعد ان حسبت من الراهبات، والغالب على دخولهن الى الكنبينطو عدم وجود الصداق الذي تعطيه على زواجها للرجل، في عوائدهم ان المرأة تدفع المهر من عندها وصاروا يتغالون في ذلك حتى آل الى عدد كثير لا يقدر عليه الا من له وفر ومال وميراث كثير فصرن يدخلن هذا الموضع المعد لذلك حين لا يجدن اتساعاً في المال ومنهن من تكون من الاعيان الاكابر ذي المال الكثير فتزعم انها زهدت ورفضت الدنيا والرياسة وحب التكبر وتدع تكبرها ورياستها لغيرها من اخواتها او لاهلها وتدخل الكنبينطو (١) والغالب عليهن انهن ابكار، ومنهن من يحب ابوها او امها صونها من الآفات الدنيوية وعار الاحدوثة النفسانية فيودعها هنالك بقصد التحفظ والصون الى ان يبلغ وقت تزويجها فيخرجها، كما رأيت في كنبينطو لمنخاص (٢) الراهبات من مدينة اشبيلية صبية في غاية الحسن والجمال واعتدال القامة وصباحة الوجه لها اربعة عشر عاماً او ما يقرب منها ولباسها غير لباس الراهبات فسألت عنها وعن سبب مخالفة لباسها لجميع الراهبات، فقلن انها مودعة هنالك بقصد الصون والتحفظ الى ان تتزوج. اودعها ابوها قبل ان تستكمل لبنها وهي ابنة عشرون شهراً.

ولهؤلاء الراهبات مذاهب وطرق بعدد مذاهب الفريلية وطرقهم ومنهم جنس

---

(١) كنبينطو : لفظة اسبانية معناها : الدير — (1) Convento

(٢) يقصد لفظة اسبانية : منخاص ومعناها الراهبات — (2) Monjas

يسمى الامكالصوص (١) مذهبهم في الترهب ان لا يكتسبوا ولا يخزنوا فلساً ولا ديناراً ومعيشتهم من الصدقات التي يزعم النصارى انها صدقة.

وكذلك في النساء الفرايليات جنس لهنّ في الترهب طريق ضيقة متعبة وهنّ ساعة تريد المرأة دخول الكنبيطو المعروف لهذا الجنس يوجه عليها العهود والمواثيق والايمان انها لم يبق لها غرض في الدنيا ولا شيء من امورها وان لا تفتح عينيها على احد ممن هو ليس مـن اهل الكنبيطو حتى اذا احب ابوها او امها رؤيتها تجعل على وجهها برقعاً يمنعها من النظر اليهما وهما في غاية الرقة والتقشف بخلاف غيرهن من اهل المذاهب الاخرى وحتى الشبابيك الموضوعة لهنّ بينهن وبين الكنيسة لسماع الكفر جعلت شبابيك ضيقة جداً في موضع مظلم وبخارج الشباك مما يلي الكنيسة كلاليب ومخاطيف (٢) ومسامير كثيرة تمنع التقرب مـن الشباك مع ضيق عيونه، فلا يقربه احد وقـد جعل هـذا الشباك خفياً في موضع مظلم بحيث لا يرى من داخل ولا من خارج (٣) ولقد طلبوا اهل هذا الجنس في مدينة كرمونة رؤيتنا والتمس منا ورغب الحاكم قدومنا اليهنّ فوجدناهنّ على هذه الحالة وهنّ في غاية التقشف وحين جرى الكلام بيننا وبينهن واردنا الانصراف قالت واحدة منهن ما معناه: سلكنا الله واياكم مسالك النجاة والله ما عرفنا اين يسار بنا. فقلت لها الى جهنم وبئس المصير.

وهذا الجنس هو في غاية التقشف والترهب واما الغير فعليهنّ ضيق السجن وعدم الخروج والترويح والتمتع في الملابس وغير ذلك من احـوال الدنيا والا فبينهن وبين الجنس المضيق عليهنّ بون بعيد وهنّ على مذاهب الفرايلية في التقشف والاتساع.

---

(١) ربما يقصد اراد لفظة دسكالصوص وهي: طريقة رهبانية الحفاة (g) Descalzos

(٢) وفي مخطوطة (١): وخطاطف.

(٣) وفي مخطوطة (م): بحيث لا يرينَ منه ولا يُرين.

فمن الفرايلية من تجده جعل في يده تلك الخطة سبباً وحيلة على الدنيا وجمعها، فان كانت له يد عند المخزن يقبض من وفر الحبس الآلاف زاعماً انها لمعيشته ومنهم من جعل في يده تلك الخطة سبباً للاستراحة من تعب الدنيا ومشقتها وتكفيه الراحة ومنهم من جعلها في يده درقة يستتر بها اتقيه وتمنعه من كلام الناس فلا يقدر احد ان يتكلم في احد من الفرايلية بعيب اويلمزه بقبيح ولو شاهده حقيقة، وهم الضالون المضلون المنكبون عن طريق الحق، فلقد ضلوا واضلوا الخلق الله منهم الارض وعمرها بدوام ذكره ولقد جرّبنا الحال الى ذكر هذا.

ولنرجع الى ذكر مدينة لينارس التي رأينا فيها الفرايليات الراهبات وهي كما قدمنا مدينة متوسطة اثرها اثر الحضارة واهلها اهل بشاشة، ومن بشاشتهم وعوائد كرمهم ان اجتمعوا كلهم نساء ورجالاً واتوا بآلة الطرب وعادتهم ان يرقص منهم رجل وامرأة فحين يقوم الرجل يريد الرقص يتخير من النساء صغيرة او كبيرة ويزيل لها شمريره الذي على رأسه ويبايع لها فلا يمكنها التخلف اصلاً، وجل اهل هذه البلد اناس ذو فلاحة وحراثة ولم تكن دار تجارة ولا سبب لانها غير معدودة من الحواضر.

ومن مدينة لينارس هذه الى دشرة تسمّى طري كوان ابان وهي دشرة كبيرة واهلها الى البداوة اميل، وبداوتها شبيهة ببداوة بربرنا اهل الجبال الفحصية وما جاورها، ولقد خرجوا لالاقاتنا يوم ورودنا عليهم وبيد جماعة من نسائهم المزاهر والدفوف على عادة بربر بلادنا وغناؤهم مخالف لغناء اهل الحواضر من النصارى، ودخلنا الدشرة المذكورة يوم رحيلنا من لينارس وهو يوم انفصالنا عن البلاد بالاندلسيّة ودخلنا مانشا التي قدمنا ذكرها وهي بلاد خشنة ذات جبال واحجار ومسالك وعرة وغيض ماتفة واشجار وانهار يابسة لان هذه البلاد المسماة مانشا هي بلاد يابسة جداً ومنابتها الشيح وهي يابسة باعتبار الاندلسية وان كانت كلها قليلة المياه وترابها احمر ومدائنها متبدية بخلاف الاندلسيّة

ومن دشرة طرّي كوان ابان ومعنى الطري البرج (١) وصلنا داراً معدة للنزول قرب مدينة تسمى شكلانة اذ كانت في سفح جبل منكب عن الطريق وهذه هي عوائدهم في جميع هذه البلاد الاندلسية وغيرها من سائر بلاد العدوة فعند كل مسافتين او ثلاثة مسافات يجعلون فندقاً اوداراً معدة لنزول الضيوف والمسافرين فاذا وصل المسافر الى موضع منها ينزله ويجد فيه من الطعام ما يشتهيه وما تبلغ اليه مقدرته، كل على قدر وسعه ويجد العلف لدوابه والفراش لنفسه فيأكل ويستريح ويطعم دوابه ان كان نهاراً وان كان ليلاً فلا يحتاج الا الى الكلام والاستحكام في طلب ما يحبه ويشتهيه.

وعند ما يريد الخروج من الفندق او الدار المعدة لذلك تأتيه زوجة الموكّل بالموضع او ابنته بزمام في يدها وقد حسبت ما عليه (٢) من ثمن الطعام والعلف وكراء المسكن والفراش فلا يمكن للضيف الا اعطاء جميع ما تحسبه عليه من غير مناقشة، وصاحب الفندق او الدار قد تحمّل ذلك بجعل معلوم للطاغية فلا يجد احد من المسافرين في هذه البلاد ان كان سفره قريباً او بعيداً ان يبيت في فلاة من الارض اويقيل حيث ما ادركه المقيل وانما سفرهم في وقت معلوم بحد معروف من كونه اذا ارتحل من الموضع الفلاني يعرف مقيله في الموضع الفلاني ومبيته في كذلك في موضع معلوم ولا يحمل المسافر مدة سفره زاداً ولا شيئاً من المأكولات ولا يحتاج الا ان يصحب معه مالاً للنفقة، وملازمهم في النفقة كثيرة لغلاء الاسعار دائماً فتجد الرجل في بلاد اسبانيا الذي يريد المعيشة من غير تدفق داخل اكل وشرب ويقتصد في معيشته من غير سرف ولا اسراف فلا يكفيه مع اقتصاده ريال واحد.

واما من احب التأنق في المأكل والمشرب فنفقته كبيرة وملازمه كثيرة ومع هذه

---

(١) يقصد بها لفظة طورّي Torre ومعناها البرج

(٢) وفي مخطوطة (م): ما صيّرته عليه

العمارة وكثرة المداشر والقرى والمدن التي في اسبانيا لا يقدر احد ان يسافر وحده في مدة مسافات جبل سير مدنية وجميع بلاد دانشا لما فيها من الخوف وكثرة اللصوص .

فلقد كان النصارى المركانون بباقي طريقنا حيث وصلنا هذه البلاد يستعدون ويتأهبون ولا يعبون ان يتقدم احد من اصحابنا ورفقائنا ولا يتأخر مخافة من الآفات واذا لقينا ثلاثة اناس او اربعة نسألهم عن مرورهم بالعدة القليلة فيقولون من مثل هؤلاء يخاف لانهم اذا وجدوا غرة في هذه البلاد المخيفة يفعلون ما يفعله اللصوص ولا يعرف لهم عين ولا اثر .

واما المتلصصون فلم يكن منهم هنالك احد يذكر الا نادراً ، ولقد ورد علينا عند مارحلنا من مدينة مدريد بقرية طُرّي كيوان ابان رجل مـــن قرية تسمى قوصرا بينها وبين الطُرّي المذكور اميال ، فرحب وسلّم وذكر ان الدمـــع ضون ألونصو حفيد ملك غرناطة محبة كثيرة وصحبة اكيدة وزعم انه كتب له من مدريد كتاباً يلزمه فيه بمرافقتنا في هذا الموضع المخيف يحضه فيه على ملازمتنا مدة مسيرنا في هذه البلاد التي يتوقعون فيها شيئاً من ذلك .

وكان هذا الرجل المذكور ممن يعد من لصوص هذا الجبل وله قوة وشجاعة ، ذكر انه لما كان يتلصص بعث له طاغية اسبانيا سرية من ثلاث مائة رام يقبضون عليه فاختفى اهم في ناحية من هذه الجبال فلم يقدروا عليه ولما رجعوا عـــاد الى داره بقواصرا وهو الآن فيها غير خائف على نفسه ولا على الغير أنه يريد ان يأخذ من الطاغية عفواً يأمن به في نفسه ويجعله في يده وفاراً واماناً . واما هو في خاصة نفسه ليس عليه خوف من شيء .

ولقد رأيت عزائبه وخيله رائعة في فدادين من الأرض قرب المدينة ترتـــع وتسرح ولقد حدث عن نفسه ما عمله في هـــذه الجبال من افعال التلصص ولقد اظهر اليوم رجوعاً عن ذلك وقال لي لو كنت متأهباً السفر لقدمت معك الى مولاي اسماعيل اطلب منه كتاباً احترم به الى سلطان اسبانيا ليكتب لي اماناً تطمئن به نفسي ، وان قدم من هذه

البلاد بعد هذا احد فاني اصاحبه واقدم معه، ولما احب مرافقتنا التي اتى لسببها قلنا له : لا نحتاج اليك ورجوعك الى دارك من هنا اوفق وعزمنا على رده فأبى الا المرافقة والمصاحبة، فتركناه اسعافاً لغرضه والصحبة التي متّ بها الى ضون ألونصو، فرافقنا يوماً هو وصاحب له ورجع عنّا بعد ان الزمناه الرجوع والاياب الى مقره.

* * *

وبهذه الفنادق المعدة لهذه الرفاق والمسافرين خيل معدة بقصد سفراء المخزن ورقاقيصه الذين يقطعون المسافات العديدة في الساعة الواحدة وذلك اذا قرب الرقاص من الموضع المذكور ويسمونه بلسانهم البينطة (١) يخرج له فرساً مسرجاً ويلقاه به عند باب البينطة وبيده كأس من خمر وبيضتان من بيض الدجاج يشرب ذلك ويبدل فرسه بالفرس الذي احضر له ويصحب معه وكيل الموضع رجلاً آخراً راكباً ايضاً حتى اذا قرب من البينطة الأخرى نفخ في البوق الذي عنده المعد للاعلام فلا يصل حتى يجد الفرس محضراً مع الطاقة التي يشرب من خمر وغيره، فيناول الفرس الذي اتى به الرفيق الذي معه ليرده لصاحبه ويأخذ فرساً آخراً ويصحب معه رجلاً وكذلك يفعل في كل مسافتين او ثلاث، فيقطع المفاوز النائية والبلاد القاصية في اليوم الواحد.

ولقد كانت ترد علينا من مدينة مدريد ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار على البحر الكبير رسائل الكردينال واهل ديوان اسبانيا لثلاثة ايام تمر من ساعة تاريخها فنقضي العجب من ذلك مع ان مسافة ما بينهما اكثر من ثلاث مائة ميل، وكذلك يفعلون

---

(١) لفظة اسبانية قديمة معناها : فندق = خان = نزل. (1) Venta

في سائر بلاد العجم الّا ان الرقّاص يحتاج في المسافة الاولى الى خط يد المتوجه من عنده وانه مرسل الى البلد الفلانية ليعطيه ما يحتاج اليه من مركوب ومرافق.

فاذا اعطاه اول موكل من وكلاء البينطات صار ما يعطيه له بمثابة الكفيل والزعيم الضامن حذراً من ان يكون هارباً من فعلة فعلها او شبه ذلك من الأمور التي يحذر منها وتلحق الوكلاء بسببها عقوبة او تمكنهم في مثلها غرة، فلا يحتاج بعد المسافة الاولى الى تعريف ولا الى بحث، ومعلوم عندهم ما يعطى في كراء الفرس والرفيق على كل ساعة.

وقد التزم الوكيل الذي على البينطة جميع ذلك واحضاره بجعل معلوم يقبضه منه الوكيل على شبه ذلك من المكوس ومحصولات الطاغية، فالرقّاص يعطي ما يجب عليه في كل مسافة وصاحب الفندق يعطي ما يجب عليه في تخصيصه بذلك لالتزامه اياه على رأس كل سنة، واكثر محصولات العجم من المكوس وشبهها. ومن هذه الدار القريبة لشكلانة الى بينطة اخرى معدة للنزول ايضا تسمى بينطة سان اندريس ينزلها المسافرون على العادة وبالقرب منها قرى متصلة ومداشر عامرة.

وقد ورد علينا اهل هذه المداشر رجالاً ونساءً وورد حاكمهم وله بنات كبار ذات جمال (١) واولاد صغار اتى بهم من مسافة ثلاثة اميال وهم الى البداوة اميل منهم الى الحضارة لبعدهم عن القواعد من المدن والحواضر.

ومن هذه البينطة على اربعة اميال موضع فيه واد صغير وبينطة اخرى معدة للنزول وكنيسة يقصدها النصارى من كل موضع وقرية او مدينة.

ولهذه الكنيسة بستان عجيب فيه عين ماء عذبة وهي في ارض فسيحة على قدر مرأى العين.

وفي هذا الفسيح يعمر سوق مرة في السنة في اليوم الأوّل من شهر (كذا) فيقصده

---

(١) في مخطوطة ٢: ذوات جمال

المسافرون واهل التجارة والسبب من كل اوب وينهالون عليه من كل حدب فيعمّر في وسط هذه البلاد من غير عمارة بناء خمسة عشر يوماً ويتفرقون عنه فلا يعمّر الابعد سنة في اليوم المعلوم من الشهر نفسه ويسمونه بلسانهم الفرية(١)ومعناها السوق.

ومن موضع هذا السوق الى مدينة تسمى:

المنبريلية وهي مدينة تدل على حضارة قديمة واكثر هذه المدن اليوم تسمى قرى (٢) لتبديها وخلوها في معنى المدن واثرها.

وحيث كان النصارى دمرهم الله لا اعتناء لهم ببناء الاسوار واذا خرب السور او دثر لايجددونه، لذلك لم يبق للمدن اسم الا القرى، وارضها ارض فلاحة وحراثة وماؤها قليل جداً الا ما في بساتينها وعراصيها من السواني، وبقرب هذه المدينة بقدر ميل مدينة اخرى تسمى:

مانسنارس واجنتها متصلة بجنينات المنبريلية وهي مدينة متوسطة الا انها اكبر من المنبريلية واكثر منها حضارة، فحين اشرفنا عليها لقينا اناس اعيان من مدينة تسمى الماكرو على تسعة اميال من منسنارس وهم اصهار النصراني الحلبي (٣) الترجمان الوارد من قبل طاغية اسبانيا سفيراً وردوا من مدينتهم المذكورة ونزلوا بدار رجل كليريك(٤) هو ابن عم لهم والكليريك عند النصارى هو الطالب الذي قرأ علومهم وليس بافريلي الا ان الكليريك ايضاً هو بمثابة الفريلي في عدم التزويج، ولباسه مخالف اللباس الفريلية

---

(١) الفرية لفظة اسبانية معناها : المعرض وتطلق ايضاً على الاسواق التي تقام بالمواسم والاعياد Feria (Foire)

(٢) وفي مخطوطة (م): تسمى قرية

(٣) وفي مخطوطة (١) : الشامي النصراني الحلبي

(٤) يقصد بها لفظة اكليريكي : نسبة الى الاكليرس

ولباس غيرهم من سائر النصارى، وهؤلاء الكيريكوس هم الذين يجعلون الميسات (١) ومعناها الصلوات ويخدمون في المساجد آلة الموسيقى ويقرؤن كتب صلواتهم بالحان واصوات منتقات ومنهم من يختصي لتحسين الصوت وترقيقه وتحسين نغماته، فلقد رأيت بمدريد عند الطاغية شابين خصيين من الطلبة وهما عنده بقصد قراءة الصلوات مع الموسيقى بالالحان التي يستحسنوها وهؤلاء القوم الذين وردوا من الماكروهم من اعيان المدينة ولهم هنالك وجاهة وورودهم كان بقصد الملاقات فسلموا علينا وانقلبوا بنا الى دار ابن عمهم المذكور.

وقد اعدوا داراً اخرى لنزول النصارى الذين في رفقتنا وانفقوا على ذلك مالاً وافراً وحين وصلنا المدينة وجدناها مدينة مليحة وبطرفها قصبة صغيرة حصينة لها سور شاهق وابراج، ويدور بهذا السور سور آخر اقصر منه ويدور بالجميع حفير منيع في احسن ما يكون.

والمدينة بنفسها لا سور لها فدخلنا دار الكليريك المذكور ففرح بنا فرحاً شديداً وارانا جميع ما عنده من الصور وما في معناها اذ كان معجباً بها وكثيراً ما تضرع ورغب في ان نساعفه في شرب شيء من الخمر اطنب في شكره وزعم انه قديم عنده وله سنين عديدة، فقلنا له لا يحل ذلك في ديننا ولا يسوغ في ملتنا فجعل يشفق من شربنا الماء البارد صرفاً، وبتنا عنده بعد ان احضر من يقرب اليه من النساء كبنات عمه واخواته حيث كان اعزب، ومن الغد خرج معنا بنوعمه للتشييع الى ان برزوا خارج المدينة ورجعوا الى ديارهم وبلادهم.

ومن هذه المدينة المسماة ما نسنارس الى مدينة تسمى مورا ومعناها المسلمة وسبب تسميتها بذلك والله اعلم انها ربما تأخرت عن جيرانها من المدن بشيء ما في التنصّر وما

---

(١) جمع ميسة وهو القداس   Misas

بين المدينتين من الكروم ما لا يحصى ولا يعد، فقد سرنا طول ذلك اليوم بين بساتين الكروم، اذ لم يكن في هذه النواحي سوى الكروم، وذلك لقرب المسافة بين اهالي هذه النواحي وبين مدريد لقد اكثروا من غرسه ليعصوونه خمراً(١) ويشربونه دائماً في كل حين من احيانهم وعند اكلهم واكثر شربهم الخمر، فقلما تجد من يشرب الماء في جميع هذه البلاد، ومع كثرة استعمالهم الخمر فلا تجد احداً منهم ثملاً ولا مغيب العقل، والذي يشرب منه الكثير حتى يصل منه السكر فيزيّف ولا يعد عندهم شيء اصلاً، وهذا الخمر الذي يشربونه منهم من يمزجه ومنهم من يشرب منه شيئاً قليلاً صرفاً ولكثرة استعمالهم اياه وكثرة عمارة مدريد باهلها وقصادها للسكنى والعمارة والتجارة يباع فيها الخمر باغلى ثمن ويعطى عليه مكوس بباب المدينة ثلثا قيمته ولا يعبثون بذلك لعدم استغنائهم عنه في سائر اوقاتهم ولاستعمالهم اياه جميعاً رجالاً ونساء صبياناً، ذكوراً واناثاً، عموماً وخصوصاً، رهباناً وقسوساً وشمامسة وفرايلية وغيرهم، بحيث لا يدع احد شربه ولا يستغني عنه.

*
* *

وبلاد مورا هذه هي مدينة متوسطة اقرب الى الصغر واهلها بمثابة اهل مانسنارس من الحضارة ومثلهم.

وحين خرجنا من مدينة مورا بعد ما بتنا بها ليلة سرنا نحو خمسة عشر ميلاً وصلنا الى واد كبير يسمونه وادي طاخوا وهو مار بمدينة طليطلة وهي على يسار المار من طريقنا هذه بنحو ستة اميال وتظهر المدينة من هذا الموضع على بعد مرأى العين اذ هي في ربوة من الارض، وعلى هذا الواد المذكور وبهذا الموضع من الواد الذي مررنا به دار كبيرة

---

(١) وفي مخطوطة (م): لما يستعملونه من الخمور

للطاغية ينزلها حين صيده بهذا الوادي وحوزه، اذ عن يمين المار من جانبي الواد غياض واشجار ملتفة وهي ممنوعة محمية بقصد اصطياد الطاغية وقنصه فـلا يقدر احـد على الدخول اليها ولا على الاصطياد بها، وحيث كانت هذه الطريق هي المرور عليها لمدينة مدريد وقشتالة وغيرها ولم تكن على هذا الواد قنطرة للعبور جعلوا به خشباً كبيرة ملصقة بعضها لبعض وربطوا بها حبالاً من العدوتين فاذا وردت القافلة او الجماعة مـن الناس او الكدش او الغليرة (١) ذات الكراريط يقرّب المركب الى شفير الواد فتطأ عليه الدابة من غير تعب ولا مشقة ويجذب المركب انسان واحد من العدوة الأخرى فـلا يشعر الانسان وهو في كدشه اوعلى دابته الا وقد عبر النهر وحصل في العدوة الأخرى بسهولة، وعلى ذلك جمل قليل لاباآل له.

وهـذا الواد بهي المنظر رحب الفناء فسيح الارجاء عليه مـن البناءات والقرى والارحية شيء كثير وعليه من المزارع مالا يحصى ويصاد بهذا الواد السمك الا انـه قليل جـداً.

ومن هذا الوادي على مسيرة ستة اميال قرية تسمى بنكص وهي قريـة بداوية لاحضارة بها واهلها الغالب عليهم البداوة وبها كان مبيتنا يوم مرورنا بهذا الواد ومنها رحلنا يوم الذي دخلنا مدينة مدريد اذ بينهما عشرون ميلاً، وفيما قبل مدينة مدريد على ستة اميال مدينة كبيرة تسمّى خطافي.

وهـي كبيرة جـداً الا انها لما كانت قريبـة مـن حاضرة مدريـد اصبحت مدريد في هذا الزمان هي الحاضرة وبها استقر طواغي اسبانيا فانتقلت حضارة هـذه المدينـة وغيرها مـن جميـع حـواضر اسبانيا الى مـدريـد. فـوصلنا الى

---

(١) الغليرة: يقصد بها لفظة اسبانية Galera ومعناها العجلـة كما استعمـل ذات الكراريط ويقصد بها لفظة Carreta

مدينة خطافي هذه عند ما انتصف النهار فالقينا بها رجلاً من اعيان خدام الطاغية يسمى كرلوص ذو القسطيلي ويلقب بالكنديي(١) راكباً في كدش الطاغية نفسه وقد وجهه للملاقات، اذ ان هذا الكنديي هو المعين عند للقاء الوفود الواردة عليه من ممالك أخرى اسلامية وغيرها وهذه هي خطة هذا الكنديي لا غير، وله عليها من الراتب (٢) ثلاثة الآف ريال في كل سنة. وحين لقينا ترجل وسلم نائباً عن عظيمه واركبنا في الكدش الذي اتى بــه بعد ان رحب واظهر من البشر ما اظهر، وسار بنا قاصداً الى مدريد، فحين قربنا منها بقدر ميل رأينا خلقاً كثيراً برزوا للملاقات، منهم صاحب الكدش والمترجل والفارس وغيره.

فوصلنا الى المدينة واذا هي على ربوة من الارض في شفير واد كبير ينحدر مــن جبال كثيرة الثلوج وهي الفاصلة بين هذه البلاد وبين قشتالة المعروفة بقشتالة القديمة، ومدريد هي في قشتالة التي يسمونها قشتالة الجديدة، وهذا الواد هو كثير المياه في زمن البرد لما يحصل بهذه الجبال المذكورة من الثلوج، ويسمى هذا الواد مانسنارس وعليه قنطرتان احداهما مبنية احسن بناء والاخرى خربها السيل والآن يجمعون الاقامة لبنائها وقــد بنيت سواريها وجعلوا عليها خشباً وثيقة يعبر عليها الكدش والقراريــط (٣) وغيرهما وسائر الناس، فدخلنا المدينة واذا هــي مدينة كبيرة جداً مليحة البناء واسعة الفناء فسيحة الارجاء وبها من الخلق عدد كثير.

فلقينا من بها من الاساري وهم فرحون مسرورون معلنون بلفظ الشهادة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والــدعاء بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى، وصبيان النصارى

---

(١) وفي مخطوطة (م): القندي

(٢) وفي مخطوطة (م): المراتب

(٣) Carretas

يقولون مثل ما قالوا (١) ولقد مررنا حين دخولنا على دار الطاغية فرأيناه واقفاً في طاق ينظر من وراء الزجاج فقيل لنا هو ذاك، والاسارى معنا على ماهم عليه ومُربنا في ازقة واسعة كلها مفروشة بالحجارة الى ان وصلنا داراً هي بقرب دار الطاغية وهي دار كبيرة معدة عنده لنزول من يرد من بلدان بعيدة من غير جنس النصارى، اذ عوائدهم في ذلك ان ينزلوا عنده ثلاثـة ايام وينظرون لانفسهم دياراً يسكونونها حيث كانوا يردون بقصد المقام والسكنى فان من عوائد ملوك العجم ان يبعثوا الى ملوك امثالهم مراسيل يسمونهم الانبشادورين (٢) يكونون هنالك وسائط بينهم وبين الملوك فيما يعرض لبعضهم عند بعض من المخاطبات وغيرها، ومن ورد من غير هـذه الاجناس ينزل في تلك الدار الى ان ينصرف مثل وفود الترك التي وردت على اسبانيا فيما قبل منذ اربعين عاماً .

زعموا انها من اسطنبول والصحيح انها كانت من عند بعض السفهاء الذين يريدون التخليط على ملوك القسطنطينية (٣) وفيما قبل هذا بثلاثة اعوام ورد وفد من بلاد مسكوبيا وهي بلاد بعيدة في ناحية القطب الشمالي وردوا على عظيم اسبانيا يخطبون من امه ابنة اخت لها في بلاد المانيا اراد ملك مسكوبيا تزويجها، بحيث لم يرغب اهلها في تزويجه اياها اسندوا امرها الى خالتها ودفعوهم الى اسبانيـا وهذا هـو سبب قدوم وفـد مسكوبيا الى هذا الطاغية فيما ذكر .

وحين دخلنا هذه الدار وجدناها داراً كبيرة جداً وقـد شحنت بالفرش والتعاليق

---

(١) وفي مخطوطة (م) : مثل قولهم

(٢) السفراء Embajadores

(٣) وفي مخطوطة (م) : قسطنطينة

وجميع الاقامة ووجدنا بها قيما كان يعمرها وهو من خدام الطاغية الموكلين بفراشه فادى الينا سلام ملكه بعد ترحيب كثير، واقمنا هنالك اثني عشر يوماً .

*
* *

وكان دخولنا لمدريد عشية يوم السبت السابع من شهر ربيع النبوي عام ١١٠٢ . وفي مدة الاثنى عشر يوماً، كان يرد علينا من قبل الطاغية الكندي الموكل بنا وقيّم الدار واعيان آخرون صباحاً ومساء نائبين عن عظيمهم في السلام ويقولون انه اراد استراحتكم من تعب الطريق وهو يتهيء لملاقاتكم ويستعد لدخولكم عليه استعداداً كثيراً ويتأهب تأهباً كبيراً . وحين كملت الاثني عشر يوماً قدم علينا الكندي الموكل بنا يعلمنا بتهيء عظيمه للملاقات وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا لنخبره به قبل دخولنا عليه لكونه لم يتقدم له قبل ملاقات مع احد من اهل ملتنا اعزها الله تعالى، فاخبرناه بسلامنا من بعضنا على بعض وسلامنا على غير اهل ديننا وانه قول : السلام على من اتّبع الهدى . من غير زيادة عليها .

فانصرف عنا مخبراً له بذلك فقضى العجب من السلام الذي اخبره به من كونه لم يعتد ذلك، ولم يمكنه الا قبوله حيث عرف تصميمنا على ذلك وعزمنا عليه من غير زيادة، فانقلب الكندي المذكور وبيده ورقة مكتوب فيها صفة الدخول من بالباب من المعينين للقائنا ومن امامهم لنكون على بصيرة في امرهم وقال انه يلقاكم الميوردوم (١) ومعناه الوكيل عند الباب الفلاني ومعه من الاعيان كذا وكذا ومعه من الشلطاظ اهل

---

(١) وفي مخطوطة (م) : الميردوم

(1) Mayordomo

الوَردية (١) كذا وكذا وبالباب الفلاني كذا وكذا وسيلقاكم عند الباب الفلاني الاعيان من الدوكيس وامثالهم ·

ومن الغد ورد علينا في وقت معلوم بعد ان تهيّأ عظيمه الملاقات وقصد بنا اليه فوجدنا اهل المدينة وقد اجتمعوا كلهم نساء ورجالاً فلم نصل دار الطاغيه الاّ بعد جهد وعناء لكثره ما اجتمع من الخلق · فحين قربنا من الباب لقينا الوكيل الميوردوم ومعه من معه من الاعيان والشلظاظ فسلم ورحّب ودخل بنا الدار ويسمونها البلاصيو ومعناه المشور فجعلنا نمر بالجماعات من الاعيان والاكابر فيسلمون ويقف كل عند حده المعلوم الى ان دخلنا قبة كبيرة لقينا ببابها كاتب الديوان الكبير وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر الى ان انحنى فلقينا احسن الملاقات ومعه جماعة من الدوكيس والكنديس ودخل بنا قبة اخرى لها باب ومن هذه القبة وجدنا الطاغية واقفاً على قدميه وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب وتلك هي عوائد ملوك العجم اذ هي عندهم بمثابة التاج وعن يمينه طبلة من ذهب مرصعة اعدّها وصنعها ايام مقامنا بعد وصولنا ليجعل عليها البراءة السلطانية اجلالاً وتعظيماً لمرسلها اعزه الله تعالى، وعن يمين الطبلة وزير له يسمى القندي اسطابلي (٢) وهو وزيره الذي بيده الخارج والداخل والنظر في الدار وفي جميع امور الطاغية الخاصة به وبعياله وداره وهو من اعيان اهل الديوان وعن يمين الوزير المذكور زوجة الطاغية ومعها من الضامات (٣) وبنات الاكابر عدد كثير وعن يسار الطاغية وزراء آخرون · فحين دخلنا عليه رحب وهشّ وبشّ ولم يقصر في الترحيب والاكرام وسأل عن سيدنا المنصور بالله تعالى سؤالاً كثيراً، وحين ذكره ازال

(١) يقصد بها لفظة اسبانية: كوارْديا Guardia ومعناها الحرس

(٢) الكنديسطابلي (2) Condestable

(٣) الضامات يقصد بها جمع ضاما Dama وهي السيدة

شمريره من على رأسه اجلالاً وتكريماً، فقلنا له: بخير يحمد الله تعالى. وناولناه الكتاب المبارك السلطاني بعد تقبيله ووضعه على الرأس فتناوله بيده وقبله وجعله على الطبلة المعدة له بعد ان رفع ايضاً ما على رأسه.

ثم انه بدأ يستفهمنا عن احوالنا في الطريق وما لقينا من تعب ومشقة، فقلنا له خيراً وجازيناه على فعله وعلى فعل خدّامه الذين تلقونا في طريقنا، ففرح بذلك واعجبه. وبعد ان مربنا الكلام قال: الحمد لله على سلامتكم وسنعيد الكلام فيما اتيتم لاجله في وقت آخر. فخرجنا من عنده وخرج معنا من كان معه للتشييع قاصدين محل نزولنا وموضع مقامنا.

* * *

والطاغية هذا هو رجل صغير السن له نحو ثلاثين عاماً وهو ابيض اللون قصير القامة وجهه مائل الى الطول واسع الجبهة يسمى (١) كرلوس سكوندُ (٢) ومعنى سوكوندُ الثاني ويعنون به ثاني اسم كرلوس من سلفه واصله من افلانضس بلاد الفلامنك، وليس هو من نسل طواغي اسبانيا الذين حاربوا المسلمين وتغلبوا على البلاد الاندلسية وقشتالة وغيرها من هذه البلاد. دمر الله جميعهم واخلى منهم الارض وعمرها بدوام ذكره وتوحيده، وذلك ان طاغية من الطواغي الاول واسمه فرنندُ سانطو(٣) الذي تغلب على غرناطة ومن بقي باحوازها من المسلمين، كان قاطناً بقاعدة اشبيلية اعادها الله دار اسلام.

---

(١) وفي مخطوطة مدريد: واسمه

(٢) وفي مخطوطة مدريد: شكوندُ

(٣) سان فرنندُ

(3) San Fernando

ولما مات هذا الطاغية خلف ولداً يسمى فرنندُ باسم والده ويلقب كاطولِكُ ملك بعد والده سنين قليلة ومات ولم يخلف ولداً ذكراً، فملكت بعده زوجته زابيل (١) ابنة ملك راغون، وراغون هي قاعدة من قواعد مدن هذه العدوة ودار ملك. وقد اقامت في ملكها سنين، وكانت تخرج وتدخل وتركب الفرس وتركض وتتصرف بالرجال.

*
* *

وفي عهدها وزمانها اكتشف بعض رؤساء البحر من جنس اسبانيا بلاداً من الهند الذي بيدهم اليوم (٢) ورأى اهلها فوضى وهم بمثابة الدواب ولا عدة لهم وانما كانت عدتهم العيدان يركبون فيها حجراً من حجر الزناد ويقاتلون بها. فحين رآهم على تلك الحالة وعرف ماهم عليه من الغرة والبلادة، رجع الى اسبانيا مخبراً للملكة زابيل بذلك، فجهزت له ثلاثة مراكب واصحبت معه خويلة ومدافع فقصد ذلك الموضع الذي عيَّنه فنزله. فحاربه اهل تلك البلاد فغلبهم وملكهم وقبض على ملكهم ولم يزالوا يملكون في الهند بلداناً كثيرة واقاليم متسعة يجلبون منها كل سنة ما يغنيهم. وبحصول هذه البلاد الهندية ومنفعتها وكثرة الاموال التي تجلب منها صار هذا الجنس الاسبنيولي اليوم اكثر النصارى مالاً واقوهم مدخولاً، الآ ان الترف(٣) والحضارة غلبت عليهم، فقلما تجد احداً من هذا الجنس يتاجر او يسافر البلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من اجناس النصارى مثل الفلامنكُ والانجليز والفرنسيس والجنويين وامثالهم،

---

(١) ازابيل Isabel

(٢) يريد اكتشاف اميركا: ورئيس البحر يقصد به كريستوف كولمبس.

(٣) وفي مخطوطة تطوان: الترقي

وكذلك المهنة (١) التي يتداولها السقطة والرعاع واراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الاجناس المسيحيين.

واكثر من يستعمل هذه الحرف المهينة في بلاد اسبانيا جنس الفرنسيس وذلك حيث كانت بلادهم ضيقة المعاش والارزاق صاروا يتقلبون في بلاد اسبانيا بقصد الخدمة واقتناء المال وجمعه، في ايام قلائل يجمع اموالاً جمة، ومنهم من يرغب عن بلاده ويستوطن بهذه البلاد وان كانت غالية الاسعار فان موردها كثير وجل هذه الجنس يعد نفسه من اتباع المخزن (٢) او من الجيش ويرع نفسه عن خدمة الصناعة او عن السبب والتجارة رجاء ان يعدّ من الكبار او يورثها لخلفه ان لم يدركها.

فان من عوائدهم دمرهم الله ان جميع اهل الصناعات والحرف والتجارة لا يركب في الحاضرة التي بها الطاغية كدشاً، واذا احب احد منهم الكبيرة او التقرب من المخزن ليعد من اتباعه يترك هذه الاسباب الذي يعيّر بها من الحرف رجاء ان يلحقها عقبه من بعده. واما هو في خاصة نفسه فلا يدركها ولو سعى فيها ما سعى، الاّ اذا كان تاجراً ذامال كثير من التجار الذين لا يرفعون ميزاناً ولا يجلسون في دكان مثل التجار الكبار الذين لهم المتاجر العظيمة والاموال الجسيمة التي اغنتهم عن البيع والشراء في الحوانيت والاسواق. فان هذا يلحق الكبيرة مع تركه للتجارة وعدم التفاته اليها اصلاً.

والكبيرة عندهم هوان يعمل على كتفه صليباً في ثوبه برقم معلوم عندهم وهي درجة كبيرة لا يدركها الاّ من له قدم في النصرانية ويعد لنفسه فيها سبعة اجداد باشهاد من نصارى كل زمان وانهم يعرفون اباه وجده وسمعوا من غيرهم ومن كبار سنهم ان فلاناً من ذرية فلان هو نصراني ابن نصراني الى السابع من اجداده.

---

(١) وفي مخطوطة (م): الحرفة

(٢) المخزن: اصطلاح وضعي مغربي يراد به الحكومة

ليس في احد منهم لمز ولا شائبة ولا تهمة يهودية او غيرها ممن هو ليس بمسيحي .

فحينئذ يؤمر بوضع الصليب على كتفه بعد ان يعطي عليه اموالاً لاهل الديوان وبعدهم للفرايلية الذين يعطونه الأذن فيه ايضاً ويكون على مذهبهم وطريقتهم الضالة ، وهذه العلامة الصليبية لا يلحقها كما قدمنا الاّ من لهم عراقة اصل في النصرانية او الذين هم من جنس الاندلس وكانوا اكابر قومهم وتنصروا لاغراضهم فاعطوا حينئذ تلك العلامة وهي دالة على عراقتهم في الاصالة لعهد اسلامهم وعلامة على كبيرتهم في هذا الدين الفاسد والعياذ بالله .

* * *

ولنرجع الى ذكر التعريف بهذا الطاغية ونذكر سلفه ومن اين حصل له ملك اسبانيا وغيرها كبلاد افلانضس وسائر عمالاته التي تحت ولايته ، فهو : كارلوص ٢ سكوندُ بن فيلب ٤ كوارطُ بن فيلب ٣ طرسيرو بن فيلب ٢ سكوندُ بن كرلوص كينطو بن فيلب الموصو وهذا هو كنديِ عظيم من اهل افلانضس له بها ذكر وصيت وولاية . وحين توفي فرنانذ كاطوليكُ القاطن باشبيلية كما قدمنا ذكره ولم يخلف ولداً ذكراً يلي ملك ابناء جنسه من بعده ملكت بعده زوجته زابيل ، وكان لزابيل هذه ابنة تسمى كوانا زوجتها زابيل من كنديِ فلانضس المسمى فليب الموصو ، ومعنى الموصو عندهم الشاب الحسن اذ كان يضرب به المثل عندهم في عصره لحسنه وجماله فصار بسبب ذلك علماً عليه الموص(١) .

ولما ماتت الملكة زابيل وكانت ابنتها من الملك فيرنانذُ متزوجة في فلانضس بعثوا

---

(١) فليب ارموصو

(1) Felipe el Hermoso

اليها اترث ملك سلفها . فقدمت ببعلها فلب الموصو ولها منه ولد صغير يسمى كرلوص كينطو (الخامس) ويعنون بـه خامس اسم كرلوص باعتبار من تقدم مـن سلفه فسمي بهذا الاسم وهو اول اسم ملوك اسبانيا من هذا النسل .

وباعتبار اوليته يلقب حفيد حفيده بشكوندُ الذي معناه الثاني .

فملكت ابنة فرناندُ ملك اسبانية مع بعلها ونشأ ولدها كرلوص كينطو هذا داهيـة طاغية مـن طواغـي الكفرة ذا باس ومكر ودهاء وخبث، لـم يوطـن نفسه منذ نشأ وترعرع وكبر وفطن عن دعـة ولا راحـة الى ان ملك وحكم، فتقدم الى تمهيد البلدان وتدويخها في جميع اقطار بلاد الكفرة المسيحية وسافر وحرك وساق الجيوش والمحال براً وبحراً، فلقد حسبوا سفراته البحرية فكانت تنيف على عشرين مرة .

وهو الذي تقدم الى الجزائر بعمارة كبيرة من السفن والاغربة تنيف على ثـلاث مائة مركب وقد حمل معه في مراكبه آلات البناء واقامته من جير واحجار وفعلة وعملة وارسى عليها ليلاً، فلم يرعهم (١) حين اصبح الحال الا وبرج مطل عليهم في غاية التوثيق والتحصين وقد نصب عليه المدافع والانفاض .

وصار يهدم بذلك جدرانهم ويخرب حيطانهم وديارهم واسوارهم وهم في غاية الضيق والمحنة وقد اشرف على اخذهم، فابى الله سبحانه الا نصر دينه القويم ليظهره على الاديان كلها، فهاج البحر وتلاطمت امواجـه فغرقت جميـع مراكبه التي قدم بهـا، فلم ينج الطاغية الا في سبعة مراكب بمـا حملت من القوم، وقـاسى في البحر الشدائد .

فهنالك ذكروا انه قلع تاجه عن رأسه ورمى به الى البحر وقال : من اراد ان يلبس التاج فليقدم الى الجزائر يأخذها . وافلت هو ومن حملته المراكب السبعة التي افلتت .

(١) وفي مخطوطة (١) فلم يروا

وكرلوص كينطو هـذا هو الذي حاصر تونس ايضاً في سفرتـه هـذه التي حاصر فيها الجزائر .

والبرج الذي بناه على الجزائر هو البرج المعروف عندهـم اليوم ببرج مولاي حسن وهو باق الى الآن في غاية الاتقان والبناء ومشرف على المدينة قريب منها على قدر رمية مدفع وهو عن يمين الخارج من باب عزون .

ولقد دوخ هذا الطاغية اقطاراً من بلاد الاندلسية وغيرها من بلاد افرنسا والمانيا وبلينسية وغيرها وهو الذي قدمنا ذكره اذ حارب ملك الفرنسيس واسره واتى به الى مدريـد واطلقه بعد ذلك بفداء .

وكان من خبر هـذا الطاغية انه لما ملك جميع هذه النواحي من بلاد العدوة الى ان ملك المانية وكبر وكان له ولد يسمى فليب سوكوند ومعناه الثاني من هذا الاسم باعتبار جده الكندي القادم من فلانض ولاة ملك اسبانيا وفلانض وميلان ، وكان لكرلوص اخ يسمى فرناند ولاه المانيا ولقبه بالانبرادور ومن نسله هذا الطاغية الموجود اليوم اهلكه الله ، وحيـن ولى ولده واخـاه ، ترهّب ودخـل كنبيطو الفرايليـة وصار من جملتهم وواحداً منهم .

زعم انه تزهـد وترهب في مدينة تسمى بلاصنصيا مـن عمالة قشتالة على اربعة وخمسين ميـلاً من مدينة مدريـد وزوجته زابيل كانت قبل ترهبه . وهي ابنة ملك البرتقال اخت سابستيان الخارج الى برنا صحبة مستصرخه ولد مولاي عبد الله .

ولما ملك فليب ٢ سكوندو هذا كان طاغية من اخبث اهل زمانه وحرك ايضاً الى البلدان وحاصر قاعدة من قواعد مدن الفرنسيس ونصب عليها المدافع والانفاض رجاء ان يهدمها فزعموا ان كنيسة بالمدينـة التي كان حاصرها تنسب الى راهـب يسمى

لورينصو (١) حالت بين المدينة وبين رماية المدافع ولم يحدث في المدينة شيئاً، فحين طال حصاره عليها ولم يكن بدأً من هدم هذه الكنيسة المانعة له من ان يصيب المدينة، نذر ان يبني كنيسة اخرى اعظم منها وينسبها الى اسم لورينصو هذا، فنصب المدافع قبالة الكنيسة وهدمها واصاب منها المدينة : وحين رجع بني الكنيسة التي نذر على نفسه بناءها وهي المسماة عندهم بالاسكوريال، والاسكوريال هذا هو في سفح الجبل القريب من مدريد وهو من البناءات الهائلة وسنذكر وصفه في محله ان شاء الله .

*
* *

وفيليب سكوندو هذا فيما زعموا انه كان اجتمع بخاله سيباستيان (٢) طاغية البرتغال الذي خرج الى بلاد الغرب في عهد السلطان مولاي عبد الملك ابن السلطان مولاي محمد الشيخ صحبة مستصرخه ولد مولاي عبد الله . وكان فليب هذا لما سمع بخبر خروج خاله الى بر المسلمين تقدم اليه وتكلم معه في ذلك، فاشار عليه بالجلوس وان لا يتعب ويورط نفسه في بلاد الغرب ويدافعه بما امكن ولا يحمل نفسه على صرخته لعدم معرفته بالبلاد ولخروجه عن وطنه الى وطن آخر ليس هو له ولا قدرة له على مقاومة المسلمين اذ ذاك لوجود الملك بالمغرب .

وزعموا ان المستصرخ (٣) كان يستظهر له برسائل من بعض قبائل المغرب وانهم من حيزه وحزبه . فأبى مع ذلك طاغية البرتغال الا تمادياً على رأيه ولم ينصت

---

(١) سان اورنصو — San Lorenzo

(٢) ضون سبستيان ملك البرتغال — Don Sebastián

(٣) يقصد به محمد ولد مولاي عبد الله

لنصيحة ابن اخته ولا الى قوله، فقدّر الله تعالى للمسلمين في خروجه ذلك غزوة عظيمة لم يعهد بمثلها منذ زمن بعيد، وفي يوم هذه الغزوة المباركة توفي السلطان عبد الملك بمرض كان لزمه في طريقه حين ذهابه لقتال النصارى حين سمع بخروجهم ·

والنصارى يذكرون شجاعته وقوته ويقولون انه كان يقاتل بسيفه مع مرضه الى ان غلبه المرض ومُنع من القوة الحاملة له على القتال فمات رحمه الله ·

وفي ذلك اليوم مات ولد اخيه محمد بن عبد الله قتيلًا وقتل سابا ستيان ومات جميع من كان معه من النصارى ولم يفلت منهم الا النزر القليل الذي لا يعد لنزره ولقلته، وكان عدد النصارى على ما هو معروف عندنا ثمانين الفا ·

والنصارى يزعمون ان مبلغ الجيش الذي كان مع ساباستيان في خروجه ذلك ثمانية عشر الفاً :

فمن جنس البرتغال اثنا عشر الفاً ومن الانجليز ثلاثة الاف اتوه مدة الصلح والمهادنة التي كانت بينه وبينهم، ومن اسبانيول ثلاثة آلاف امده بها ابن اخته فليب سكوندو ·

والصحيح ما هو مقرر عند المسلمين من العدد المذكور، وبسبب عدم قبول طاغية البرتغال نصيحة ابن اخته وتوريطه نفسه في بلاد الغرب ينسبونه الى الحمق وخفة العقل · وتلك الغزوة المباركة هي سبب ضعف الجنس البرتغالي الى اليوم دمره الله ·

وحين قتل ساباستيان ووقع في جنس البرتغال ما وقع لم يكن لطاغيتهم ولد يلي الملك من بعده وكان له فيما يزعمون اخوان احدهما كردينال والآخر ولي بعده اياماً قلائل ومات من غير عقب ،فحين انقطع نسل ملوكهم بموت هاذين ورث فليب سوكوندو ملك البرتغال من جهة امه زابيل على طريقة قوانينهم ومذاهبهم في وراثة الملك للمرأة اذا لم يكن ذكر ·

وفي زمن فليب سكوندُو هذا ثار من بقي من جنس الاندلس بعد تغلب النصارى عليهم بغرناطة واحوازها، اذ كانوا سمعوا بورود مراكب من الجزائر التي التي بها حبيب رايس(١) ونزل بجوار أَلمرْية، ظناً منهم انه يمنعهم، فحمل من قدر عليه في مراكبه من اهل المرية وما والاها وعبر الى بلاده، فعجز الثوار من الاندلس حينئذٍ عن مقاومة النصارى فاوقعوا فيهم السيف وتنصر من تنصر منهم رغماً بعد ما هرب من هرب(٢).

وبقوا على ذلك نحواً من اربعين سنة الى زمن فليب طرسيرو ولد فليب سكوندو وهم على حالهم من التنصر والتغلب عليهم.

فزعموا ان ملك الترك كتب حينئذٍ كتاباً الى وزير فليب طرسيرو يطلب منه ان يتسبب في اخراج من بهذه العدوة من بقايا الجنس الذي غلب عليه ويتخذ عنده بذلك يداً وصحبة، فاحتال الوزير بأن اشار على مخدومه باخراج البقايا من الاندلس الذين بينهم وبين دينهم عهد قليل وما زالوا الى الآن جلهم في قيد الحياة وعددهم هو اكثر من عدد النصارى: فاننا لا نأمن(٣) من ثورتهم مرة أخرى، فالاولى ان يجلوا من هذه العدوة وتحسم مادتهم ويعبر بهم البحر ليتفرقوا في البلاد البربرية، وبقاؤهم في بلادهم التي ربوا فيها محذور. فقبل الطاغية من وزيره ما اشار به عليه وامر بجمعهم وعبورهم البحر الاّ من كان تنصر بغرضه وهم اكثر عدداً ممن تنصر رغماً او اختفى تحت احد وامتنع باحد ولم يعلم به، وعلى كل حال فحيث كانوا عدداً كبيراً لم يكن الاستقصاء

---

(١) وفي مخطوطة ١ جيب رايس

(٢) يقصد الثورة التي قام بها ابن حميّا، واسمه الحقيقي فرنندُو دي فلور وكان رئيس عرب غرناطة عند ما اهاجوا ثورة على الملك فليب الثاني

(2) Aben-Humeya (Fernando de Valor)

(٣) وفي مخطوطة ١: ولا نأمن

في تفتيشهم في جميع العدوة للاختلاطهم ونسيانهم الاسلام، وجل الخارجين في ذلك العهد من العدوة اهل غرناطة واحوازها من الثائرين وكانوا عدداً كثيراً. والنصارى بسبب اشارة الوزير على عظيمه باخراج من خرج بعد تنصرهم ودخولهم دين النصرانية يلمزونه باليهودية لعدم نصحه لدينهم باخراج هذا العدد بعد ان حسبوا نصارى، ولمز بعض النصارى باليهودية كثير، وبسبب ذلك لهم بمدريد ديوان فيه من علماء ملتهم عدد كثير وكلهم من ذوي البين الكثيرة، يسمون ديوانهم الانكيشيون (١) يبحثون عمن فيه لمز من يهودية ولو بادنى ادنى سبب فيقبضون عليه ويجعلونه في السجن بعد ان يأخذوا ماله وجميع امتعته وذخائره فيقتسمونها بينهم من حينه ويتركونه في السجن سنة ثم يسألونه حينئذٍ عما هو ملموز به فاذا انكر يقولون له علامة صدقك هو ان تخبر عمن وشى بك او اتهمك، فيعد لهم واحداً واحداً الى الثالث فاذا كان الواشي الذي وشى به احد الثلاثة الذين سمّاهم ويقول ان فلانا كان بيني وبينه عداوة في زمن كذا من اجل كذا وصدق فيه ظنه وتوهمه يجد بيده حجة للخصام والذب عن نفسه فيطول خصامه مع هذا الديوان الى ان يتناسى ما نسب اليه، ويريد مع ذلك خلاص نفسه فقط فهنالك يخرج.

وان ثبت عليه ما اتهم به او اقرّ على نفس، يلزمونه الخروج عن دين اليهودية والدخول في دين النصرانية، فان هو رجع عنها ودخل دين النصرانية يخرجونه ويطوفونه ويعرفون به في الاسواق ويجعلون له على كتفه صليباً اصفر يكون ذلك اللون هو اشارة كونه من اليهود وعلامة على تنصره فيبقى بذلك الصليب ستة اشهر ويزيله، فيصير حينئذٍ من جملة النصارى، وان هو اقرّ على نفسه باليهودية او ثبتت عليه باشهاد ولم يرجع عن اعتقاده يحرقونه بالنار من غير قبول شفاعة فيه، وذلك هو السبب في عدم

---

(١) الانكيشيون: هو ديوان التفتيش المشهور (1) La Santa Inquisición

دخول اليهود سائر بلاد اسبانيا والبرتقال، وهـذا الديوان المذكور هو المعيّن للبحث عن هذه المسألة واشباهها ممن يطعن في دينهم او يشمّون عليه رائحة شيء مما يعيبه، ولا يقدر احد على الطعن فيهم او يلمزهم بباطل او شهوة فيجدون عليه سبباً والوثوب عليه سلماً.

ولا يقدر احد على فكاك احد من ايديهم ولو كان الملك بنفسه، واذا لمز احد بشيء من ذلك ودخل تحت جناح الملك محترماً به لا يقدر الملك على احترامه ولا على منعه منهم حتى اذا كان وزيراً من وزرائه او من خدامه او قواده وشموا عليه رائحة من ذلك يقبضون عليه اينما وجدوه سواء مع الملك اوفي كنيسة او في غيرها.

ولقد اتهموا ايام مقامنا بمدريد احد خواص الطاغية ووزرائه باليهوديـه فقبضوا عليه وسجنوه بطايطلة وهو باق الى الآن. وكذلك ايضاً اتهموا رجلاً آخر ونحن بمدريد كان قيماً للطاغية على محصول مـن محصولاته فوثبوا عليه وعلى زوجته واولاده وجميع عياله وحشمه وسجنوا جميعهم وأخذوا مالـه وجميع ما احتوت عليه داره من امتعته، وهم الآن في السجن وكان له مال كثير. ومن اهل هذا الديوان رجـل من عند البابا الذي برومة يأتي بقصد النيابة عنه في هذا وما يشبهه ويسمونه في لسانهم النونسيو (١).

والمتهمون باليهودية من هذه الاجناس كثيرون واكثرهم من جنس البرتقال وجلهم كانوا من اليهود سكان هذه البلاد على عهد الاندلس بعهدهـم وذمتهم فانحازوا عند التغلب على المسلمين الى ناحيـة بـلاد البرتقال واختفوا بالنصرانيـة هنالك، وبالبلاد البرتقالية منهم فيما يقال عدد كثير اكثرهم من الجنس الاسبانيولي.

* * *

(١) النونسيو: ممثل البابا، قاصد رسولي

(1) Nuncio de S. S.

وحين مات فليب طرسيرو المتقدم الذكر وكان في عهده قد خرج من بقي بهذه البلاد من بقايا الجنس الاندلسي، وولي بعده فليب كوارطو ومعناه الرابع من اسم فليب، وكان داهية طاغية من طواغي الكفرة دمرهم الله، ولعهده كان ثار جنس البرتقال ودعوا الى التملك عليهم رجلاً كان يدعى الدوكي بركانصا (١).

وهو والد طاغية البرتقال اليوم، وكانت له زوجة اخت دوكي عظماء اسبانيا له قدم في الكبيرة يسمى دوكي مدينة صيدونية ويزعمون ان جده دون ألونصو دي قرمان كان كبير مدينة طريف حين دخول طارق رحمه الله الى العدوة، وما زالوا الى الان يلقبون بلقب قرمان.

فحين الزاموا اهل البرتقال دوكي براكانصا بالتملك عليهم، شاور زوجته فيما دعي اليه فأشارت عليه بقبول ذلك وقالت له: مَلِكٌ ليلة واحدة احسن ومن بقائك دوكاً خمسين سنة. فقبل ذلك منهم.

وكان له في ذلك اتفاق مع اخي زوجته وهو اذ ذاك ساكن بمدينة سان لوكار، وفيما بين سان لوكار وبلاد البرتغال مدينة تسمى أيا مُنطي بها مركيز عظيم من اعيان اهل اسبانيا يُلقب بمركيز أيا مُونْطِي دخل معهما في الاتفاق، ودخل حزبهم ايضاً دوكي آخر يعرف بدوكي ايخرْ.

وكان كل منهم يراد التملك والدعوة لنفسه، فاحسّ بهم فِليب كوارطو فاستدعى هؤلاء الثلاثة الذين هم من خدّامه واهل عمالته، وبعثهم الى مادريد قبل ان يعلموا بما نمي اليه من خبرهم.

فجعل يعذبهم بانواع العذاب ويقررهم، فانه كان قد اتصل ببعض رسائل من بعضهم لبعض تدل على ما ازمعوا عليه.

---

(١) دوكي دي براكنصا

(1) Duque de Braganza

فامّا دوكي مدينة صيدونية فاقرّ سريعاً، وكانت بينه وبين الطاغية محبة، فمقته ونفاه الى مدينة تسمّى بِلْيَادوليد وعزله عن ولايته وعمالته اذ كان هو القبطان على كوشطة البحر كلها الموالية لبرنا حرسه الله.

واما الآخران فعذبهما عذاباً شديداً فلم يقرّا، فاخرجهما ومن كان مطلعاً عليهم من خدامهما وخدام دوكي صيدونية الى بلاصة مادريد وقتلهم جميعاً.

فثارت الحرب حينئذٍ بين البرتغال وبين طاغية اسبانيا نحواً من ستة وعشرين سنة الى ان خمدت بموت فِليب كوارطو، وكانت وفاته في سنة ست وستين وستة عشر ماية بتاريخهم المسيحي وبتاريخنا عام سبعة وسبعين والف.

وخلص حينئذٍ ملك البرتغال اليهم وكان لفليب كوارطو طاغية اسبانيا عدة اولاد لكنهم لم يرثوا الملك في قوانينهم لانهم غيرشرعيين وله زوجة هي ابنة عم الانبرادور من المانيا كان جابها بقصد ولد له اراد تزويجه، فعند وصولها مدريد مات ولده الذي اراد تزويجه ثم ماتت زوجته هو.

فحين بلغت خطبها لنفسه وتزوجها فولدت له ابنه كرلوص سكوندو وهذا الطاغية المملك اليوم، وحين مات فليب كوارطو ترك ولده صغيراً فماسكت أُمه، وكان من خبر اولاده الآخرين الذين ليس لهم ميراث في الملك ان ترهب جلهم، ومنهم الراهب مفتي مالقة ويسمونه بلسانهم السوبيسب (١) ومعناه المفتي وكان من اولاده آخر يسمى كوان اوسطريا (٢) برز ونجم وظهر عندهم في الشجاعة والرأي والدهاء، وكان يلي الحروب ويتقدم الى الشرور والفتن ويعبّي المحال مدة تملك زوجة والده وفي حال صغر اخيه لابيه وحيث ظهر وبرز لم يدع لاحد قولاً ولا رأياً وصار يحدث لهم

(١) الاوبيسبو Obispo هو الاسقف والارسوبيسبو Arzobispo وهو رئيس اساقفة

(٢) ضون خوان دي اوستريا (2) Don Juan de Austria.

احكاماً ويفعل لهم فعالاً لم يكونوا يعرفونها فيما تقدم وكان يضرب على يد اهل الديوان وعلى يد الملكة زوجة والده وكان يقول انما اتصرف لاخي الى ان يكبر وانما انا احد خدامه، فتوهم منه اهل الديوان والمملكة توهماً كبيراً فلم يشكوا مع ذلك انه يريد الملك ويدعي لنفسه.

وكان الملكة رجل يسمى الدويندي (١) اختص بالتصرف لها، فانكر عليه ذلك وعابها، فقبض عليه وسجنه في برج منيع في اعلى ربوة من الارض مطل على قرية تسمى سويقرا بينها وبين طليطلة على طريق الآتي منها الى الاندلسية ثمانية عشر ميلاً، وهذا البرج في غاية المناعة والتحصن من عهد المسلمين، ولعلو هذا البرج يشرف على بلاد كثيرة ومداشر وقرى من عمالة طليطلة، ولهذا البرج سوران شاهقان وفي داخله كنيسة كبيرة يعمرها عدد قليل من الفرايلية، ولقد دخلت هذا البرج فرأيت له اثر في توثيق البناء والتحصن ما يدل على اعتناء صانعيه لذلك العهد رحمهم الله.

*
* *

وحين سجن الدويندي بهذا الموضع المذكور امر ان لا يخرج منه ابداً. وصار خوان ينظر في اهل الديوان وماهم عليه فجعل يتطلع احكامهم وينظر شوراهم واراءهم وما يزعمون عليه، فيستجيد ما يراه لائقاً ويرد ما يراه مزيفاً وينقص للقوم من مراتبهم وارزاقهم ويقول لهم: لم يستحق هذا ان يأخذ هذا وعلى مَ هذا، يأكل جميع هذا، الى ان انكر على الملكة نفسها ما كانت تصرفه في ضرورياتها، الى ان بلغ اخوه اربعة عشر سنة فاخذه يوماً ومضى به الى ملكة (٢) راغون والبسه التاج واتى به الى مدريد وجعل يتصرف له نائباً عنه بمثابة الخديم

(١) هو الاب نيطارد اليسوعي مرشد الملكة (٢) وفي مخطوطة ١: الى مملكة

وما زال يغلب على ام اخيه الى ان نفاها من مدريد الى مدينة طليطلة فاستقرت هنالك عاما واحداً ونصف عام.

ثم مات كوان اوسطريا فرجعت الملكة الى مقرها وأُخرج الدويندي المسجون وتوجه الى بلاد مـــن بلاد الهند وهو اليوم باق بها لهذا العهد وله هنالك ولاية كبيرة.

وكبر كرلوص سكوندو هذا مع الديوان وتزوج ابنة عظيم الفرنسيس وماتت عنده من غير عقب، فتزوج بعدها ابنة خالته اخت امه وهي ابنة عم الامبرادور الذي بالمانيا ولتزويجه معها الآن سنة، والى الآن لم يولد له.

وهذا الطاغية لم يتقدم الى موضع من المواضع ولا صحب محلة ولا برز الى حرب وهو من الحضارة بمكان، لا يركب فرساً ولا غيره وانما يركب دائما في كدش مع زوجته في غالب الايام وله خروج الى متصيداته في كدشه، ويقصد الكنائس دائماً ويتعبد بجميع متعبداتهم.

وحين انفصلنا عنه يوم ملاقاتنا معه وناولناه الكتاب السلطاني دفعه الى النصراني الحلبي المترجم ليترجمه ويعجمه، فلما عجم الكتاب ورأى ما فيه وما اشار بـــه عليه امير المؤمنين ايده الله مـــن اعطاء خمسة الآف كتاب وخمس مائــــة اسير ثقلت عليه الوطأة العلوية ولم يدر كيف يتلقى هذه الاشارة وعرف انها عزمة من الملك نصره الله ولم يمكنه الا الاضطراب لما اشرب في قلبه وقلب اهل ديوانه من صيت هذه الامامة العلوية وعلو همتها ابقاه الله بمنه، ووقعت المشورة منه في ذلك مع اهل ديوانه فرأوا ان الاجابة الى ما دعاهم اليه المولى الامام والامتثال لامره المطاع اعزه الله تعالى اولى لهم واوفق وتشاوروا في ذالك اياماً عديدة وكانت لنا معه ملاقات بقصد الرؤية حين يدعون اليها وبعد تدوينهم في الأمر السلطاني وزعمهم حرق الكتب الاسلامية فيما يذكر

ببلاد اسبانيا قدموا للكلام معنا في ذلك كاتب الديوان الكبير والكردينال الذي هو رأس دينهم وهو خليفة البابا الذي برومة واليه ينتهى امر دينهم وديوانهم .

وحيث كان المولى الامام ادامه الله وايده جعل لهم في كتابه الشريف فسحة : ان عدموا وجود الكتب او تعذر حالها يجعلون عوضها كمال الف اسير من المسلمين، وحاولوا ترك بعض الالاف فلم يجدوا له مجالاً ولم يمكنهم الآن المساعفة بالامتثال .

وحين قبل منهم المولى الامام المنصور نصره الله ذلك اشتغلوا بالبحث عن الاسارى وجمعهم، وكان الطاغية في خلال تلك المدة التي كان يوجه الى الافاق بقصد جمع المسلمين يتعاهدنا ويبحث عن احوالنا ويأمر بخروجنا الى متنزهاته ومتصيداته وبدخولنا الى داره ورؤيةما فيها من المساكن والبيوت والبساتين، يريد تأنيسنا بذلك، ولم يدع بمدريد داراً كبيرة من اعيان خدامه وخاصته الآن رأيناها ورأينا ما لهم من البساتين والمتنزهات، وحين نلقاه يظهر بشراً وسروراً برؤيتنا ولا يقصر في الاكرام واظهار الترحيب مدة مقامنا عنده .

وبمدينة مدريد من المتنزهات عدد كثير فان للطاغية بها داراً كبيرة يسمونها الرطير(1) هي دار سكناه في المصيف : مشتملة على بستان بديع الشكل غاية في حسن جداوله وانهاره، وبوسط هذا البستان واد كبير مبني الجوانب احسن بناء وبجانبي الوادي قباب مبنية احسن بناء للاستظلال في المصيف وبه زوارق ومراكب يركبها الطاغية في تنزه ذلك .

وهذا الوادي يكثر فيه الجليد في زمن البرد حتى يمر عليه الانسان، فتجد النصارى يمرون على الجليد بصنعة، غير ان اكثر من يمر على الجليد لهم بذلك خبرة من يكون من جنس الفلامنك والانجليز وذلك حيث كانت بلادهم في ناحية

---

(1) الرطيرو

(1) El Retiro.

الشمال يكثر فيها الثلج والجليد في جميع المواضع لاسيما الاودية، فقد زعموا ان نساء الفلامنك يمررنَ على الجليد بان يجعلن لنعالهن صفائح مـن حديد ويقصدنَ بلاداً بعيدة صبيحة النهار بقصد التسبب والبيع والشراء ومن المساء يرجعنَ الى مقرهنَّ.

ولقد رأيت البعض من النصارى يمرون على الجليد بهذا الوادي: بأن يقف الرجل على رجل واحدة ويرفع رجله الاخرى ويقيم(١) نفسه مستقيماً بحيث لا يميل شقه الى احد الجانبين فيمر كالبرق (٢).

وهذا الوادي يدخله في زمن الجليد كثير من الناس بقصد الرؤية والتنزه فتجد به من النصارى والاكداش(٣)المشحونة بالنساء والرجال ما يضيق بهم البستان المذكور، فاذا كان زمن المصيف ووقت سكنى الطاغية به لا يدخله الا من يكون معتاداً الدخول.

وبهذا البستان سارية من رخام عريضة عليها صورة فرس كبير من نحاس احمر والفرس واقف على رجليه الاخيريين وعليه سرج مـن نحاس وقد ركبت عليه صورة والد هذا الطاغية فليب كوارطو مـن نحاس ايضاً وهو راكب على الفرس ايضاً وبيده عصى وهي من عوائدهم يحبسونها في يدهم ويسمونها الباسطون(٤)، زعموا انه في زمن هداد الخيل يأتون بالفرس الانثى التي يريدون نتاجها ويوقفونها امام صورة الفرس ويركبون في ذلـك الفرس حركات يسمـع لها صرير وتصويـت مثل تنحنح الفرس وينزون حينئذٍ فحلاً يرتضونه ويختارونه لكي تنتج الفرس على شكل تلك الصورة.

---

(١) وفي مخطوطة ١: ويقوّم

(٢) وهذا ما يسمونه اليوم: اسكي Ski (Esqui) وقد سبق المؤلف وشرحه بدقة كامهر المولعين بهذا النوع من الرياضة.

(٣) جمع كتشه وهي العربة (3) Coches

(٤) الباسطون Bastón: عصا، قضيب الاناقة

وكذلك رأينا مثل ذلك ايضاً في دار اخرى للطاغية خارج المدينة، والدار في بستان على الوادي الذي يمر تحت المدينة على هيئة الاوّل وعليه ايضاً صورة والده فليب كوارطو.

وله من البساتين والمتنزهات خارج مدينة مدريد مواضع كثيرة مشتملة على قنص وصيد لا يقدر احد على الاصطياد بها ولو كان من كان.

فلقد وجه الينا يوماً مع الكوندي الموكّل بنا وقد امره باخراجنا الى موضع الاصطياد والأذن في الصيد، وهو على ستة اميال من مدينة مدريد وبهذا الموضع دار كبيرة يسمونها البردُ (١) كان بناها والده وهي دار كبيرة مشرفة على وادي مانسنارس المار بمدريد وبهذا المصيد المذكور من الوحوش كالايل والخنزير والقنين عدد كثير اذ لا سبيل لاحدان يصطاد بجميع ما احترمه الطاغية وهو محمي يقصده ولا يأذن فيه لاحد من خاصته، وزعموا ان أذنه لنا في ذلك خصوصية لم يسمح بها قبل لاحد وذكروا ان انباشادور الفرنسيس طلب ذلك منه هو وانباشادور المانيا فلم يأذن لهما فيه:

وبهذا المصيد ايضاً من الذياب اكبر من ذياب بلادنا وهو ذيب كبير اصفر اللون له فتك وقوة ولقد حاولنا رؤيته حين مصيدنا هناك فلم نره، ولما خرج الطاغية يوماً الى الصيد قتل ذيباً منها واصحبه معه الى داره وحين وصل داره وجه به الينا لنعاينه اذ عرف ان ذلك النوع ليس في بلادنا ويسمون ذلك الجنس من الذياب اللوبو (٢) والجنس الصغير الذي هو بلادنا يسمونه السُرة(٣) ويصفون الجنس الكبير منه بالقوة والفتك، ولعل هذا الجنس هو الذي يحدثون عنه انه بارض مصر وهو بمقدار النمر او يقرب منه.

*
* *

---

(١) الباردو: (قصر) — (1) El Pardo (Palacio de)

(٢) اللوبو: الذئب — (2) Lobo

(٣) السُرة: الثعلب — (3) Zorra

وهذه المدينة اعني مدريد وان كانت دار سكنى بعض سلف هذا الطاغية فانها لم تكن على ما هي عليه اليوم من الحضارة والكبر واتساع الازقة وانفساحها .

وكانت دار طواغيهم قبل والده وجده مدينة بلَّيَاوليد وهي على ثلاثة ايام من مدينة مدريد، وحيث استقر بها جده زادت في العمران والبناء وكثرت الدور بكثرة السكان والعمار فان جلّ اعيان نصارى اسبانيا يسكنون بها مع الطاغية ومن بيده بلاد او مدينة يخلف فيها على يده من يقوم مقامه .

واسواق هذه المدينة كبيرة منفسحة الارجاء عامرة باهل البيع والشراء والتجارة واهل الحرف والصنائع رجالاً ونساء، وهذه السوق يقصدها جميع اهل القرى والمداشر التي تقرب من مدريد .

ففي حوزها من القرى عدد كثير، واهل هذه القرى يجلبون للمدينة جميع ما يباع بها من انواع الاطعمة والمأكولات والفواكه حتى ان الخبز لا يجعل بمدريد الاّ القليل منه وجلّ ما يؤكل منه بمدريد يأتي من القرى التي بخارجها يجلبه النساء، فيأتين به راكبات على الدواب ويقفن في الاسواق لبيعه على ظهور الدواب، والبعض منهن يقصدن الديار بتبليغهن اليها الخبز على قدر ما تستحقه الدار، لان من عادة النصارى ان لا يخبز احد منهم بداره، وجميع مؤنته انما هي عالة على السوق من كل شيء وبالسوق عدة حوانيت لطبخ الطعام وصنعه للغرباء والضيوف والمسافرين الذين ليس لهم موضع معهود، فيدخل الرجل للحانوت فيتحكم على المرأة التي به ويطلب منها من الطعام ما يشتهيه لحماً او دجاجاً او حوتاً او غيره مما يحبه وتطلبه شهوته فيأكل ويشرب ويدفع للمرأة ما يجب عليه في ذلك .

وتجد في هذه السوق من اللحوم البرية والوحشية والطيور ما لا عدة له وهي ميتة بغير ذكاة، والبعض منها بالحياة لمن يريد ان يجمع الدم لاكلهم اياه،

وكذلك ايضاً تجد بهذه السوق من الفواكه الرطبة واليابسة ما لاحد له فان التفاح والعنب والكمثرى يباع بهذه السوق السنة كلها الى ان تدخل عليه الفاكهة الأخرى من العام المقبل، وجلب هذه الفواكه الرطبة جله من جبال غرناطة والرندة، وان كانت مدريد بعيدة عن هذه البلاد المذكورة فان غلاء السعر بها يجلب لها جميع الاشياء من سائر الاقطار، وكذلك ايضاً تجد بهذه السوق من الحوت الطري الشيء الكثير يأتون به من البحر على مسيرة سبعة ايام من بلاد أليقنطي ومن ناحية بلاد البرتغال وبوسط هذه السوق سوق كبيرة مربعة وفيها حوانيت كبار وعلى الحوانيت من البيوت والغرف والمساكن ست طبقات وهي معمورة بالسكان من اهل هذه الاسواق وغيرهم، فقد زعموا ان بهذه (البلاصة) من السكان اربعة عشر الف متزوج، وبهذه السوق من اصحاب الحرف والصنائع والتجارة رجالاً ونساءً عدد كثير ويسمون هذا الموضع البلاصة ميور (١) ومعناه: السوق الكبيرة، وبوسط رحبته من النساء لبيع الخمر والخضر والفواكه والحوت واللحم على اختلاف انواعه شيء كثير.

وبهذه البلاصة يجعلون اعيادهم ومواسمهم كعيد الثيران وغيره.

فان من عوائدهم اذا كان شهر مايو (٢) في العاشر منه اوفي النصف يختارون ثيراناً فحولاً سماناً ويأتون بهم الى تلك البلاصة ويزينونها بانواع الفرش من الحرير والديباج ويجلسون في السطوح (٣) المطلة على البلاصة ويطلقون الثيران في وسط البلاصة واحداً واحداً ويدخل اليهم من يدعي الشجاعة ويحب اظهارها راكباً على

---

(١) بلاصه مايور: الساحة العمومية او السوق الكبيرة (1) Plaza Mayor

(٢) وفي مخطوطة (م): مايه

(٣) وفي مخطوطة (م): في المجالس المطلة

فرسه ليقاتل الثور بالسيف، فمنهم من يموت ومنهم من يقتل الثور (١) وموضع الطاغية في تلك البلاصة معلوم ليحضر ذلك هو وزوجته وجميع حشمه، والناس على اختلاف اعراضهم في الطيقان، فان كراءها في ذلك اليوم وحده اوفي يوم عيد مثله يعطى في موضع واحد مثل ما يعطى في السنة كلها، ولقد حضرت هنالك عيد جعلوه في هـــذه البلاصة نسبوه الى راهب من رهبانهم يسمونه سان كوان زعموا انه كان من جنس الفرايلية وحسنت حالته فيما يعتقدونه من دينهم ورأواله فيما يخيّل لهم الشيطان اموراً تخييلية يسمونها الميلاكروس (٢) ومعناها البراهين وله الآن نحو من مايةسنة. وفي هذه السنة زعموا انه ثبت عند البابا امره فاذن في تطويفه ليراه الناس ويعرفونه، فجعلوا له هذا اليوم بعد ان احتفلوا وزينوا كنيسته بانواع الحرير والديباج والبسوا صورتــه حللاً فاخرة مرصعة بالدّر والياقوت وزينوا جميع الازقة من كنيسته الى البلاصة، وزينوا البلاصة ايضاً بانواع الزينة وعلقوا بها من اليواقيت والجواهر النفيسة والصلبان الذهبية المرصعة مالا يقدر بقيمة، (٣) واحتفل لذلك الطاغية احتفالاً كبيراً واعد لنا مجلساً مقابلًا لمجلسه الذي هو معد له وجعل به من انواع الزينة مثل ما عمل لموضعه وبعث الينا يستدعينا لرؤية ذلك وقصده تأنيسنا وجبر الخواطر.

فقصدنا ذلك الموضع فوجدنا به من الخلق مختلطين رجالاً ونساء ما ضاق بهم ذلك الموضع على اتساعه. فبعد ان قاسينا من زحام الخلق وكان في جميع الاسواق والازقة اكثر مما اجتمع منه في البلاصة، فقصدنا الموضع الذي اعدلنا وصعدنا اليه وحيث جلسنا وقابلنا الطاغية سلم علينا وازال شمريره من على رأسه وقعد هو وزوجته وامه، وحشمه حولـه

---

(١) يشير الى مُصارعة الثيران — (1) Corrida de Toros

(٢) ميلاكروس: عجائب، امور فائقة الطبيعة — (2) Milagros

(٣) وفي مخطوطة (م): مالا قيمة له

وسلّم سلاماً كثيراً هو ووزراءه، واجتازوا بصلبانهم وتصاويرهم وبصورة هذا الفرايلي كوانا (١) الذي أَذن لهم فيه البابا وجعلوا لــه كنائساً عديدة في كــل مدينة وقرية وكذلك ايضاً جعلوا له عيداً على قـــدر المدينة او القرية.

والفرايلية المنتسبون اليه هم الذين يقومون في كل موضع بامور المرضى من المعالجة والخدمة وغيرها، فانه حيث كــان في عهده من الفرايلـية الذين يخدمون ذلك، صاروا كلهم يجعلون مرستانات في كنائسه ويقومون بامور المرضى اتم قيام.

فان ببلاد اسبانيا من المرستانات مــا لاعدّ لــه، فان في مدينة مدريد اربعة عشر مرستاناً في غاية الكبر والنظافة والاقامة: من الفراش والطعام والأشربة والمعاجين ومن يقوم بأمر المرضى، فيجعلون ايضاً للنساء المريضات عجائزاً يخدمهن ويقمن بهن وللرجال رجالاً. وهنَ في غاية التحفظ والمعالجة من غير تفريط بشيء يحتاجه المريض قليلًا كان او كثيراً.

فاقد دخلتُ منهم عدة، فرأَيت فيهم مـــن الاقامـــة مالــه بال ومال. وفي كل مرستان، منها مخازن عدة، مشحون كل واحد منها بما هو معد له من الزيت والخــل والمعاجن والأشربة وموضع الطبخ، فلقد وجدتُ به من اللحوم ولحم الضأن والدجاج والقنين والحجل ولحم الخنزير وغيره بقصد المرضى، فاذا دخل الطبيب على المريض وجسّ يده وعرف حالته يكتب بطاقة (٢) يدفعها للقيم على المرضى وهو يدفعها القيمة على الطابـخ ويحضرون له ما امره به الطبيب.

ولقد رأَيت عندهم بيتاً آخراً فيه حوائج المرضى، وذلك اذا دخل المريض المرستان يزيلون له جميع ما عليه من الثياب ويرفعونهم في البيت المعد لذلك ويكتبون عليهم

(١) هو القديس يوحنا مؤسس اخوة المحبة — (1) S. Juan de Dios (1495-1550)

(٢) وصف تركيب الادوية (وصفة) — (2) Receta

بطاقة بتعريف الحوائج وربها، ويلبسونه حوايج اخرى مدة هنالك المرضى من متاع الحبس الموقف على المارستان، يجعلون له سريراً عليه لحفان وازاران ووسادة. وكل ثمانية ايام يغسلون الثياب التي عليه ويجعلون له ثياباً اخرى، فاذا قام من مرضه البسوه حوائجه التي اتى بها وينصرف الى سبيله، وان مات يكفن من وفر المرستان ويبحث عن اهله فيدفعون لهم ثيابه التي تركها هنالك.

ولكل مارستان من هذه طبيبٌ معلومٌ تعين له دار سكناه قرب المرستان وكراؤها من الوفر، وجميع مؤنة الطبيب وما يتعلق به وبحشمه من الضروريات ومعيشته كلها من الاوقاف ليكون سائر الاوقات حاضراً غير غائب ولا مشتغل بشأن معاشه.

وهذا الجنس الذين هم منسوبون الى هذا الفرآيلي سان كوان هم اكثر الناس خدمة المرضى ولهم في ذلك اعتقاد.

ولقد مرض بعض اصحابنا ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار وكان هذا الجنس يختلفون الينا للزيارة سائر الايام، فحين رأوا المريض طلبوا منا ان ينقلوه الى موضعهم ليعالجوه ويقوموا بأمره، فمنعتهم من ذلك فتغيروا وقالوا احيينا الحسنة فما ظننا ان تمنعنا منها، ورغبوا في ذلك كثيراً فلم اطلق لهم في شأنه بطرف، فلم يزالوا يعودونه حتى بريء.

ويودّ لهم الانسان باعتقادهم ذلك وحسن اخلاقهم ومسكنتهم انْ لو كانوا على الطريقة المستقيمة فانهم احسن اهل جنسهم اخلاقاً واكثرهم مسكنة والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

*
* *

وبسوق مدريد ايضاً موضع معدّ للرسائل والبراوات (١) الواردة من جميع البلدان

---

(١) البراوات: جمع براءة بالاصطلاح المغربي وهي الرسائل

والاقاليم والاقطار، فان في كل يوم من ايام الجمعة ترد رسائل بلد من البلدان، فمن كان يرتجي ورود براءة يمضي الى الحوانيت المعدة لذلك وينظر هل اتاه شيء ام لا، فاذا وجد براءة يعطي عليها جعلًا معلوماً : قدرَ ربع اوقية بلادنا، (١) وكذلك من يحب بعث رسالته الى بلادٍ، يكتبها ايضاً ويطرحها في الموضع المعلوم ولا يعطي عليها شيئاً فان الذي يتسلمها هو الذي يخلّص كراءها، هذا فيما قرب من البلاد مسيرة نصف شهر فما دون من جميع البلاد. واما ما كان من بلاد بعيدة من البلدان مثل ايطاليا ورومة ونابُل وفلانضس وفرانسية والانكلاطيرة وغيرهم من البلدان القاصية فانّ كراء البراءة الواردة من احدى هذه البلدان هو وزنها من الفضة، ويتحصل (٢) في هذه الرسائل من الاموال شيء كثير.

ولقد ورد في شهر فبراير رقّاص ايطاليا ورومة واتى معه بزنة ثلاثة وخمسين ربعاً من الرسائل فتحصل في ذلك ثلاثة عشرة قنطاراً وربع القنطار (٣) من الفضة وهذه الخطة هي في يد كندي يسمى كندياطي زعموا ان الطاغية اعطاها اياه ليعيش بها، والرقاقيص جميعاً تحت يده، وعادتهم في ذلك ان يحمل الرقّاص القاصد الى البلاد الفلانية جميع ما يتحمّل من البراوات اليها ويسافر سفراً عميقاً من غير التفات ولا عطلة ومهما تراخى او عطب، يبدله في بينطة من البينطات المعدة في الطرق للضيوف والرقاقيص كما قدمنا، بكراء معين والقدر المعلوم عندهم لتبديل المركوب هو تسعة اميال لا يقدر على الزيادة عليها.

---

(١) الاوقية في الاوزان المغربية هي ٣١ غراماً وربع، والرطل ١٦ اوقية والقنطار ماية رطل.

(٢) وفي مخطوطة م: ويتحمّل

(٣) هكذا في الاصل، والصحيح ثلاثة عشرة اوقية وربع

فيمضي نصف طريق البلاد التي كان قاصداً اليها فيلقى رقاصها آتياً فيعطي كل واحد منهما ما اتى به من الرسائل اللآتي من البلاد الأخرى ويرجع كل واحد منهما الى بلاده التي اتى منها، ففي كل يوم من الايام يكون عند الرجل علم جميع البلاد.

وبمدريد شيء آخر زائد في الاخبار عن البراوات، وذلك انه اذا كان خبر من بلدان بعيدة نائية، فان فيها داراً فيها قالب الكتابة وهو على يد رجل واحد قد تحمّل لذلك مكساً للطاغية معيناً على رأس كل سنة، فمهما سمع بخبر او طرقه خبر وبحث عنه، يجمع من الاخبار ما يجمع ويفرغ عليها قالباً يطابع عليه آلاف من القراطيس ويبيعها باقل ثمن، فتجد الرجل في يده منها شيء كثير ينادي عليها ويقول: من يشتري اخبار البلاد الفلانية والبلاد الفلانيــة، فمن احب الاطــلاع على ذلك يشتري منها قرطاساً ويسمونها الكاسيطة، فيطلع الانسان منها على اخبار كثيرة، الآ ان فيها مــن الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة النفسانية.

*
* *

ومع الرقاص الوارد مــن ايطالية وروميــة كما قدمنا ذكره ورد خبر موت البابا الذي بروميه،(١)ولم يتولّ احد آخر مكانه الى هذه الايام، ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار ورد تولية رجل آخر منزلته، وهذه المنزلة عند عبدة الصليب هي منزلة كبيرة بحيث المتولى لها يحدث لهم الديانات والاحكام ويشرع لهم الشرائع ويأمرهــم بفعل ما احب وينهاهــم عما كره بوفق غرضــه، فلا يقدرون على مخالفته ولا يسعهم الا الامتثال، ففي المخالفة له عندهم خروج عن دينهم.

وكيفية تولية هذا البابا هو انــه تحته اثنان وسبعون راهباً مــن اكابر علمائهم كلهم يلقب بالكردينال، ودرجــة الكردينال عندهم هي احطّ منزلة من البابا، فاذا

---

(١) هو البابا اسكندر الثامن اعتلى السدة البطرسيّة سنة ١٦٨٩ توفي سنة ١٦٩١

مات البابا، دخل كل واحد من الاثنين والسبعين بيته واغلق عليه بابه وقعد يتعبد في زعمه، بحيث لا يخالط احداً ولا يتكلم مع احد وانما يُناول الطعام الذي يقوت به نفسه، ويقيم على ذلك اربعة اشهر، فاذا انقضت الشهور الاربعة فكر كل واحد منهم في نفسه الى الرجل من الاحد والسبعين، يغلب على ظنه انه يرتضيه ويختاره لثقته وامانته وعلمه وديانته، فيكتب اسمه في قرطاس صغير ويضعه في صندوق مغلق بحيث لا يطلع عليه هو ولا غيره، وكل واحد من المذكورين يكتب من القراطيس على قدر من يختاره، ويضع القرطاس في محله المعدّله فاذا انقضت الايام المعلومة لذلك وانقضت الكتابة والاختبار اجتمعوا وجعلوا ديواناً وفتحوا الصندوق وقرءوا القراطيس، فاي اسم من الاسماء وجدوه اكثر تعدداً في القراطيس اتفقوا عليه وولّوه تلك المنزلة بعد ان يأخذوا عليه العهود والمواثيق بالشروط المعلومة عندهم من الامانة والصدق ويأخذ عليه ايضاً هو من العهود ما هو معروفٌ عندهم. وصار هو اذ ذاك عندهم البابا.

ومن عاداتهم ان لا يختاروا الاّ من نيف على الثمانين سنة والذي صيّروه بابا هذه المرة هو اصغر سناً من ذلك فقد زعموا انه ابن خمس وسبعين سنة (١) وما زالوا يصفونه بصغر السن وقالوا انه لم يتقدم احد قبله في سنه.

وقد كانت قبل هذه السنين عادة اخرى وهي: ان لا يختار لتلك المنزلة الاّ رجل من اهل ايطالية عمالة رومة واحوازها لسبب كان الجاهم الى ذلك وهو انهم عثروا على بعضهم كان من جنس الفرنسيس تولى تلك المنزلة وصار يجمع الاموال ويدسها الى بلاده، فاتفق رأيهم في ذلك العهد على ان لا يتولى تلك المنزلة احد من جنس الفرنسيس ولا من جنس الاسبنيول الذين لهم الشوكة والعصبية، وانما يتولاها

(١) هو البابا اينوسنسيو الثاني عشر Inocencio XII-1691-1700

رجل من ايطالية واحكام رومة وعمالتها، يتولاها رجل من اقارب البابا ولا يتصرف احد غيره في جميع نواحي ايطالية بشيء من الاشياء .

والبابا الذي ولّوه هذه السنة بعد موت البابا هو من بلاد نابُلِ من حوز ايطالية الاّ انها في يد الاسبنيول وقد أُتخذت هذه القاعدة عندهم هذه المرة وتولاها من هو من عمالة الاسبنيول .

وهذا البابا هو الذي يفرض عليهم الصيام في بعض الايام لسبب يؤلّه لهم ويمنعهم من اكل اللحوم يوم الجمعة ويوم السبت ويحدث لهم برأيه ما يستحسنه، ويمنع اهل الصليب ان يتزوج احد قريبته اوبنت عمه اوعمته اوابنت خالته او خاله الاّ اذا أخذ له اذن من عنده واحلّ له ذلك، وعندهم في ذلك انفاق ومال كثير لمن يحتاج له اذن من عنده في تزويج قريبته بما يدفعه للوسائط والطريق من بعد المسافة ولا يسهل عليه في ذلك الاّ اذا كان ذاجاه ومال فاذا كان ذاجاه ومال يجد السبيل للاذن في التزويج، وقد اذن لهم ايضاً في تزويج القريبة اذا وقع بينه وبينها ملاقات من زنى الى ان ظهر بها حمل وكانت قريبته فهذه اطلق لهم فيها الاذن من غير ان يحتاج الى الوصول اليه .

ولقد رأيتُ بمدريد امرأة صغيرة ذات حسن وجمال ومنصب من اكابر اهل اسبانيا وقد تزوجها خالها وهو رجل يسمى دون بيدرُو ذي اراغون وهو من ابناء ملوك اراغون فتزوج ابنة اخته باذن من البابا، وكان كبير السن فخاف ان يموت من غير عقب ولم يكن عنده من يورثه فأخذ الاذن من البابا فتزوج ابنة اخته ومات قرب تزويجه منها وخلف لها من الاموال ما يعجز عن حسابه .

ولقد حاول بعض الاعيان تزويجها بعده فلم ينالوا منها شيئا من كونها من اهل اسبانيا وهي ابنة دوكي يسمى دوكي مدينة سليس وكان له عند الطاغية منزلة

الوزارة والحجابة والدخول عليه في فراشه وغير ذلك، وكان له مع ذلك زيادة موروثة ورثها عن سلفه من قديم هو وابوه وجدة حيث كانوا من نسل ملوك اسبانيا، فكان اذا سلم على الطاغية يقول له: نحن بعدكم. يعني ان له الولاية بعدهم اذا انقطع عقبهم ولم يخلفوا من يرث الملك.

وبقي هو وسلفه على ذلك زمان اسلاف هذا الطاغية وزمانه هو، الى ما قبل هذه السنة بتسعة اعوام فيما ذكروا: ان الطاغية خامر عقله وشوش ذهنه ما يسمعه من تلك الكلمة التي تؤلم قلبه حيث لم يولد له، فقال له يوماً: ان هذه الكلمة التى اسمعها منك كثيراً ما تؤلمني واريد ان تتركها ولا تعد لقولها ولا الى الارتقاب اليها، لا انت ولا عقبك من بعدك، فتركها حيث لم تمكنه المخالفة وبقي على حال وزارته وتصرفه الى ان حاول منه الطاغية امراً امره به وكان الوزير يحب خلافه فلم يمتثل لذلك ولا اذعن اليه.

فلما رأى منه الطاغية التصمم على خلاف شهوته وكان بيد الوزير مفتاح يدخل به على الطاغية اينما كان.

فجاء الوزير يوماً على عادته فوجد الباب مغلقاً من داخل فحاول فتحه فلم يقدر فقرع الباب الى ان نهض الطاغية وجاء الى الباب ينظر القارع، فلما فتح الباب وجد الوزير فاغلقها في وجهه، فرجع الوزير حنقاً الى داره وقعد بها، فلم يطل الى ان مرض بالمرض المسمى عندنا بالنقطة، وبقي مريضاً نحو الثمانية اعوام ولحق بالسعير في هذه السنة ونحن مقيمون بمدريد، وخلف ولداً هو انباشادور في رومة بنيابة عن طاغية اسبانيا وواسطة هنا لك عند البابا.

اذ من عوائدهم ان يبعثوا سفراء من بعضهم الى بعض كما فعل البابا ايضاً ببعثه رجلاً كبيراً من علماء ملته الى مدريد يسمونه النونسيو هو خليفة البابا فيما قرب من

امور الديوانات والشرائع، وكذلك بمدريد عدة من الانبشادورين. فان بها اليوم انباشادور المانيا وآخر من انكلاطيرة.

وقد كان قبل قدم من قبل الانكليز رجل فاقام بمدريد مدة فعشق امرأة حمله ما به منها الى ان تنصر وتبع دين اهل الصليب، اذ جنس الانكليز لا يعبدون صلباً، فحيث بلغهم تنصره ابدلواه بآخر عوضه وبقي هو بمدريد، تأهل وجعل له الطاغية راتباً يعيش به، مبلغه اثني عشر الف ريال عن كل سنة، ولقد فقد ببلاده جميع ما كان يملكه اذ لا طمع له فيه.

وبمدريد ايضاً انباشادور بلنسية والبرتغال فهؤلاء مقرون مستوطنون باولادهم ونساءهم. والغير يقدم بقصد قضاء ما يأتي اليه ويرجع في حاله.

ولقد كان قبل هذه الساعة بمدريد انباشادور افرانسية ولما وقع بين اجناس النصارى ما بينهم اليوم من الفتن والحروب والعداوة حسبما نذكر سببه بعد هذا ان شاء الله رجع في حاله الى مخدومه.

*
* *

وسبب هذه العداوة التي بينهم اليوم مسألتان: اولهما ان الفرنسيس لما شمخ بانفه وجدب برأيه واشتد كلفه على ابناء جنسه ودخلته النخوة وكان مجاوراً له اذ ذاك كندي له ولاية وعمالة لم تكن تحت احد من الملوك وانما ورثها عن سافه مثل ما لبعضهم من العوائد عند ملوك العجم، اذ كان له عدة اولاد فان البكر هو الوارث للملك ومن بعده يكون دوكاً على طراف من البلاد معيناً معروفاً لا ينازع فيه ولا يطمع هو معه في الملك، الا اذا انقرض اخوه الوارث من غير عقب ووقف الأمر عليه، فان في عوائد ميراثهم ان الاخ يرث اخاه اذا لم

يكن له ولد، فان غيره من نسل اخيه يرث الملك سواء كان حفيداً او ابن حفيد او ابن اختٍ او بنت اخت.

وكان هذا الدوكي المذكور والياً على طرف من البلاد، وقد كان من غير (١) جنس الفرنسيس، فاحبّ الفرنسيس ان يعزله ويعمل غيره مكانه وعجز الدوكي عن مقاومة الفرنسيس فانكر البابا عليه ذلك فابى الاّ تمادياً على فعله ولم يعمل بقول البابا ولا بانكاره عليه.

*
* *

وحيث كان جميع عبدة الصليب تحت نظر البابا واليه ينتهي جميع كلامهم ومن عنده يلتمسون جلّ اديانهم واحكامهم وعنه يأخذون دينهم المنكب عن طريق الحق والهدى تابعين بذلك سبيل الغي والردا ويحدث لهم اديانا على وفق ارادته وهواه ويساعدونه في تلك الامور (٢).

فكانوا لا يبرمون شيئاً في امر دينهم الاّ عن اذنه ومشورته ويوافقونه فيما يلائم اغراضهم من امر دنياهم ورياستهم.

فحيث وقع الانكار من البابا على الفرنسيس وخالفه وقعت المشاحنة بين البابا والفرنسيس لعدم انصاته اليه ومخالفة ارادته في مثل هذه المسئلة وخرقه القواعد التي لا سبيل لهم الى خرقها (٣) وازالة ذوي الاقدار عن مراتبهم وميراثهم. ادّى ذلك الى المشاحنة والمنافرة بينهم. وفي اثناء ذلك وقع بين الفرنسيس ايضاً وبين امبرادور

---

(١) وفي مخطوطة م: وليس هو من جنس الفرنسيس

(٢) وفي مخطوطة م: ويساعفونه في الأمور التي قدّر الله تعالى فيها شقاوته

(٣) وفي مخطوطة م: الى خرمها

المانيا كلام في شأن المهادنة التي بينه وبين ملك الترك قواه الله، ودعاه الى افساد المهادنة ورجوعه عـن مواصلته فلم يكن من الفرنسيس التفات الى الانبراادور ولا الى ما دعاه اليه فوقع الشقاق بينهما بسبب ذلك.

فحين صار بينهما ما ذكر من الشنئان انكر الاجناس الآخرون من المسيحية على الفرنسيس تصممه على خلاف الانبرادور وعدم مساعدته الى ما دعاهُ اليه من طرح المهادنة، وكان للانبرادور عند الاجناس المسيحية منزلة ومكانة من اجل مقابلته المسلمين دائماً واشتغاله بالحرب معهم سائر اوقاته وزمانه، ومن اجل ذلك يلقب بالانبرادور ومـن اجل اجناس اخرى يتابعونه في حربه، فاجمع الاجناس الذين هم الى نظر البابا وكانوا شيعة الانبرادور عداوة الفرنسيس وكتبوا اليه قائلين له: اعلم إن تجشمكَ لهذه الأمور وارتكابك لها من مخالفتك للبابا الذي نحن جميعاً الى نظره وبتعمدك الى خرق العوائد من ازالة ذوي الا قدار عن مكانتهم وخالفت رأس هذا الدين وتعمدت مخالفته وقد علمتَ ما في مخالفته، ومنها ايضاً مهادنتك مع الترك وبقاؤك معهم على المهادنة، وقد علمت ما بينهم وابين الانبرادور من الحروب التي لا يمكنك جحدها، وفي ديننا ومذاهبنا تجبُ علينا معونته واتباعه. فامّا ان ترجع عـن صلحك مع الترك وتصير معنا ومع الانبرادور حالة واحـدة واما ان نضرب الديوان على عداوتك وحربـك.

وذلك ظناً منهم انـه ان رأى اجتماعهم واتفاقهم كلهم على مقاومته وحربـه لا يقدر على مقاومتهم، فيرجع على نفسه باللوم والندامـة، وان صمّم عـلى مخالفتهم اجمعوا على عداوته براً وبحراً فيقصمون (١) ظهره ويكسرون شوكته.

فلما رأى ما اجمعوا عليه وسولت له نفسه مقاومتهم وعلم من نفسه ذلك كتب

---

(١) وفي مخطوطة ٢: يقسمون (بالسين)

اليهم قائلاً اني اطلعتُ على ما اجمعتم عليه واريد ان توجهوا اليّ ذلك بخطوط ملوككم لأرى في ذلك رأيي واستشير في نفسي . فاجابوه الى ذلك واتفقوا عليه ووجهوا به اليه .

فلما رأى ما اجمعوا عليه وقرأ ما اتفقوا به من حربهم له اذا لم يرجع عن مهادنته مع الترك ويساعف الامبرادور في فسادها ويقلع عما كان ارتكبه من مخالفة البابا فهم حرب عليه .

فكتب تحت اشهادهم بذلك بخط يده : هؤلاء الاجناس عدو للفرنسيس والفرنسيس عدو لهؤلاء الاجناس ، وبعث به اليهم . فحيث رأوا ما اجمع عليه من عداوتهم لم يكن بد بد حربه حيث اشهدوا على انفسهم ذلك واشتعلت الحرب بينهم بسبب هذا براً وبحراً ومازالت الى الآن في هياج واشتعال .

*
* *

وهذه الاجناس المذكورة هي : الاسبنيول والالمان والطليان والسوسة التي يسمونها النصارى بسوسية (١) وسابويه . ولم يتخلف عن الدخول في حزب هذا الحرب الآ البرتغال فقد دعوا طاغيتهم الى الدخول معهم فأبى ولم يدخل لهم حزباً ولا حرباً وكذلك جنس الجنويز لم يدخلوا معهم وكبيرهم دوكي يسمونه كران دوكي ومعناه الدوكي الكبير لما تحت يديه من الولايات والعمالات غير انه لم يورط نفسه مع هؤلاء في حرب وانما هو مع الفرنسيس في مهادنة اتفق معه عليها بجعل معلوم وسفائن معدودة في البحر حيثما يطلبها يجدها وبقي مع سائر الاجناس في مهادنة . وقد كان جنس الانجليز والفلامنك قبل هذا ايضاً لم يدخلوا مدخل هؤلاء الاجناس

(١) سوسة وسوسية : اسوج

(1) Suecia

المسيحية في حرب، لانهم لم يكونوا معدودين عندهم نصارى بسبب اختلاف ما بينهم من عدم المبالغة في اتباع البابا كما يتبعه سائر النصارى عبدة الصليب، والانجليز والفلامك هم حالة واحدة، وهم ينكرون على الصليبيين اموراً واشياء ابتدعوها من الضلالة، وكلهم على سنن ضالة نسأل الله السلامة، وبسبب ذلك يسمي المسيحيون هؤلاء اللنجليز والفلامنك الريكيس (١) ومعناه الروافض.

*
* *

وحيث كان طاغية الانجليز توفي (٢) اثناء عداوة المسيحيين بينهم ولم يخلف ولداً يلي ملك ابنـاء جنسه من بعده وخلف اخاً له يسمى يعقوب، وكـان يعقوب هذا هو وزوجته يعتقدان دين النصرانية خيفـة من غير ان يعلم بهما احد من قومهما.

ولما مات اخوه وتعين الامر عليه لم يكن له بد من توليته وانزاله منزلة اخيه، فدعوه الى التملك عليهم فامتنع وابى تحيّلاً منه ومكراً، فحيث الحوّا عليه ورأى ان لا سبيل لهم بالتعدي الى تملك غيره لعدم من يستحقه بالميراث، فقال لهم: لا اساعدكم (٣) الى ما تدعونني اليه وتطلبونه مني الآن عملتم لي غرضاً لا اضرر عليكم فيه وهو: ان كل من احبَّ ديناً يتبعه. فوافقوه في ذلك وساعفوه والبسوه التاج وملّكوه، فلم يرعهم الا واصبح هو وزوجته وقـد علقا الصلبان واظهرا افرا ثلياً من النصارى كان عندهما ودخلا الكنيسة

---

(١) يقصد لفظة اريخس Herejes هراطقة، روافض، ملحدون: هم الذين انكروا عقيدة من عقائد الدين المسيحي ورفضوا الخضوع لسلطة البابا

(٢) هو كرلوص الثاني ملك انكلتيرا مات سنة ١٦٨٥

(٣) وفي مخطوطة م: لا اساعفكم

وصليا بصلاة النصارى وتبعه على ذلك من كان من بطانته عالما به، واحبّ ان يحمل ابناء جنسه على اتباع دينه الذي اصبح متديناً به.

فحين رأى جنس الانجليز ما حـلّ بهم من مخالفة ملكهم دينهم واتباعه دين اهل الصليب خافوا سريان ذلك الداء الى عامتهم فلا يمكنهم حينئذٍ حسم تلك المادة. فانكروا على الطاغية ما فعله مـن التديّن، فدوّنوا ديوانهم مزعمين على قتاله، فحين احسن بذلك منهم هرب الى ملك الفرنسيس هو وزوجته واحتمى به، فاجمع الفرنسيس على نصرته ومحاماته كرهاً من الانجليز ورغماً على انفهم، فخاطبوه في ذلك وصار بينهم كلام كان الانفصال فيه الى ان قال لهم: انتم اجمعون لي اعداء مثل سائر النصارى فاستعدوا الحربي الى ان اردّ الهارب الى داره (١) ومملكته بالرغم منكم.

وحيث حلّ بالانجليز ما حلّ بهم مـن خروج ملكهم وتولد الحرب بينهم وبين الفرنسيس ملكوا عليهم البرينسيبي دورانجي قيّم جنس الفلامنك، اذ كانوا هم واياهم متدينين بدين واحد في اختلاف ما بينهم وبين اهل الصليب (٢)، وتولى البرينسيبي امرهم ولقبوه بالملك وازمعوا على حرب الفرنسيس براً وبحراً، وحيث كانت بلاد الفلامنك ولاّ نضة(٣) مجاورة لبلاد فلانضس وبلاد فلانضس هي بالاصالة من جنس الفلامنك ايضاً وكانوا قبلاً على رأيهم ومذهبهم في التديّن والاعتقاد، وحين صارت فلانضس عمالة الجنس

---

(١) وفي مخطوطة م: الى ارضه

(٢) يقصد المؤلف باهل الصليب وعبدة الصليب الكاثوليك فقط كما انه يستعمل كلمة (النصارى) بهذا المعنى. فالنصارى كلمة تطلق على جميع المسيحيين: من كاثوليك وبروتستنت وارثودكس الى غير ذلك من الطوائف المسيحية وعند ما يتكلم عن دين الانكليز والفلامنك (الهلنديين) يقصد به المذهب البروتستنتي

(٣) هولاندة

(3) Holanda

الاسبنيول بانتقال الكوندي زوج ابنة فرنندو الذي كان باشبيلية كما قدمناه، وصارت فلانضس وجميع احكامها الى نظر طواغي اسبانيا زعمهم بما لهم عليهم مـن الغلبة ان يتنصّروا ويكونوا على دين حكامهم . فنهض اليهم ملك الفرنسيس هذه السنة بمحلة اصحبها قبل مع ولده الدلفين ابعده الله، وادركه هو بعد ذلك بنفسه، فخيّم على قاعدتها مدينة مونص (١) وحاصرها اياماً قليلة ونصب عليها المدافع والبونبات وضيق باهلها تضييقاً كثيراً، وكان بها من ادالة الاسبنيول اثنا عشر الفاً، فحيث رأوا ما حلّ بهم من التضيق وخافوا الهلاك اعطوه القياد، فملك القاعدة وجميع ما هو محسوب عليها ويضاف اليها مـن القرى والمدن والعمالات ما ينيّف على سبعماية بين مـدن وقرى، وحين فتحها دخلها في يوم عيد الفصح منتصف شهر ابريـل مـن عامنا هذا، فترك المحلة صحبة ولده الدلفين ورجع الى باريز دار مملكته وقاعدة بلاده، وما زال ولده اليوم مقابلاً البرينسيبي دورانجي المملّك على جنس الفلامنك والانجليز، وذكروا ان عدد جيوش البرينسيبي خمسة وسبعون الفاً ولهـم عمارة في البحر مقابلة لعمارة الفرنسيس، وزعموا ان عمارة الانجليز هزمت عمارة الفرنسيس وافسدت لهم اربعين سفينة، وقد حارب الفرنسيس ايضاً الاسبنيول براً وبحراً، ففي البر حاصر مدينة كطلونيا في عمالة برسلونة (٢) وقباله محلة لجنس الاسبنيول ولي امرها دوكي مدينة صيدونية الملقب بقزمان، وقد كانوا ايام مقامنا بمدريد يخافون عليه من الفرنسيس فامدّوه بجيش قليل لا بال له وكانوا ينتظرون ما يكون بينهما، فزعموا ان في هذا الشهر خيم عليها ونصب عليها وعلى المدينة (برساونة) المدافع والبونبات وهدم منها عدة دور، فنهض اهل برسلونة الى من ببلادهم من جنس الفرنسيس وامروا بالخروج مـن هو اعزب وان لا يُترك الاّ من هو متأهل، وحين فعلت سفن الفرنسيس ببرسلونة

---

(١) استولى الفرنسيّون على مدينة مونص في ٩ ابريل سنة ١٦٩١

(٢) هكذا في الاصل، والصحيح : برسلونة من عمالة كطالونيا .

ما فعلت تقدمت الى مدينة تسمّى ألِقَنْتي (١) فهدمت ايضاً منها بالبونبات ما ينيف على ست مائة داراً .

فاحاط اهل ألقنتي بمن منهم ايضاً من الفرنسيس وقتلوهم بحيث لم يفلت منهم احد، فزعموا ان من قتل منهم بألقنْتي ثلاثه آلاف نفس .

وحين سمع الاسبنيول بتقدم عمارة الفرنسيس الى القنتي وبرسلونة وكانت عمارته قد ذهبت الى البحر الكبير بقصد البحث عن سفن الهند(٢) لبطء اخبارها عنهم وفوات وقت قدومها بعادتها، فجهوا من استرجع العمارة لتتقدم نحو بلاد القنتي وبرسلونة لمحاربة عمارة الفرنسيس، فلم تصل العمارة الا وقد هدم الفرنسيس ما هدم وعمل ما عمل ورجع، فلم يدركوا بتلك الناحية احداً من عمارة الفرنسيس.

وللفرنسيس ايضاً حروب اخرى مع اهل بنيسيا (٤) وايطاليا والمانيا وسابوية (٣) فان بلاد سابوية هي في يد دوكي يسمّى دوكي سابوية كان دخل في حزب اهل الصليب في العداوة التي نشأت بينهم وبين الفرنسيس .

وفي هذه السنة تقدمت محلة الفرنسيس نحو سابوية وضايقت اهلها تضييقاً كثيراً وملكت جميع بلاد سابوية ومدنها وقراها حتى لم يبقَ للدوكي القيّم عليها الا المدينة التي هو محاصر بها اليوم وما زالت المحلة محيطة به ومحاصرة له .

وبسبب محاربة الفرنسيس للانبرادور حسب ما تقدم ذكر الاسباب المثيرة اهلها ينسبون له المعونة لملك الترك قواه الله ويزعمون انه يمده بما يحتاجه من الأمور الحربية

---

(١) أَلِقَنْطي — (1) Alicante

(٢) يقصد اميركا

(٣) فنيسيا — (3) Venecia

(٤) سابويا — (4) Saboya

مثل المدافع وغيرها، وبسبب مقام انباشادور الفرنسيس ببلاد اسطنبول يزعمون انه يمده، والصحيح هو: ان اهل فرنسا اهل اسباب وتجارة وجلّ تجارتهم انما هي في الناحية الاسطنبولية ولاهل الاسباب والتجارة عند طاغية الفرنسيس دمره الله منزلة ومكانة اذ كانوا هذه السنين هم اهل ديوانه وجلّ بطانته فكان يساعفهم فيما يؤول الى منفعتهم من الاسباب والتجارة التي يعود نفعها عليه ويحصل له بسببها من الاموال ما يحصل بخلاف غيره من الاجناس، مثل هذا الجنس الاسبنيولي فان التاجر عندهم لا يعدّ شيئاً، وبسبب ذلك قلّ التجار من جنس الاسبنيول، ولا تجد احداً منهم مسافراً في بلد بقصد التجارة الآ ما كان في بلاد الهند.

واكثر مَن باسبانيا من المتسببين والتجارهم من الانجليز والفلامنك والجاويز وغيرهم، فديوان الفرنسيس مع التجار من قومه هو بسبب ما يراه من المنفعة في ذلك والا فالترك يطلبون القوة والمعونة من الله تعالى لا كما يزعم هؤلاء الجهال اهل الضلالة. لان انتقال الفرنسيس للانبرادور وحربه معه للترك بسبب استخلاص في السنة الفارطة مدينة ابن الاغراض (١) وما حولها، والله تعالى ناصر دينه.

*

* *

والذي ورد هذه الساعة من الاخبار عن ملك الترك ايده الله انه جمع جموعاً كثيرة وانه لا يثني العنان بحول الله وقوته دون مدينة باينا (٢) التي هي قاعدة المانيا ومحط سريره ولقد اخرجوا في اخبارهم التي يكتبونها على عوائدهم في هذا الشهر: انّ وزير

(١) ابن الاغراض، ابن الاكراد: بلغراد Belgrado قد استرجع السلطان سليمان مدينة بلغراد من دوق بافاريا وافتتحها عنوةً سنة ١٦٩١

(٢) فِيَنـا

(2) Viena

السلطان سليمان برز بمحلته وبها مئة الف مقاتل وخمسة وعشرون الف مقاتل وان جيش التتار قدم في ميعاد محلة الترك بثمانين الف مقاتل، وقد صادف وصولهم الموضع المعتاد لمحلة القبطان مــن خدام الانبرادور مخيماً بموضع من المواضع ومعه ستة آلاف مقاتل، فحارب التتار محلة القبطان المذكور فاسروا من قومــه اربعة آلاف شخص (١) وقتلوا عدة ولم يفلت من الباقين الاّ النزر الذي لا يعد لقلته، ومع الترك محلة الكنذ يسمونه التاكلي كان قبل هـذا تحت ملك الترك بذمة وعهد، فجذب بعد ذلك لرأسه، فلما وقع بمدينة ابن الاغراض ما وقــع رجع التاكــلي الى نصرة السلطان سليمان ايده الله وفعل لجنس اهل الصليب افاعيل نوهوا به في تاريخهم بسببها.

ولقد ذكروا ان الانبرادور كثيراً ماحاول ان يثني التاكلي عن ملك الترك فلم يقدر، ثم بعد ذلك اغار بعد اصحاب الانبيرادور على قوم التاكلي فاسروا منهم عدة وكان فيما اسروا زوجة التاكلي وبعض اولاده، فأزمع الانبرادور على قتلهم رجاء ان يثنيه فلم يفعل، فحينئذٍ حبس الانبرادور زوجة التاكلي ومن اسر معها(٢)وما زالت الى الآن عنده وازداد بذلك التاكلي جرأة وتمادياً على اهل الصليب.

وما زال الانبرادور قبحه الله يستغيث باهل الصليب ويجعل بينه وبينهم المهادنة ممن والى بلاد الترك ليكونوا له معونــة باشتغال المسلمين (قواهم الله) مثل جنس يسمى بولونيا (٣) فان بولونيا هذه جنس من اجناس النصارى ولهم عمالات وبلاد موالية لبلاد الترك ولهم طاغية هو في حرب مع الترك ايضاً.

---

(١) وفي مخطوطة م: رأس

(٢) سجنة زوجة التأكلي واولادها في مونككس Munkacs زمن الحصار ١٦٨٥ - ١٦٨٨ الى ان اطلق سبيلهم

(٣) بولونيا

(3) Polonia

وزعموا ان الانبرادور كان يريد ان يدخل معه في حرب الترك جنس مسكوبيا وهم في بلاد من ناحية الشمال فحاول منهم ذلك الى ان اجابوه ثم وقع بينهم ما اوجب المنافرة والوحشة، ويزعمون ان طائفة من التتار قد وقع بينهم وبين اخوانهم منافرة وهم تحت عهد طاغية مسكوبيا بذمة، ويزعمون ان لهم عدداً كثيراً اخلا الله الارض من جميعهم وعمرها بدوام ذكره وتوحيده ونصر دينه القويم.

وللجنس الاسبنيول عادة فيمن يريد الكبيرة ولم يظهر له من اين يدركها او لم تكن له يد عند المخزن يلحق بها ما يعيش به ويكفيه عن معاطاته الاسباب وغيرها بان يقصد بلاد المانيا على بعدها ويحضر هنالك الحرب مع المسلمين اعزهم الله ويجعل بيده اشهاداً وبيّنات تثبت لهخدمته ونصيحته وبذل مجهوده، وحين يرجع الى بلاد اسبانيا يستظهر بالاشهاد الذي بيده ويدلي بحجة الخدمة وصدق النية فيما كان توجه اليه فيدرك بذالك من الكبيرة ما هو له اهل او مثل ما يدرك امثاله الذين لهم يد او لهم حجة يطلبون لها ذلك. وهي عوائد الشلطاظ الذين منهم يحوزون الكبيرة.

وان كان من نسل اعيان اهل بلاده وكان لوالده لقب من القاب الكبيرة مثل الدوكي والكوندي او المركيس ومن دونهم في المنزلة ولم يكن لهم ميراث يرث به كبيرة والده يتقدم الى محلة من المحال واكثرها بلاد المانيا، فيحضر هنالك حرباً او لم يحضره، فحين ينقلب ياتي في يده باشهاد من رئيس المحلة بانه حضر معه حرب كذا في موضع كذا وابلى بلاء حسناً وفعل وفعل، سواء فعل ذلك ام لا، فيطلب منزلة او راتباً يتسع به حاله لان من عوائدهم في الميراث انما هو البكر من الولد ذكراً كان او انثى، فاذا مات احد الاعيان من الملقبين بهذا اللقب يورث ذلك للبكر بجميع متروكه بحيث لا يرث غيره معه من اخوانه شيئاً ولو كانوا بعدد كثير، وليس لهم الا ما يمنحهم

والدهم في حياتــه بعطية او هبة او صــداق يصدقــه للبنت، لان مــن عاداتهم اعطاء الصداق مع البنت.

فاذا كانت البنت هي الوارثة لكبيرة والدها وصادف تزويجها بعض من له لقب من القاب كبيرتهــم مثل لقبها او اكبر منه يتولى جميع ميراثها وتصير تلقب هــي بلقب الزوج واذا صادف تزويجها بعض اولاد الاكابر ممن ليس له لقب ولــم يكن وارثاً لابيه يحصل هو بتزويجه اياها على كبيرتها ويصير ملقباً بلقبها، ومن اجل ذلك يتعطل تزويج بعضهم ممن ليس بوارث لتشوقه الى تزويج ابنة احد الاعيان ممن لها ميراث، واما اذا لم يكن لها ميراث فعادتها في الصداق(١) هو ان يمنحها والدها مائة الف ريال لا يزيدها على ذلك بتقدير من الطاغية: ط:

((: الريال عند الاسبنيول هو جزء من عشرين من الدورو والدورو هو الريال المصطلح عليه عند أُمم اخرى بكونه خمسين فرنكا او خمس اللويز الذهبي فيكون الصداق اعلاه هو عشرون الف دورو من قسمة مائة الف على ٥ يخروج ٢٠ الفا)) (٢) ط.

---

(١) يراد في الصداق عند النصارى البائنة La dote والفرق بين الصداق والبائنة هو ان الصداق شرعي الزامي والبائنة اختيارية يتفق عليها وتدفعها المرأة للرجل، بعكس الصداق الذي يلتزم الرجل شرعياً بدفعه للمرأة والبائنه بمعناها العام: هو مــا يكون مع العروس من مالٍ وجهازٍ عند زفافها.

(٢) هكذا في الاصل والصحيح: فيكون الصداق اعلاه خمسة الآف دورو من قسمة مايــة الف على عشرين يخرج خمسة الآف. ط. وهذه القطعــة التي بين قوسين ساقطة مــن مخطوطة مدريد. فلاشك ان هذا التمديل وهذه العملية الحسابية من تعاليق الناسخ، فان «الفرنك» لم يكون معروفاً ولا مستعملاً في عهد المؤلف.

ولهم في الميراث عادات ليست جارية على قانون واحد في ميراث الكبيرة، مثل ما لوزير من وزراء طاغية اسبانيا يسمى كندي اسطابلي مع انه معروف عندهم في الكبيرة وذلك ان عادته الموروثة من عهد اسلافه اذا مات ولم يخلف ولداً ذكراً فان ميراثه وكبيرته لا يرثه احد من ذوي قرابته وانما يرثه رجل اجنبي من خدامه الاوّل منهم فالاوّل، فاذا مات ينظر الى خدامه الاسبق واقدم في الخدمة فيتولى جميع منزلته وكبيرته من وزارة وغيرها

واذا اختلف في اي خدّامه الاقدم والاسبق يعين ساعة معروفة ويخرج من داره من هو معروف عندهم بالامانة والثقة في دينهم، فحين يخرجون اول ماريهم يدعونه ويولونه تلك المنزلة سواء كان من ذوي الاقتدار او من سائر الناس فيأخذونه ويذهبون به الى طاغيتهم فيجثوا امام الطاغية ساعة، وبعد ساعة يأمره بالوقوف عن يمينه موضع الوزير المتوفى ثم يأمره بعد ذالك بتغطية رأسه وقد تولى تلك المنزلة واحتوى على جميع امتعته واملاكه وبلدانه وعمالته لان من عادة هؤلاً الاكابر الذين عند العجم لهم في يدهم ولايات ومدن ورثوها حين تغلبهم على هذه البلاد واعطوها تلك الساعة فلا تنزع من يد احد من خلف ذالك السلف الذي ولي شيئاً منها .

ولهذا الكندي بنت وُلداخ، لكنهم لا يرثون منه شيئاً لخلوهم عن عادة الميراث، وله ولدُ ابن زنى فانه لا يرثه، وهو حاكم قالص اليوم.

☆
☆ ☆

ولهم عادة اخرى عند رجل يدعى البرنسيبي بيرساونه من ناحية قطاونيا مات وخلف ابنة من اجمل اهل زمانها وخلف لها من الاموال والامتعة والذخائر والضياع والمدن والقرى مالا يحصى، وفي ميراثها منه جميع مخلفه وعهد ان لا يتزوجها الاّ من غلب

وقهر اترابه يحضرها بعد المحاربة، وحين توفي والدها وشاع خبر ميراثها في ساير اجناس اهل الصليب ورد جميع اولاد الاكابر والاعيان من كل فج يطلبون البراز امامها ويروم كل واحد منهم ان ينالهـا، واجـل ذلك عندهم ستة اشهر، فحين يأتي الرجل الذي يريد البراز مع الغير ينزل خارج المدينة بعد ان يمر عليهـا وتراه وتعرفه ويتوعدون ليوم معلوم فيخرجون الى موضع المبارزة ويركب كل واحد من المتبارزين فرسه بعد ان يستعد ويلبس من الحديد والدروع ما يقدر عليـه ويجعل في يده قناة مركباً في راس حربتها حجارة من اليمنط (١) بحيث تحبس في الحديد ويزهق عنه، ويقصد كل واحد منهما صاحبه ويضع القنـاة في صدره ويتدافعـان فايهمـا اذرا صاحبـه عن فرسه صـار هو الغـالب الى ان يغلب فينزل ناحيـة وتصير حينئذٍ المرأة هي التي تنفق عليه الى ان ينتهي امد الاجل المذكور ولا يبقى من يقوم لذلك القصد، فحينئذ يخرج المنعزلون ايضاً من جميع من غلب، ويتبارز رجل مع آخر. فـاي ذلك العدد المنعزل غلب ايضاً صارت له الزوجة بالميراث الذي لها.

ولقد زعموا انه ورد من الاعيان جماعة وتبارزوا وكان بينهم شاب ابن عم طـاغية الفرنسيس اعجبها حين رأته وبعثت اليه هدية وضيافة لم تكن من عادتها توجهها لاحد في اليوم الذي يقدم فيه ووقع بقلبها منه ما وقع.

فأن مثل هذه المسألة واشباهها من الأمور الجارية على غير قانون واحد هي عوائدهم في الميراث، كل وما يراه برأيه قبل موتـه.

وللرجل عندهم النظر في جميع ميراثه ومتاعه وماله ان احب ان يعطيه لاجنبي او اجنبية ويخلي اولاده من الميراث فلا حرج عليه في ذلك، واذا ورّث متاعه الغير او ورثه الغير بمصاهرة بان يتزوج احد ابنته بعض من له لقب الكبيرة وكانت هي التي ورثت والدها

---

(١) ديامنط Diamante : الماس

وليس لزوجها لقب او كان له لقب دون لقب زوجته صار هو يدعى بلقب والد الزوجة ويحتوي على جميع ذخائره وامتعته، واولاد الرجل الموروث يلقبون غير لقب والدهم.

* * *

ومن اجل ميراث النساء على هذه الصورة صار هذا الجنس الاسبانيولي يتوقع تولية الفرنسيس عليهم باحدى الامرين: اما بالميراث اذالم يولد لطاغيتهم:

وذلك ان طاغية الفرنسيس كان تزوج ابنة فِليب كوارطو اخت هذا الطاغية (١) لابيه فولدت منه ولداً يسمى الدلفين (٢) ظهر له من المكر والخبث اكثر مما لوالده فاذا مات هذا الطاغية كرلوص سكوندو ولم يخلف من يلي ملك اسبانيا من نسله صار ملكها لولد طاغية الفرنسيس بالميراث من قبل امه (٣).

واما بما يظهر لهم اليوم من حربه معهم وتقدمه بنفسه الى المحال والحرب وعجز طاغيتهم عن التقدم بنفسه وعدم نهوضه في جميع زمانه الى حرب وقتال. وبسبب هذين الامرين وتوقعهم ولايته عليهم صاروا يتعلمون لسان الفرنسيس ويعلمونه اولادهم في المحافل والمحاضر من غير مبالات بطاغيتهم ولا اكترات.

---

(١) هي ماريّا تاريزا ولدت سنة ١٦٣٨

(٢) الدلفين Delfín والاصل بالفرنسية Le Dauphin اسم كان يطلق على البكر من ابناء ملوك فرنسا، والمقصود هنا ابن لويس الرابع عشر وماريا تاريزا ولد سنة ١٦٦١

(٣) لقد صدقت تكهنات الوزير، فبعد موت كرلوص الثاني اعتلى عرش اسبانيا حفيد ملك فرنسا الامير فليب دي انجو باسم فليب الخامس وذلك بعد حرب طاحنة تعرف بحرب الميراث

وما وقع هذه السنة من الفتك بالفرنسيس وقتلهم اياه يثير بينهم من الحنق ما يشغلهم ويضرم نيران العداوة بينهم .

وقد كانوا فيما قبل موت البابا المتوفى هذا العام يزعمون انه كان يحاول صلحاً بينهم ثم مات، الا ان الفرنسيس حيث كان وقع بينه وبين البابا ماتقدم من المنافرة صار يحدث لنفسه احكاماً واموراً دون البابا .

وسبب مخالفة الفلامنك والانجليز لاديان الصليب فيما قيل ان بعض الفاريلية كان وقع له مع البابا تنافر ومشاحنة ادى ذلك الى ان سجنهم سنين، وحيث وقع لهم السراح نفروا من البابا وانحازوا الى طاغية الفرنسيس وصاروا يحدثون له من الديانات ما يوافق هواه الى ان جوزوا له ترويج امرأة كان عشقها واحلوا له اخذها مع زوجته الملكة،(١) وقد كان البابا نهاه عن ذلك ومنعه من الترويج مدة حياة زوجته . فخالف البابا في ذلك وعمل ما اشتهاه لنفسه (٢) ودعاه اليه قلبه، مع انه لا يحل لهم في دينهم ترويج اكثر من امرأة واحدة .

وهذا البابا المذكور لايقدرون اهل الصليب على مخالفته في شيء قل او جل حيث كان يحدث لهم الديانات والاحكام والأكل في ايام الصيام وغير ذلك مما هو مخالف فيه لنصارى المشرق وان كانوا كلهم على ضلال، قبحهم الله واخلى منهم الارض .

الصوم الكبير

وذلك انه في صيامهم يأكلون اليوم كله ويزعمون الصوم كما شهدناهم وذلك

---

(١) هذه الحادثة التاريخية وقعت لملك الانكليز انريكوس الثامن الذي انشقّ عن الكنيسة الكاثوليكية وأسس المذهب الانكليكاني الانجيلي (البروتستنت الانكليكان) فقد نسبها المؤلف خطأً الى ملك فرنسا

(٢) وفي مخطوطة مدريد : وعمل ما اشتهته نفسه .

انه في آخر شهر فبراير (١) يجعلون اعياداً ومواسم، يحتالون فيها للصوم، فاذا كان اول يوم من شهر مارس فهو اوّل يوم من ايـــام صيامهم وهي ستة واربعون يومـــاً المفروضة على بني اسرائيـــل والستة ايـــام الزائدة هي كـــل يوم احد دخـــل في هذه الايام التي هي ايـــام الصوم فيتحصل في ذلك ستة واربعون يوما، وهذا الصوم الذي يصومونه ليس هو بامساك عن اكل او شرب او جماع، وانما هو امساك عـــن اكل اللحم فيما يزعمون، الا ّ من كان من الاعيان منهم او من به عذر من مرض فانه يأكل اللحم بأمر من البابا، وغيرهم من العموم يأكل الحوت في جميع ايـــام الصوم وقد احدث لهم ايضاً فيما احلّه لهم اكل بيض الدجاج في ايام الصوم بعد ان يأخذوا الأذن من الفارايلية ويعطي على ذلك جعلًا معلوماً قدر ثمن ريال عن كل نفس صغيرة او كبيرة، فيحصل من ذلك مالاً كثيراً، للطاغية فيه الثلث يصرفه على سُفُنه البحرية فتجد الرجل المسكين الذي لا يملك درهماً يتطلب في الاسواق ليجمع ما يشتري به البولِـيَةَ (٢) وهي الأذن في اكل البيض واكلهم في ايام الصوم هو سائر اليوم، فاذا انتبه النصراني من نومه وقت الضحى او بعده يشرب كأساً او كأسين من الشكلاط مع ما يقدر عليه من البشكتو (٣) وهو خبز معجون بالسكر وصفرة البيض، فاذا انتصف النهار ومرت بعده ساعة يأكلون اكلا ذريعاً، فمن كان من الاعيان الـــذي لا حرج عليه او اعتذر بمرض يأكـــل من اللحوم ما شاء ومن لـــم يكن من الاعيان او نوى الصوم في عزمه يأكـــل لحم الحوت والبيض وغيره ويشرب من الخمر ما شاء صرفاً او

---

(١) وفي مخطوطة مدريد: فبريير.

(٢) البولِـية (البولا) (La Bola) التفسيح: الاذن الكنائسي الذي يسمح لحامله الأكل في الاصوام المفروضة لعذر يقدّمه

(٣) وفي مخطوطة مدريد: البشكوتشوا

(3) Bizcocho

ممزجاً ومتى عطش يشرب على اختياره حتى اذا انتصف الليل يأكل مـن الطعام ما خف قـدر نصف رطـل في زعمه ويبيت الى الغد، وحين انتباهه من نومه يشرب على العادة وهكذا سائر ايام الصوم، الآن الفارابلية لهم أذن في الأكل ايام الصوم قبل انتصاف النهار بنصف ساعة وعذرهم في ذلك انهم يبيتون مـن الليل في تعب التهجّد والعبادة في زعمهم، وغير الفارابلية لا يأكـل الاّ بعد انتصاف النهار.

ولهم في ايام الصوم يوم زائـد على يوم الاحـد في استماع الكفر والدخول الى الكنائس (وهو يوم الجمعة) رجالاً ونساء، وعندهم من القربات ان يمشي الانسان ذلك اليوم راجـلاً فينزل من على فرسه ومن كدشه ويتمشى ساعـة ومتى عطش شرب، يستمرّون على صومهم على الوصف المذكور الى ان تمرّ ثمان وثلاثون يوماً، فتدخل عندهم الاعياد التي جمعوهـا في هذا الصوم حسبما يزعمون وقوع ذلك للمسيـح في اعتقادهم، فاذا كان اليوم التاسع والثلاثون كان عندهم عيد الشعانين.

عيـد الشعـانين

وعيد الشعانين هو يوم دخول المسيح بيت المقدس على مـا في انجيلهم المتداول بينهم، وان المسيح لما دخل بيت المقدس في ذلك اليوم خرج جميع بني اسرائيل لملاقاته وقد فرشوا الطرق والسكك بالجريد وورق الاشجار: وفيه كـان بنو اسرائيـل يتطلبون عليه شهادة ليمسكوه ويقتلوه فآمن به في ذلك اليوم جمعٌ كثيرٌ على مـا هو مذكور في انجيلهم فلم يمكنهم امساكه ولا الانكار عليه في ذلك اليوم لكثرة من آمن بـه. فاعدّ النصارى ذلـك اليوم عيداً يجتمعون فيـه الى الكنيسة ويخطبون ويذكرون شأنه وما وقع له ويخرجون الصليب ويطوفونه في الازقّـة وفي يد كل واحد من الحاضرين جريدة من النخل اوعود من عيدان (١) الزيتون او غيره من الاشجـار الرطبة الليّنة كالرند وما اشبهه، ويردّونه الى موضعه.

---

(١) وفي مخطوطة مدريد: من اعواد

ولقد رأيتُ الطاغية ذلك اليوم وقد دخل كنيسةً في داره وسمع بها من الكفر والعياذ بالله ما القاه عليه وعلى الحاضريـن القسّيس قيّم الكنيسة، وخرج بعد ذلك هو وجمع القسوس والرهبان السوبيسبو (١) ومعناه المفتي والنوسي (٢) الـذي هو خليفة البابا وقـد البسوا الرهبان ثياباً فاخرة من الحلل المرصعة وفي يد كل واحدٍ منهم جريدة من نخل وقد حملوا صليباً من فضة اما مهم وعلى الصليب صورة مغطاة بكسوة من حرير وبين ايديهم جماعة من الفاراليلية الصغار الذين يحسنون الغناء ومعهم آلـة الطرب من الموسيقة وشبهها وفي يد الفاراليلية ورقات يقرؤونها بالحانهم، وخلف هؤلاء الفاراليلية اكابرهم وخلفهم الاعيان من خواص الطاغية وهو خلفهم وفي يده جريدة من نخل قد غشوها بالازهار، فطافوا به دار الطاغية وردوه الى موضعه بالكنيسة، وكذلك يجعلون في كل كنيسة من كنائسهم، فتلقى ذلك اليوم وبعده جميع النصارى وبيـد كل واحد جريدة من نخل او عود مـن الزيتون او غيره مـن سائر الاشجار.

وفي ذلك اليوم حيث حضر الطاغية عيد الشعانين ولـم تحضر معه زوجته بعث الينا يعتذر عـن عدم خروجها وحضورها لمرض منعها عـن الخروج.

وكان لنا بذلك علم، فاعتذر لنا من ناب عنه في الاعتذار، ومن الغد ايضاً يجتمعون في الكنائس ويخطبون ويذكرون ما وقع للمسيح بعد ما وقع للشعانين مع بني اسرائيل حيث كانوا يتألبون عليه ويتشاورون في قبضه وقتله.

عيـد الفصـح

فاذا كان اليوم الرابع والاربعون كان عيد الفطر من الصوم وهو المسمى بالفصح

---

(١) السوبيسبو: الأرسوبيسبو Arzobispo رئيس الاساقفة

(٢) النوسي: يقصد النونسيو Nuncio: ممثل البابا، القاصد الرسولي

وفي هـذا اليوم (عيـد الفصـح) يجعـل الطاغيـة طعاماً معـد المساكين ويدعوا ثلاثة عشر رجلاً من الفقراء ويخلي لهم بيته ويجلسهم في مراتبهم ويأتي السوبيسبو المفتي والنوسي خليفة البابا ويحضران مع الطاغية في تناوله الطعام للفقراء المذكورين بيده ويتصرف بين ايديهم في تقديم الاواني وتخليفها ورفعها مثل الخديم الذي يناول مخدومه حتى يدفع لكل واحد من الفقراء الثلاثة عشر ثلاثين آنية من الطعام ليس فيها من اللحم شيء لعدم اكلهم اللحم في ايام الصوم، وان كان اليوم يوم فطر من الصـوم فانهم ادخلوه الستة الزائـدة على الاربعين كما قدمناه، وانما يطعمهم الحوت على انواعـه ويكمل عـدد الثلاثين آنيه بانـواع الفواكه الرطبـة واليابسة حتى يطعمهم جميعاً ويناولهم الشراب والخمر، فاذا فرغوا من الطعام جاء رئيس الكنيسة وحبس في يده الطست، والنوسي خليفة البابا الماء، والطاغية يغسل اقدام هـؤلاء الفقراء جميعاً وينشفهم بمناديل معدة لذلك (١) وعند فراغه من تنشيف اقدامهم يقبّل قدم كل واحد منهم ويعطيه كسوة ودراهم وينصرفون بجميع ما دفع لهم وبالطعام الذي فضل باوانيه فتجدهم يبيعون ذلك في الازقـة بزحام لاعتقادهـم في ذلك الطعام بركـة. وكذلك تجعل زوجته وأمه، فكل واحدة منهما تطعم ثلاثة عشر امرأة من الفقراء على وصف طعام الفقراء الذين اطعمهم الطاغية.

وهـذا الغسل في زعمهم على مـا في انجيلهم هـو قربـة وسنّـة فعلهـا المسيح فيما يرونه يوم الفصح، وذلك انّه لما كان يوم الفصح واحبّ المسيح ان يفطر من صومه، قال له تلامذتـه: ايـن تريد ان نعدلك لتأكل؟ فقال لهم: اذهبوا الى الموضـع الفلاني سماهُ لهم، حتى يلقاكـم رجل يحمل جرة ماءٍ فاتبعوه الى الموضع الذي يدخل اليه، وقولوا لرب الدار ان المعلّم يريد ان يأكل الفصح عندك. «فذهبوا

---

(١) يشير الى رتبة خميس الغسل والعشاء السري

ووجدوا الرجل الى مد جرة الماء متبعوهُ الى الموضع الذي وصفه لهم وقالوا لرب الدار: ان المعلم يقول لك اعدّله الفصح ليأكله عندك . فهيّأ ذلك الرجل الفصح، واتى المسيح مع تلامذته وهم ثلاثة عشر رجلاً، فأكل معهم الفصح . ولما فرغ من الاكل قام على قدميه وأخذ منشفة شدّ بها وسطه وجعل يغسل اقدام اصحابه واحداً واحداً، ولما انتهى الى سمعان الصفا قال له: انت تغسل له قدميّ؟، فقال له المسيح: ان الذي اصنعه لست تعرفه الان، ولكنك ستعرفه فيما بعد، فقال له سمعان: لست بغاسل لي قدميّ الى الابد . فقال له المسيح: الحق اقول لك ان لم اغسلهما فليس لك معي نصيب . فقال له حينئذٍ سمعان: ياسيدي لست تغسل لي قدمي فقط بل ويدي ورأسي . فقال له المسيح: فاذا كنتُ انا معلمكم قد غسلتُ ارجلكم فانتم احرى ان يغسل بعضكم اقدام بعض، وانما اعملتُ لكم هذا مثلًا لاني كما صنعتُ بكم تصنعون ايضاً .»

فهذا هو السبب الذي لاجله تُغسل اقدام هؤلاء الفقراء، وكذلك يجعل الاعيان والاكابر من له وجاهة ومال .

وقد زعموا ايضاً ان المسيح لما كان يأكل مع تلامذته الفصح قال لهم: ان احدكم هو الذي يُسلّمني الليلة . فجعل كل واحدٍ منهم يتبرأ ويحلف، وكان بين التلامذة الثلاثة عشر رجل يُسمّى يهوذا الاسخر يوطي زعموا انه كان من التلاميذ ووسوس له الشيطان ان اتفق مع اليهود المتألبين على المسيح وباعه لهم بثلاثين من الفضة واسلمه لهم ليلة قُبض عليه اذ كان في البستان يصلي ليلًا واتى يهوذا هذا مع الحرس الذين اتوا لقبضه .»

ولمّا كان العيد خرج سائر النصارى والقسيسون والرهبان والخصوص منهم والعموم واخرجوا جميع ما عندهم من الصلبان والصور التي يعبدونها وطافوا بها في جميع ازقة المدينة وقد حملوا من الشموع الموقدة نهاراً ما لاعد له ولا

يقدر احد يترفع عن حمل الشموع والمشي امام الصلبان والصور ويقصدون بذلك من كنيسة الى اخرى مظهرين مع ذلك حزناً وترحاً . وانه في زعمهم كذلك فعل بالمصلوب فيمرون بصورة المسيح في بستان يصلي وقد نزل عليه صورة ملاك في يده كأس المنية وهو يتلقاها بيده، ثم يمرّون بصورة اخرى ومعها من الحرس طائفة زاعمين انهم كذلك تألبوا على المسيح، ثم يمرّون بالصورة وقد حمل صليبه على كتفه، ثم يمرون به مصلوباً، ثم يمرون به بعد ذلك في نعش محمولاً بعد ان نزل من الصليب .

فمن النصارى من يمثل نفسه بذلك المصلوب فيغطي وجهه زاعماً انه يختفي ولا يعرف الا ان خلفه خديم له او صاحب يحفظه لئلا يلحقه غشيان من كثرة الجلد الذي يجلد ظهره فتجد الدم منحدراً على رجليه . وبعضهم يصلب نفسه وجسده فيربط يده ورأسه على عمود من حديد ويمر كذلك في الازقة ايام البرستسيون (١) وقد غطى وجهه لئلا يعرف . ومن الغد ايضاً يخرجون بصورة المصلوب وقد صلب، ويمرّون بعد ذلك به وقد انزل من الصليب، ثم يمرّون به وقد دفن في القبر ويقرؤون مع ذلك الحاناً محزنة فيدخلون الكنيسة ويخفونه ويطفون المصابيح والشموع ويعلقون على الكنيسة ثياباً سوداً ويغلقون ابواب الكنائس، ولا يضرب ناقوس ولا يركبون كدشاً ولا فرساً مدة ايام البرستسيون وانما مشيهم في جميع الايام المذكورة على ارجلهم خصوصاً وعموماً وقد ذكروا : ان اكوان اوسطريا اخا هذا الطاغية المتقدم الذكر هو الذي منعهم من الركوب ايام البرستسيون . ومن الغد وهو اليوم الثالث من الفصح عند منتصف النهار يفتحون الكنائس ويشغلون ويوقدون الشموع ويزيلون المعلقات السود ويبدلونها بالوان اخرى ويضربون النواقيس ويفرحون ويطبعون قراطيس صغاراً فيها صوَر زاعمين انهم

---

(١) البرستسيون يريد البروسيسيون Procesión هو الزيّاح (التطواف)

صور الملائكة، ويكتبون بين الصور حروفا بالكلدانية وهي (ألوليّا) (١) ومعناها: افرحوا افرحوا. فحين تضرب النواقيس تتطاير القراطيس منهم ويتلقونها ويتهادونها بينهم فرحين مسرورين في ظنهم بشرى رفعه لاعتقادهم الفاسد: صلب المسيح ودفنه ورفعه من القبر. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً (٢): بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً (٣).

ولقد اغتر هؤلاء الضلال بما هم عليه مصممون من الاعتقاد الفاسد والضلال البين والتنكب عن النهج القويم والمحجة البيضاء، ودلاهم الشيطان بغرور واضلهم عن سواء السبيل، فلقد تصمموا على الكفر ونهج بهم البابا قبّح الله سعيه منهجا جائراً عن الطريق هو ومن تبعه من ابناء جنسه الذين على مذهبه وطريقه مما يسري منهم الى العامة من الداء العضال والمادة التي لا يحسمها الا السيف، فان من عامتهم من اذا تكلم معه ويسمع عن الدين وما عليه المسلمون من النهج المستقيم يصغى الى ذلك ويشكره ويستحسنه ولا يأنف من سماعه كما شاهدناه منهم مراراً.

والمردة من طلبتهم ورهبانهم هم اشد عداوة واكثر قساوة واكبر الاشقياء تصمماً على الكفر والعياذ بالله فلقد لقينا من طلبتهم والفارايلية الذين يدينون بهم جماعة وتكلمنا معهم في امور ما يدعونه من الدعوة في المسيح، تعالى الله عن قولهم، فوجدناهم افسد الناس اعتقاداً واكثرهم تصمماً، ولقد وجدتُ بمدريد راهباً من رهبانهم ورد من البلاد المشرقية يتكلم باللسان العربي (٤) وله خبرة ببعض اديان المشارقة من المسلمين لمخالطته

---

(١) هلّلُويـا

(٢) قرآن كريم: سورة النساء آية ١٥٥

(٣) قرآن كريم: سورة النساء آية ١٥٦ (٤) لم نتوفق الى معرفة اسم هذا الكاهن

معهم وسكناه بين اظهرهم، فتجاولنا في الكلام الى ان قلت له: ما تقول في المسيح؟ فقال: انه من الله، فقلت: «من هذه، ان قلت انه كالبعض من الكل جزأته والباري جلّ شأنه لا يتجزّأ وان قلت انه كالولد من الوالد اوجبت ثانياً من الاولاد وثالثاً ورابعاً الى مالا نهاية له وان قلت على سبيل الاستحالة اوجبت فساداً والباري جلّ شأنه لا يستحيل ولا ينتقل من حال الى حال، فلم يبقَ الا ان يكون على سبيل الخلق من الخالق وهو الحق الذي لاشك فيه» فصمم الكافر اخزاه الله على ما عليه اعتقادهم واعتقاد البابا دمرهم الله من اعتقادهم الاستحالة، تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً.

وهنا مقطع من فصل مؤلف من ثلاث صفحات أُثْبِتَ في مخطوطة مدريد وكُتِب على الهواش في مخطوطة تطوان: «فقد وصف فيه المؤلف بصورة مشوّهة ارتداد (شاوول) بولس الرسول وتكلم عن اعمال الرسل الانجيليين، وتعرّض الى سر تجد السيد المسيح والى سلطة البابا الروحية ومايسنّه من الشرائع والاحكام، وذكر بعض مناظراته مع الرهبان في مدريد وتكلم عن طريقة الرهبان والكهنة في استعمالهم سر الاعتراف واورد بعض اخبار ملفقة لا فائدة من ذكرها، وختم كلامه في هذا الفصل قائلاً: فمع ذلك:»

فان فيهم رجالاً حسنة اخلاقهم يودّ لهم الانسان ان لو كانوا على طريق مستقيم (نسال الله العافية) كما شاهدته في الكنيسة الكبيرة المسماة بالاسكوريال رجل كبير السن حسن السمعة والاخلاق يظهر من البشاشة والبشر وحسن الملاقات مالا يعبر عنه وهو رجل كان كبير تلك الكنيسة واليه مرجع كلامها وامرها واحكامها واحكام المداشر التي حوالي الكنيسة والقرى المحسوبة عليها والمضافة اليها فترك تلك الرياسة وزعم انه رغب عن الدنيا وزهد فيها وودّع الكبيرة وحبها واسند ذلك الى تلميذ له يدعى دون ألونصو، وكان هذا الفرايلي القائم اليوم على الاسكوريال يظهر من

البشر والسرور وحسن الخطاب والملاقات شيئاً كثيراً، ولم يزل يتعاهدنا بعد المعرفة مدة مقامنا بمدريد بالزيارة حين يقدم على الطاغية بمنزلة كبيرة، وكانت ترد علينا رسائله من الاسكوريال.

الاسكوريال

وهذا الاسكوريال هو عبارة عن الكنيسة المتقدم ذكر سبب بنائها في عهد بانيها فليبِ سكونـدُو اذ كان حاصر مدينة مـن مدن الفرنسيس ونصب عليها المدافـع والبونبات، وكانت قبالة المدافع كنيسة لراهب يسمى لرنصوالريال فنذر ان يبني كنيسة اعظم منها فهدمها واصاب المدينة، وحين رجع بنى الكنيسة التي نذر بناءها في سفح الجبل الفاصل بين قشتالة الجديدة وقشتالة القديمة وهـي على احد وعشرين ميلاً من مدينة مدريد، وبناء هذه الكنيسة وما اشتملت عليه من دار الطاغية وتوابعها كله من الحجارة الصلبـة الشبيهة بالرخام منقولـة مـن الجبل المطل على الكنيسة وهي حجارة كبيرة هائلة جداً.

زعموا انهم جعلوا ساعة البنيان قنطرة كبيرة متصلة من موضع الكنيسة الى رأس الجبل وكلها مـن خشب لتسحب القراريط الحاملة الحجارة على هذه القنطرة المذكورة وتوضع الحجارة في موضعها من غير تكلف لحمل الحجارة ليكون ذلك بسهولة، والآن هذه الحجارة هائلة جداً ولـم يكن لهذه القنطرة المذكورة بقاء اثر يـدل عليها الا انهم ذكروا انها كانت كلها مـن خشب فلا يمكن بقاؤها وهذا الجبل المذكور هو في غاية العلو والارتفاع وقدر ما بين الكنيسة ورأس الجبل في صعود ما يقرب من مسافة. وهذا الاسكوريال هو في غاية الضخامة والعلو وارتفاع السمك في الجو، وله من الناحية الغربية ثلاث ابواب: فالباب الوسط هو باب الكنيسة وما اشتملت عليه وفوق الباب

صورة من حجارة زعموا انها صورة الراهب أرينْصو الرْيال الذي بُنيت الكنيسة باسمه، والباب الذي عن يمينها ويسارها: هما بابان لدارين كبيرتين لقراءة الطلبة الصغار من الفرايلية الذيــن يتعلمون ويقرؤون علومهم وقراءاتهم، ولكل طائفة منهم علامة من ملف ازرق واحمر على كتفه على قدر ما بلغ اليه عامه مــن فنونهم.

واول قراءاتهم الفلسفة وما في معناها، وفي هاتين الدارين من المتعلمين عدد كثير يقصدون التعليم من جميع نواحي مدريد وغيرها الآ ان الموضع المصدر عندهم لتعليم وكماله بزعمهم هي مدينة اخرى يسمونها صالامنكة (١) على ثلاثة اميال (٢) من مدينــة مدريد فان من المعروف عندهم ان من لم يكمل علومه وقراءاتــه ويحصّل دراية ذلك بمدينة صالامنكة فلا يعد عندهم بمحصل.

وجــل قراءتهم في حــال الصغر ما يلقونــه عليهم معلموهم من الكفريســات حتى يتدرّبوا على ذلك ويكون نصب اعينهم، ومن بعد ذلك يتعلمون الحساب وبعده الهندسة بلسان اللاتين، واللاتين(٣) عندهم هو بمثابة علم النحو عند العرب فلم يفهمه جميــع النصارى ممن لم يحصله في حال صغره، فتجد صغار النصارى يقصد بهم اباؤهم المواضع المعدة للقراءة مثل الاسكوريال وصالامنكة وما اشبههما.

والباب الكبير الوسط الذي يدخــل الى الكنيسة هو باب كبير هائل جداً به من النقوش والصنائع شيء كثير، ويقابل الداخل من الباب صحن كبير متسع وعلى الصحن سواري كبار جداً وعلى كل سارية منها صورة كبيرة من حجارة، واقد لبست

(1) Salamanca

(٢) هكذا في الاصل وهذا خطأ، فأن ما بين مدريد وصلامنكة مــا يقرب من مئة واربعين كيلو متراً

(٣) وفي مخطوطة مدريد: اللاطِن.

الصور كساوي من جنس الصورة، زعموا ان جميع هذه الصور من حجارة واحدة وعدد التصاوير خمس، زعموا انهم ملوك ملكوا بني اسرائيل، ومكتوب على الصورة الاولى: هذا داود النبي. وعلى رأسه تاج من نحاس مموّه بالذهب زينته خمسة ارباع وفي يده الآلة التي احدثها ويزعمون انها هي التي كان يقرأ بها الزبور ويسمونه الآربة (١) وهذه الاربة هي آلة كبيرة من خشب تقرب من قدر قامة الانسان ولها من الاوثار نحو الستة واربعين وهي حسنة النغم لمن يحسن جسها ونقرها.

وهذه الاجناس من النصارى يستعملونها كثيراً ويعلمونها نساءهم واولادهم وبناتهم فقلما تجد داراً الا وجميع اهلها يحسنون نقر الأربة ينقرونها اكراماً لمن يدخل عندهم واكثر من يستعلها بنات الاكابر والاعيان وابناؤهم وكذلك يستعملونها في كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرياتهم، وهي اكثر ما يستعملونها من ضرب آلات الطرب، واما الآلة المسماة عندنا بالعود فلا معرفة لهم بها وانما يعرفون آلة اخرى تقرب منها الانكيطارة (٢) وهي اصغر من العود بقليل واوتارها تزيد على اوتار العود بوترين والأربَة هي احسن شكلًا من سائر انواع الطرب، وعلى يمين الصورة المكتوب عليها اسم داود النبي صورة اخرى مكتوب عليها: هذا سليمان بن داود، عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام. وعلى رأسه تاج من نحاس مُموّه بالذهب فيه خمسة ارباع وبيده عصا من نحاس مموّهة بالذهب ايضاً زنتها ثلاثة ارباع وعلى يمينه ثلاث صور اخرى مثل هذه الصورة ومكتوب على كل واحدة اسم ملك من الملوك العظام الذين ملكوا لذلك العهد. وبداخل الصحن بلاط كبير متسع، بطرفه من الناحية اليمنى مدارس كبيرة لسكنى طلبتهم والفرايلية، وعدد المدارس اربعة عشر مدرسة كل واحدة من العدد المذكور مشتملة على بيوت

---

(١) أَرْبَه: Harpe, Arpa, آلة طرب شبيهة بالقانون

(٢) الانكطارة (الكيطارّه La guitarra)

عديدة وغرف من فوقها، وفي كل واحدة من المدارس المذكورة سقاية ماء وخضر وخصة كبيرة وسواري عديدة نحو العشريــن سارية، وكل مدرسة تدخل الى اخرى وعن يسار الداخل من الصحن الى الكنيسة فيما يقابل باب المدارس باب يدخل منه الى دار الطاغية، وهي دار كبيرة مبنية كلها مع جدرانها وسقفها من حجارة الكنيسة وعلى صفة بنائها من الضخامة وارتفاع السمك وعلوه على قدر الكنيسة .

ولهذه الدار ثلاثة ابواب واحد من داخـل الكنيسة والآخر من خارج الكنيسة والثالث من داخل البستان المجاور الكنيسة . ومـن عادة الطاغية ان يسكن في تلك الدار شهراً واحداً في زمـن المصيف لبرودة ذلك الموضع من كونه في سفح الجبل، والكنيسة بنفسها هي كنيسة كبيرة ذات سواري وبلاطات، ويقابـل الداخـل اليها صورة المصلوب التي يتعبدون بها وهي من فضة مموهة بالذهب .

وبوسط الكنيسة قبة عالية السمك والجو وهي في غايـة الاتقان والصناعة مرتفعة على اربع سواري عظام، سعة كل ربـع من ارباع السارية نحو الاثنى عشر ذراعاً وفي كل ربع منها مجلس مفروش بالحرير والديباج يقعد عليه الفرايلي ساعة تعبده وصلاته .

وفي داخل هذه الكنيسة من القناديل الفضية والذهبية والنحاسية المموهة بالذهب عدد كثير، وبداخل هذه الكنيسة مـن انواع الجواهر والذخائر والنفائس الموقوفة، مالا قيمة له، وباعلى هذه الكنيسة موضع صلواتهم التي يقرؤون فيها الالحان ويسمونه الميسة وبها آلة الموسيقى التي يسمونها اوركانُ (١) وهي آلة كبيرة ذات قنانيط وجعاب كبار من رصاص مموهـة تسمع اصوات عجيبة وقراءتهم في هذه المواضع واشباهها بهذه الآلة يزعمون انه زبور داود عليه السلام والتوراة المنزلـة على موسى عليه وعلى نبيّنا الصلاة

---

(١) الأُرْكانُ : الارغن

(1) Órgano

والسلام وتدينهم بالتوراة في زعمهم هي العشر كلمات (١) التي هم مشتركون فيها مع اليهود ويزعمون المحافظة عليها، وهي: النهي عـــن القتل والسرقـــة والزنى والدماء والاموال الخ.

وفي هذه الكنيسة مـــن القرايلية الكبار الذيـــن يعملون الميسات (٢) والصلوات مائتان ومن غيرهم الصغار عدد كثير، وفي اعلى هذه الكنيسة تسع منارات كبار عالية السمك والجو، وفي كل واحدة منها ماكانات(٣) لمعرفة الساعات، والنواقيس الكبار التي تضرب في الاوقات عدد كثير يسمع لهم صوت على اميال يضرب على نوع من انواع الموسيقى، وعلى يمين الكنيسة خزائن كتبهم وعلومهم واديانهم والذخائر التي هي موقوفة على الكنيسة من عهد بانيها الى هلم جرا بحيث لا يقدر احد على التصرف فيها الا بالزيادة عليها والى هذه الخزانة كانوا نقلوا خزائن كتب المسلمين من قرطبة واشبيلية وغيرهما وزعموا انها احترقت بالنار جميعاً فيما قبل الآن مـــن عشرة اعوام وقـــد رأينا موضع الحرق في تلك الخزائن وقد اثر فيها وفي الكنيسة اثراً كبيراً وما زال الطاغية الى الآن مهتماً بترقيع ما افسدته النار ولولا ما بهذه الكنيسة من سقف الحجارة وعدم الخشب التي تسرع النار باحراقه لاتت على آخرها، ومع ذلك فقد صعدت النار الى رأس منار من منارات الكنيسة وهدمت مـــن اعلى المنار حجارة كبيرة سقطت الى البستان المحيط بالكنيسة وهي حجارة كبيرة يعجز الآن عن رجوعها الى محلها

ويجاور الكنيسة ايضاً من ناحية الشمال موضع لدفن اسلاف هذا الطاغية من عهد والدباني الكنيسة كرلوص كينطو الذي كان ترهب، الى فيلبي كوارطو والد هذا، ومدفنهم

---

(١) الوصايـــا العشر.

(٢) جمع ميسة Misa: وهو القدّاس.

(٣) المَغَنَة والماكُنة: هي الساعة عند عامة المغرب (آلة)

في قبة في غور من الارض ينزل اليها بدرج عديدة من رخام احمر في غاية الاتقان وحسن الصنعة، ومقابرهم هي صناديق من رخام مموهة بالذهب وقد رفع كل صندوق منها بين سارية وعلى كل واحد منها اسم الطاغية المدفون به، وعدد من دفن بذلك الموضع خمس طواغي ونساؤهم، كذلك اذ عادتهم ان لا يدفن بهذه المقبرة الا الطاغية الذي يخلف من يلي الملك بعده، واما من يمت منهم من غير عقب او لم يكن له ميراث الملك فان هؤلاء لهم مدفن آخر غير هذا، وليس هو مثله وهو مجاور له ايضاً وهذه هي عوائدهم في الدفن.

ويدور بجميع هذه الكنيسة جميع ما تحتاجه الكنيسة من الأمور التي يحتاجها السكان والعمار من آلات الاقوات مثل الارحى لطحن اقواتهم وموضع الطبخ ودار الدبغ وغير ذلك من جميع ما يكون بالحواضر، وبها من المخازن والديار المعدة للمعاجين الطبية والادهان والأشربة والمياه شيء كثير ويدور بجميع ذلك بستان كبير مشتمل على جداول وانهار واشجار بشكل عجيب وهو الى نظر الفرايلية، ويدور بجميع هذه الكنيسة وبستانها موضع مصيد الطاغية وقنصه يحيط به صور من حجارة في غاية الاتساع زعموا انه في دائرته مقدار ثلاثة وثلاثين فرسخاً وعلى مقدار كل مسافتين منها موضع فيه دار وبستان ليتقيل فيه الطاغية حين صيده وقد دخلت البعض منها حين وصولنا الى الاسكوريال اذا استدعانا الطاغية الى رؤيته حيث كان معجباً به.

وهذا الاسكوريال عندهم هو من الأمور التي يعدونها في بلادهم من الأمور الهائلة اذ ليس عندهم كنيسة اخرى على شكلها من بناءاتهم اعظم منها.

واما المساجد الاسلامية فلا ينكرون عظمتها ولا ضخامتها مثل مسجد طليطلة وقرطبة واشبيلية الشهيري الذكر البعيدي الصيت وقد مر ذكر مسجد قرطبة في محله

وسنذكر مسجدي طليطلة واشبيلية (١) في محلهما ان شاء الله اذا كانت رؤيتنا لهما عند رجوعنا من مدينة مدريد حيث كان الطاغية مدة مقامنا عنده يحب تأنيسنا ويريد جلب الخواطر منا بالأمور التي يعلم انها عنده بمكانة من رؤية منتزهاته ومصايده وقنصه وبستانه واعياده وداره وبيوتها وغرفها وخزانـــة عدتـــه وسلاحه وغير ذلك فلم يزل يتعاهدنا ويدعونا الى رؤية ما ذكر واشباهه.

فلقـــد عمل بداره اعيـاداً دعانا الى حضورهـــا في داره الذي يسكن بها ثلاث ليـــال متواليـة وقد اعدّ لنـــا مجلساً في قبة مرتفعة لا يسامتها غيره وجميع الاعيان والاكابر والدوكيس والكنديس (٢) وغيرهم مــن خواصه حضوره ويخرج بعد ذلك هو وأمه وزوجته وبين يديه بنات الاكابر والاعيان وقد حملوا بين يديه من الشموع عدة فاذا وصلوا الى محل جلوسه وقابل المجلس الذي نحن فيه يستقبلنا ويزيل ما على رأسه على هيأة سلامهم ويقعد هو وزوجته عن شماله، وأمه عن شمالها، ويأتي اهل الطرب من نساء ورجال فيعملون ما هو من عوائدهم في طربهم وغنائهم الى ان ينتصف الليل فحين يفرغون ويريدون الانصراف يقوم الطاغية اولاً ويزيل ما على رأسه ايضاً بعد ان يرفع رأسه الى مقعدنا وينصرف كل واحد الى مقره وموضعه، وكان يسأل بعد ذلك من كان يتصرف بين ايدينا من خدامه ويبحث عــن حال انشراحنا ولا يريد ان يغيب عنه شيء من امورنا، وسؤاله عنا كل يوم.

ومن جملة منتزهاته ومتصيداته التي يقصدها كل عام في شهر ابريل فيقيم بها قريباً

---

(١) لم يقم الوزير بوعده، فقد ذكر مسجد طليطلة ولم يذكر مسجد اشبيلية الذي وعد بوصفه في محله

(٢) الدوكيس والكنديس: جمع دوكي وكندى بالاسبانية Condes, Duques

من شهر هو وعياله والخصوص من خواص اصحابه وخدامه موضع يسمى ارانخويس،(١) وحين انصرف اليه في هذه السنة على عادته وكان عمل امر ما نحن بصدده بيد وزيره ورأس ديوانـه الكرديناال، فكنا نتكلم معـه ونحثه على سفرنا ونستعجله ونعزمه، وكان الطاغية يريد وفودنا عليه حيث هو في ارانخويس قاصداً بذلك تفرّجنا ورؤيتنا اذ هو عنده من احسن متنزهاته فوجه الينا يوماً رئيس كتّاب الديوان يقول ان طاغيته يريد منكم الوصول اليه حيث هـو لتشرحوا خواطركم بما هنالك من البساتين والصيد، فاجبناه عن ذلك بتشوقنا الى سفرنا ولم يبقَ لنا أرب في متفرج ولا متنزه لبطئنا عـن الرجوع الى بلادنا ومرادنا هو التشييع اذ فيه جلّ مرامنا ومنتهى قصدنا، فانصرف عنا وكتب اليه بجوابنا اليه. فبعد يومين رجـع الينا بأمر عظيمه يقول له فيه وصولنا اليه حيث هو لقصد التنزه والتشييع حيث صحبنا من القلق ما انهاه اليه هو وغيره من خدامه الموكلين بنا وقد امر الكوندي الموكـل بنا مع الترجمان الحلبي النصراني بمصاحبتنا الى حيث هو اذ لا يمكن احد الوصول حيث هو من غير اذن ولا مشورة.

فانصرفنا ضحوة اليوم الذي خرجنا من مدينة مدريد وسرنا تسعة اميال دخلنا فيها ثلاث قرى الاولى على مسافة من المدينة تسمى بيردي بلسانهم ومعناها الخضراء لما اشتملت عليه من الغروس والبساتين وهي قرية صغيرة قريبة من الحضارة. وبعدها بمسافة اخرى قرية تسمى البنطة وهي اكبر من الاولى. وبعدها قرية تسمى بلد المورو وهي اكبر من القريتين المذكورتين فوجدنا بها داراً معدة للنزول فنزلنا فيها الى ان اجتاز الحر وركبنا عشية اليوم فسرنا تسعة اميال اخرى واشرفنا على المنزه المسمى ارانخويس الذي قصدنا اليه فلقينا بالقرب منه خيل بعثها الطاغية للملاقات والسلام علينا وقالوا انه ظـن قدومكم

(1) Aranjuez

عليه وسط النهار وقد اعدّ لكم فرجةً ترونها عند وصولكم، وحيث ابطأ عنه خبركم بعث من يتلقاكم.

فكان وصولنا قرب الليل ولم يكن معنا شيء دون المبيت فانزلونا داراً مشرفة على جميع ذلك المنتزه تنتسب لوزيره الكردينال، وبتنا بها تلك الليلة بعد ان اتانا من خدامه من رحّب وسلّم وناب عنه في البشر وحسن الترحيب.

*
* *

ومن الغد بعث الينا، فدخلنا بستاناً له هنالك، وقد حفّ به واديان كبيران ومجمعها يسمّى وادي طاخوا وهو المار بمدينة طليطلة من هذا الموضع بعد مروره بنحو مسيرة يوم. وهذا البستان هو غاية في جداوله واتساقه ونظم اشجاره وقد اشتمل على ازهار وانوار ودوالي وصهاريج وبرك مياهٍ على كل صف وبه مقاعد في غاية الاتقان والحسن مطلة على الوادي من كلا الجانبين، ومن هذا البستان دخلنا على الطاغية في دار له بعد ان بعث لملاقاتنا جماعة من خواصه وحين دخلنا عليه وجدناه قائماً على قدميه وعن شماله زوجته ومعها جماعة من بنات الاعيان وعن يمينه وزيره وبين يديه خواصه وخدامه، فسلمنا عليه بسلامنا المعتاد من قول: السلام على من اتبع الهدى، ورحّب وسلّم على عادته ووجدنا بيده براءة كتبها لسيدنا المنصور بالله فقبلها ودفعها الينا بعد ان استخبرنا عن احوالنا وعن القلق الذي بلغه عنا فاظهرنا له من العذر مافهم منا من كوننا لم يمكننا البطء عن سيدنا نصره الله، فقال: حيث اظهرتم العذر لا نلزمكم مقاما بعد ان احببتم الانصراف ونوبوا عنا في السلام اللائق بالمقام الشريف ونحن نرجوا الخير في الاسارى الذي عنده، وكل ما يعرض لمقامه العالي(١) عندنا نقضوه حباً وكرامة اجلالاً لمنصبه

(١) وفي مخطوطة مدريد: العلي

وسأل الترجمان هل لهم غرض نسرع لقضائه؟ فاظهرنا من الإعراض عن ذلك ما هو لائق بالمنصب الاسلامي والحمد لله .

وانصرفنا من عنده بعد ان شيّعنا ودفع لنا الكتاب الذي كتبه لمقام سيدنا المنصور بالله وبعد ذلك الحقنا بعض خواصه يستفهمنا هل لنا غرض بالمقام بذلك المنتزه اياماً بقصد الاصطياد والتنزه، فاجبناه بتطاير قلوبنا الى وطننا وان لا تمكننا الاقامة بعد ذلك اليوم ساعة وكان هو يريد الرجوع الى مدريد من الغد فبعث الينا عشية ذلك اليوم ومن صبيحة الغد القيمين على ذلك الموضع وعلى القنص وخرجنا معهم الى القنص فاذا فيه من الايل والقنين شيء كثير فساعفناه في ذلك لغرضه، ومن الغد رجعنا الى مدينة مدريد بقصد التأهب للسفر والاستعداد .

*
* *

الخروج من مدريد — الرجوع الى المغرب

وكان خروجنا من مدريد في اليوم الاول من رمضان المبارك من عامنا هذا، (١) وقد امر الطاغية من اصحب معنا من خدامه بمرورنا على مدينة طليطلة لنشاهد مسجدها الجامع الذي هو من عجائب الدنيا في بناء وذكره وبعد صيته فبتنا يوم خروجنا من مدريد بقرية يقال لها وشقة (٢) وكانت من حواضر العدوة التي لها ذكر ودار علم ونباهة، وهي اليوم قرية متبدية وبها من اثر البناء القديم الاسلامي بعض اثر مثل الباب الذي

(١) عام ١١٠٢ هـ

(٢) وشقة (ويسكا Illescas)

كان يدخل اليها منه حين كانت في عهد عمارها من اهل الاسلام مدينة، واما اليوم فالتبدي اقرب اليها من التحضر وبينها وبين طليطلة احد وعشرون ميلاً .

طُلَيْطُلَة

وطليطلة هي مدينة كبيرة قاعدة من قواعد مدن العدوة، ودار ملك قديم وهي على ربوة من الارض في حافة مطلة على الوادي المسمى طاخوا، وهو الوادي المار بأرانخويس المتنزه المتقدم الذكر، وقد احاط هذا الوادي بالحافة التي عليها المدينة من ثلاثة ارباعها والربع الموالي البر هو الآتي من طريق مدريد .

واسوار هذه المدينة وحيطانها وازقتها باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين، واثرها اثر الحضارة الآن اكثر ازقتها ضيقة جداً ودورها باقية على حالها من البناء الاسلامي وتفصيله والنقش في السقف والحيطان بالكتابة العربية .

ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا، اذ هو مسجد كبير مبني كله من الحجارة الصلبة القريبة الشبه بالرخام وسقفه مقبوه من الحجارة، وهو في غاية ارتفاع السمك وعلوه في الجو وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة والنقوش، وقد احدث النصارى في هذا المسجد من جوانبه زيادة في الوسط بشبابيك من نحاس اصفر وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم اوركانُ التي يضربون بها وقت صلواتهم مع الكتب التي يقرؤونها في الصلوات شيء كثير، وقد جعلوا امام هذا الشباك صورة المصلوب وهو من ذهب يقابلونها في صلواتهم، وامام المصلوب مصابيح كثيرة من ذهب وفضة توقد ليلاً ونهاراً مع شموع كثيرة كبيرة .

وابواب هذا المسجد في غاية الاتقان والصناعة وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوائدهم التي لا يمكنهم تركها، ومن الزيادة المحدثة في جوانب هذا المسجد بيوت

كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الاموال كثيرة فيهـا من الذخائر والاحجـار الملوّنة مثل الياقوت الاحمر والابيض والاصفر والزمرد والتيجان المرصعة بالدر الفاخر والاحجار النفيسة التي لها بال ولا تقوّم بمال.

ومع هذه الذخائر تـاج كبير من ذهب ومعـه سواران من ذهب زعموا ان ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله، وعن يمين هذه الخزائن خزانة فيها كتاب كبير مكتوب بماء الذهب زعموا انه كتاب التوراة وهو عندهم في غاية الحفظ والصون والاعتنـاء لا يخرج من موضعه الذي به.

وذكروا ان فيليبي كوارطو (الرابع) الذي هو والد هذا الطاغية احبّ اخراجه من هنالك وان يكون عنده بعد ان اعطاهم فيه مدينة كبيرة بخراجها وجميع منافعها، فلم يعطوه فيه كلاماً لتنهم به.

وعـن يمين هذه الخزانة ايضاً خزانة اخرى فيهـا صندوق كبير مرصع مشحون بالحوائج الفاخرة مـن الذهب المرصعة مثل الهوايات والقلائـد والسلاسل والخواتم الثمينة، وعن يمينه صومعة من فضة تزيد على قامة الانسان وداخلها وجامورها من الذهب المرصع بالاحجار النفيسة الملوّنة. وقد عمل هذا المنار على شكل منار مسجد طليطلة وعلى هيئته ومثاله وهو عندهم زينة يخرجونه في اعيادهم مع الصلبان التي يطوّفونها في الازقة على عوائدهم في الابرسِسيون (١) وما اشبهها، وهذا المنار الذي بهذا المسجد اعاده الله للاسلام وعمل هذا على شكله هو من اعاجيب البناءات صناعة وعلواً فقد اشتمل على ثلاث مائة درجة منها مائتان الى موضع التأذين ومائة الى رأس الجامور وفي موضع التأذين جعل اعداء الله تعالى مـن النواقيس الكبار تسعة نواقيس كبار جداً دائرة كل ناقوس منها ست وثلاثين شبراً في غلظ حرفه ثلاثة ارباع، الذراع وبناء هذا المنار كله من الحجارة

(١) يريد: البروسيشيون (تقدم شرحه)

الصلبة التي تشبه الرخام مـن جنس الحجارة التي بني المسجد منها نسأل الله تعالى ان يعيده لتوحيده وذكره، وفي حوالي هـذه الخزائن ايضاً من الخزائن المشحونة بالقناديل الذهبية والفضية والصلبان المرصعـة والثياب التي يلبسها الفرايليـة واكابر القسوس والشمامس والرهبان التي طرزت بالجوهر النفيس شيء كثير، وهؤلاء الرهبان الذيـن في هذه الكنيسة هم جميعاً الى نظر الكردينال الذي هو اليوم اكبر كردينال عند المسيحيّة وهو الذي تحت البابا كما تقدم التنبيه عليه وعلى البابا، وحيث كانت طليطلة هي من قواعد مدن اسبانيا ودار ملك قديم كان الكردينال الذي يتولى امر كنيستها هو اكبر سائر من يلقب بالكردينال عند عبدة الصليب، وهـذا الكردينال الموجود اليوم هو رأس ديوان اسبانيا واليه ينتهي جميع امرهـم في دينهم المنكب وفي امر دنياهم ومشورتهم واحكامهم كلها اليه، وكلامه هو مع الطاغية وعن رأيـه يصدر كتاب الديوان جميعاً .

وفي طليطلة اثر القصبة التي كان يسكنها الملوك قبل هذا وقد احدث مـن سكنها بعد التغلب الاخير عليها، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

*
* *

وقاعدة طليطلة هي كانت دار ملوك العجم من الاول هي واشبيلية واليها كان قصد طارق رحمه الله بوجهته حين دخل العدوة بعد مروره بقرطبة ولم يعرّج على غيرها حتى انتهى اليها ووجد بها من الآثار التي تدل على مكانتها من الخزائن والاموال ما لا حصر له، ومن جملة ذلك المائدة المشهورة، الآ ان بعض اهل التاريخ يزعم ان المائدة لم تكن بمدينة طليطلة وانهـا كانت بموضع آخر قريب من طليطلة يسمّى وادي الحجارة وان طارقـاً رحمه الله لما فتح طليطلة خرج الى الموضع المعروف بوادي الحجارة

قرب الفج الذي كان يُنسب اليه خلف الجبل حتى بلغ مدينة المائدة وسُميت بذلك لوجودها بها وهي المنسوبة الى سليمان بن داود عليهما السلام. وقيل انها كانت من زبرجدة خضراء حافاتها منها وارجلها وانها كان لها ثلاث مائة وخمس وستون رجلًا والله اعلم، وقيل فيها انها كانت من ذهب مرصعة وهو الاقرب، قال:

فلما تيقن طارق ان موسى بن نُصير لاحق به وانه سيسمع خبرها ويطلبه عنها قلع رجلًا من ارجلها ليستظهر به عند امير المؤمنين الوليد اذا ادّعى موسى انه فتح البلد واصاب المائدة.

ثم انصرف من مدينة المائدة الى طليطلة وقيل انه ادرب في وجهته هذه من طليطلة واقتحم ارض جليقية (١) وبلغ الى مدينة استرقة (٢) ثم انصرف الى طليطلة وذلك في سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فلم يزل بها حتى وافاه موسى بن نصير مولاه.

ودخول موسى الى العُدوة كان في سنة ثلاث وتسعين، ودخل معه ثمانية عشر الفًا من قريش والعرب ووجوه الناس فطلب دليلًا من العجم يدل به الى المدن التي لم يفتحها طارق ووعده على ذلك بالهباء والجزاء فدل به الى قلعة زعواق من عمل اشبيلية فبدأ بها، وكان طارق لم يعرج عليها ثم صار منها الى لبلة (٣) ثم الى باجة (٤) ثم الى اكشونبة (٥) على سيف البحر فافتتحها اجمع سلمًا ثم خرج من ذلك القطر على الفج المنسوب اليه من حوز القنت فانقطع اليه اهل ذلك الموضع فاقرهم على حالهم فسموا موالي موسى، ثم سار حتى انتهى الى طليطلة.

---

(١) جليقية (1) Galicia

(٢) استرقة (2) Astorga

(٣) لبلة (3) Niebla

(٤) باجة (4) Béjar

(٥) اكشونبة (اكشبونة) (5) Ocsonoba

فلما بلغ وادي المعرض اعترض جيوشه، فسمى الوادي بذلك فعرف من معه، فلما قرب من طليطلة خرج اليه طارق بــن زياد ونزل بين يديه اعظاماً له فغضّ موسى منه علانية واظهر ما بنفسه عليه وقنعه السوط ووبخه على استبداده عليه وانما كان امره ان لا يمعن، فاعتذر طارق اليه وخضع له وقال انما انا مولاك وقائد من قوادك ما فتحته واصبته فانما هو منسوب اليك واستلطفه حتى رضي عنه واحضره المائدة التي كان اصابها في المغانم، وقيل انها كانت مــن ذهب منظومة بالدر والياقوت والزمرد وهي التي يزعم الناس انها مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام، ولم تكن كذلك فاتاه بها ناقصة الرجل وكان قد اختلعها طارق، فسأله موسى عنها فقال له هكذا اصبتها واحضره ما صار عنده من الخمس وكان عظيماً فزاد رضاه عنه وامره بالتمادي والمضي الى الثغر.

وبقي موسى بطليطلة حتى ضحى بها سنة دخوله، وقال عبد الملك بن حبيب يرفعه الى علي بن رباح التابعي الداخل مع موسى وكان من خيار التابعين: انه لما اتصل بموسى ان طارقاً فتح ما فتح مــن بلاد الاندلس حسده وعزّ ذلك عليه وغضب عليه فعبر حتى تجاوز قرطبة التي كانت اكبر قواعد ملوك العجم واشهرها مــع قربها من الساحل، وكان خروجه مــن افريقية في رجب سنة ثلاث وتسعين، فعبر الى الاندلس في شهر رمضان منها، فقيل ان عبوره كان من مدينة تونس وقيل من جبل القردة المعروف بجبل موسى من قرب سبتة.

*
* *

فلما التقى موسى بطارق عتب عليه ثم ترضاه فرضي عنه ووجد عنده من السبي والذهب والفضة والجوهر ما لــم يفتح مثله على المسلمين في غزوة قط، قال ولقد كان الرجلان من الداخلين مــع طارق رحمه الله يجدان الطنفسة منسوجــة بقضبان الذهب والفضة

منظومة بالجوهر والياقوت والزمرد فلا يستطيعان حملها ولا يتفقان عليها فيأتيان بالفأس فيضربان وسطها حتى ينقطع ويأخذ كل واحد منهما شقاً منها على غير مبالغة ولا تحقيق في قسمها والناس مشتغلون في كل جهة بمثل ذلك.

وقال عبد الملك بن حبيب عن الليث بن سعد: ان انساناً جاء الى موسى لما وصل الى ناحية طليطلة فقال لـه ابعث معي ادلكَ على كنز، فبعث معه رجالاً فوقف بهم على موضع وقال لهم اكشفوا هاهنا فظهروا على كنز كبير مترع بالجوهر والياقوت والزمرد والزبرجد، فحين رأوه بهتوا وارسلوا الى موسى ليحضر.

وقال عبد الملك بن حبيب ايضاً كان ورود موسى بن نصير اولاً الى افريقية اذ عقد له عليها عبد الملك بن مروان قبل توصيله الى الاندلس في البربر وكان اصاب فيهم سبياً عظيماً بعث الى عبد الملك بخمسه منهم فكان ذلك عشرين الفاً، ثم غزاهم غزوة ثانية فحصل منهم في خمس امير المؤمنين عشريـن الفاً ايضاً فاعجب عبد الملك بذلك، فكان يكتب اليه يؤكـد عليه في ذلك وفي موالاة غزوهم وفتح ما وراءهم حتى فتح الله عليهم الاندلس في ايام امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك.

قال الرازي: قال عبد الملك بـن حبيب: دخـل الاندلس مـع الامير موسى بـن نُصير رجل واحد من اصاغر الصحابة رضي الله عنهم وهو: المنيذر الافريقي لم ينسب باكثره مـن الافريقي اذ كان يسكن افريقية، وروى عنه ابو عبد الرحمان الحلبي قال: حدّثني المنيذر وكان صاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قال رضيت بالله ربّاً وبالاسلام ديناً وبمحمد نبياً فانا زعيم له فلاخذنّ بيده فلادخلنّه الجنّة.

*
* *

والذي دخـل الاندلس مـن التابعين على اختلاف الرواية: موسى بـن نُصير

البكري وعلي بن رباح اللخمي وحيوة بن رجاء التميمي وابو عبد الرحمان عبد الله بن زياد الانصاري الحابي وحنش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة السبائي وهو الصنعاني نسبة الى صنعاء الشام ويكنى ابا رشدين وكان من خيار التابعين، وكان مع علي بن ابي طالب رضي الله عنه بالكوفة وتوفي بسرقسطة ودفن عند باب اليهود بقربى المدينة، وكان قبره معروفاً عندهم مشهوراً.

وقفل سائر التابعين بقفول موسى بن نُصير وبعده، وهؤلاء المسمون لا اختلاف في دخولهم مع موسى ومشاهدتهم معه المغانم والمقاسم في السبي والمتاع والارضين والرباع، وخروج بعضهم معه وبعده والمختلف في دخوله منهم مع موسى حيوة بن رجاء التميمي في اقل الروايات، وابو سعيد الصدفي (١) اكثر الروايات، وروى عن عمرو بن العاص فاختلفت الروايات في التابعين الداخلين فمنهم من قال انهم اربعة وهو الذي لا اختلاف فيه ومنهم من قال خمسة بالصدفي المختلف فيه.

قال محمد بن مرين: وجدتُ في خزانة باشبيلية سنة احدى وسبعين واربع مائة، ايام الراضي بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات ذكر فيه دخول الامير موسى بن نُصير وكم راية دخلت الاندلس معه من قريش والعرب فعدها نيفاً وعشرين راية منها رايتان لموسى بن نصير عقد له احدهما الامير عبد الملك بن مروان على افريقية وما وراءها، والاخرى عقدها له امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على افريقية ايضاً وما يفتحه وراءها الى المغرب وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية.

وقال فيه ان موسى بن نصير اجاز بمن معه من العرب من جبل القردة وهو الموضع

---

(١) في بعض النسخ: الصدفي

المعروف اليوم بمرسى موسى الى جهة الخضراء يرومون التوغل في الاندلس فاقاموا فيها اياماً مريحين ومصلحين مـــن شأنهم، وحين عزم على الحركة منها جمع حوله رايات الاعراب ووجوه الكتائب وتفاوضـوا في الرأي وكيف يكون دخولهم فاتفق رأيهم على المشي الى اشبلية وان يبدوا بغزوٍ ما بقي من غربها الى اقصى سائر البحر اكشبونة وافتتاحه، فقيل ان اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان في الموضع الذي كان مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء وانه باجتماع الرايات في ذالك اليوم سمي وبها سمى الرازي كتابه، وقال ان موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى امر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً، قال محمد فمشوا على رأيهم وفتحوا غرب الاندلس الى اقصى اكشبونة .

وحين تمّ افتتاح المسلمين قسمها موسى بـــن نُصير البكري التابعي بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغانمها واخرج من ارضها ورباعها الخمس، كما اخرجه مـــن سبيها ومتاعها واختار مـــن خيار السبي وصغاره ماية الف وحملهم الى امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وترك سائر الخمس من كبل والسبي ووخش الرقيق في الخمس من الارضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين وهم اهل البسائط وكانوا يعرفون الاخماس واولادهم بنو الاخمس .

قال: واما سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فاقرهم موسى بن نُصير على اموالهم ودينهم باداء الجزية وهم الذين بقوا على مـــا حيز من اموالهم بارض الشمال لانهم صالحوا على جزء منها مـــع اداء الجزيـــة في ارض الثمرة وارض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وارضيهم، قال: فلم يبقَ بالاندلس بلدة دخلها المسلمون باسيافهم واصبحت ملكاً لهم الاّ قسم موسى بن نصير بينهم اراضيها الا ثلاثة بلاد وهي شنترين وقلنبرية في الغرب

وشية في الشرق وسائر البلاد خُمّست وقُسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى ابن نُصير وهم حنش الصنعاني والحبلي وابن رباح، ثم توارث اراضي الابناء عن الاباء والذي ذكره الناس والعلماء من ارض(١) وارض العنوة بالاندلس فانما هو مال الخمس هو ارض العنوة وما صولحوا عليه فهو حال الشمل من ارض وشجر لا سائر اموال الناس.

وقال بعض علماء السلف بأمر الاندلس: ان اكثرها انما فتح صلحاً الا الاقل من مواضع معروفة وانه لما هزم لذريق لـم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد الا اذعنوا الى الصلح ولذلك بقي الروم فيها على ارضهم واموالهم يبيعون ويباع منهم، ولما وصل خبر فتحها الى امير المـؤمنين الوليد ووفـد عليه موسى وجماعة مـن المستفتحين الاندلس معه يستأذنونه في اخلائها والرحيل عنها الى اوطانهم فقربهم وآنسهم واقطعهم الاقطاعات فيها واقرهم على(٢) ولم يجعل لهم سبيلاً الى الخروج منها ولا اوسعهم عذراً في اخلائها وردّهم اليها والى جيرانهم بجوابه.

فلما ولي امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة زاد اعتناءه بهـا وانزلها عن عمال افريقية وافرد لها عاملاً، فبعث اليه السمح بن مالك عاملاً فوردها في جند سوى جندها الاوّل فاراد النزول معهم في اموالهم ومشاركتهم فيما بين ايديهم فوفد لهم وفد على امير المؤمنين عمر وشكوا اليه ذلك ورغبوا اليه في الرجوع الى بلادهم واداالتهم بمن ورد معه فمنعهم من ذلك وانسهم وعقد لهم واشهد في عقدهم على اقرارهم في اموالهم واقطع الواردين مع اقطاعات غيرها وقال: هذه الثغور الهندية لولا اقطاعات عمر بـن الخطّاب رضي الله عنه الجند فيها لـم يسدها فكيف بتلك الناحية، فانا نستخير الله في اجلاء المسلمين عنها، ثم انه لم ينفّذ ذلك ليبلغ الكتاب

---

(١) ناقص كلمة في الاصل

(٢) ناقص كلمة في الاصل

اجله، وفي رواية اخرى ان ابن نُصير قسّم وخمّس بعض البلاد واعجلته حركته منها وان سأل امير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك، فلما ولاّها امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني امره ان يخمس ما بقي منها ففعل ذلك واخرج الى جهات من تولاّه وانفذه في كل ناحية، قال: ثم وردت طائفة اخرى من الذين فتحوا الاندلس مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد مولاه على الوليد بن عبد الملك فاقرهم على ما قسم بينهم وسجّل لهم به واقطع من دخل الاندلس بعدهم من الخمس اقطاعات كثيرة وقال عبد الملك بن حبيب: لمّا ولي الاندلس السَّمح بن مالك الخولاني سنة مائة في خلافة امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دخل معه الاندلس جيش من العرب فارادوا النزول مع الاولين والمشاركة معهم في رباعهم واموالهم، فشخصت منهم طائفة الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه واخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الارض بعد اخراج الخمس واقرار الوليد لهم على ذلك واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم فاقرهم امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على ما اقرهم عليه الوليد بن عبد الملك وعلى ما قسمه بينهم موسى بن نُصير وامضى لهم ذلك من امره وسجّل لهم بمثله وكتب لهم الى السمح بن مالك بالوقوف عند عهده وامضاء ما امر لهم به، وانصرفوا الى من تخلفوه مسرورين ومبشرين بما لقوه من فضله وعدله، وكتب الى السمح ان يقطع الجند الذين دخلوا معه من الاخماس، قال غيره من العلماء لم تزل اموال الاخماس بالاندلس معلومة معمورة لبيت مال المسلمين مدة الامراء فيها ثم في دول الأيمة من بني أمية تعمر باسمائهم ايضاً الى ان ثار الرؤساء في كل وجهة وكثرت الفتن فعمرت (١) تلك بطول المدة واختلاف الدول والولاة، والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقال الرازي عن عبد الملك بن حبيب: وفي مستهل سنة اربع وتسعين دخل موسى

---

(١) ينقص كلمة في الاصل

رحمه الله الى بلاد افرنجة فاوغل فيه حتى انتهى الى مفازة كبيرة وارض سهلة ذات، (١) فاصاب فيها صنماً عظيماً قائماً على سارية مكتوب عليها بالنقر كتابة عربية قُرئت فاذا هي: يابنيَّ (٢) انتهيتم فارجعوا، ذلك، وقال ما هذا الا المعنى كبير وانصرف بالناس قافلاً حتى احتلّ قرطبة فضحّى فيها اضحى هذه السنة المؤرخة، قال واتصل بامير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تلوّم الامير موسى بن نُصير بالمسلمين في الاندلس وتقحمه بهم ارض العدو من غير موأمرة فاقلقه ذلك وبعث مولاه مغيثاً اليه وامره ان يعنفه ويقفله الى افريقية، فقدم مغيث على موسى وهو في قرطبة فوهبه موسى الموضع الذي ينسب اليه في عهد المسلمين وهو بلاط مغيث بجميع ارضه من ارض الخمس وغزى مغيث الى جليقية فاستبطأ الوليد قدوم موسى واستقصر مغيثاً فبعث رسولاً آخراً يعرف بابي نصر الى الاندلس وامره ان يتوكل بموسى بن نصير حتى يصدره اليه، فورد عليه في صدر سنة خمس، قال غيره وقد جاء في اثر ان موسى بن نُصير خمّس قرطبة وخرج في خمسه البطحاء التي بقبليها، التي هي اليوم مقبرة.

فلما ولّى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه السمح بن مالك الاندلس امره ان يجعلها مقبرة للمسلمين، وكان السمح بن مالك هذا من خيار اهل زمانه ثقة وعدالة. روى احمد الرازي في تاريخه وهي رواية اخرى في صحة تخميس الاندلس، قال عبد الملك بن حبيب يرفعه الى بعض التابعين الداخلين بالاندلس، قال: كان الخلفاء من بني أمية اذا وردت عليهم الجبايات استقدموا مع جباية كل موضع عشرة رجال من وجوه رجالها وخيارهم فلا يدخل بيت المال من الجباية لا دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها دينار ولا درهم أخذ الا بحقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من العيال والذرّية، قال: فأتى وفد افريقية بخراجها في آخر ايام سليمان، قال: فلما امروا ان

(١) بياض في الاصل (٢) نصف سطر بياض في الاصل

يحافوا حلف ثمانية ونكل رجلان وهما : اسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم والسمح بن مالك الخولاني، فاعجب عمر بن عبد العزيز بفعلهما، فلما ولي الخلافة ضمهما الى نفسه فاختبر منهما ديناً وخيراً فولّى اسماعيل بن عبيد الله افريقية، وولّى السمح بن مالك الاندلس وامره ان يخمّس ما بقي من ارضها وعقارها ويخرج منها خمس الله تعالى ويقرّ القرى بايدي اربابها، وان يكتب اليه بصفة الاندلس وبحرها وانهارها وهيئة مجازها، قال وكان رأيه ان يقفل اهلها منها لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين .

قال : فقدم السمح الاندلس وعزلها عن افريقية بامر امير المؤمنين عمر، وميّز ارض العنوة من ارض الصلح ليصح الخمس فينزل القسم بتخميس قرطبة واخرج البعوث بمثل (١) واخرجت البطحاء المعروفة بمصلى بقبلي قرطبة في الخمس، فلمّا اكمل السمح ما اراد خاطب امير المؤمنين بما عمله في ارض العنوة وارض الشمل وهي التي فتحت صلحاً فان اهلها صُولحوا على الجزية مع اجزاء من الارض منها مثالثة ومرابعة كيف ما كان طيب الارض وغلتها، حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر، ويستأذنه في بناء القنطرة من صخر السور فانه كان لا يُعرف يومئذ في جهة قرطبة مقطع صخر، فورد جواب امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بان يجعل البطحاء التي حصلت في الخمس بقبلي قرطبة مقبرة وان تبنى القنطرة من صخر السور ويجبر ما تثلّم منه باللّبن، فصارت البطحاء المذكورة مقبرة للمسلمين من يومئذ من حبّاسة امير المؤمنين عمر رضي الله عنه، قال : وكذلك القنطرة من بنيانه ايضاً .

ومن بعض فضائل التابعين المشاهدين لفتح الاندلس مع موسى بن نصير على ما حكى بعض الرّواة انهم لما غزوا افرنجة وصاروا من غزاتهم تولّى حنش بن عبد الله وابو عبد الرحمان الحبلي تأسيس جامع قرطبة وتجديده بالبناء وقوّما محرابه واسساه بايديهما .

---

(١) ينقص كلمة في الاصل

وورد في الاثر انها روضة من رياض الجنة بقيت الى(١) بني امية، وبني بنياناً اخراً لم يهدم المحراب ومشى على حمر خشب الى ان وقف في موضعه اليوم تباركا به لما توليا بنيانه بايديهما رحمة الله عليهما، فهو كذلك الى اليوم، قال: ولما اكمل هذان التابعان بناء الجامع على ما تقدم انصرفوا مع اميرهم موسى بن نُصير واجتمعوا في جبــل المائدة على النهر بقبلي طليطلة ودعوا لاهــل الاندلس. وقد جاءت في فضلهم واجابة دعوتهم آثار كثيرة منها ان موسى بن نُصير حاصر حصناً من حصون شرق الاندلس بضعاً وعشرين ليلة ولجّ في قتالــه فلم يقدر عليه لمنعته وحصانته فلما طال عليه ذلك نادى في الناس قال: فظننّا ان قد بلغته مادة عن العدو وانه يريد التحول عنه فاصبحنا على تعبئة، فقام فحمد الله واثنى عليه ثم قال: ايها الناس اني متقدم امام الصفوف فاذا رايتموني قــد كبّرت وحملت فكبروا واحملوا فقال الناس سبحان الله ان هذه لغفلة يأمرنــا ان نحمل على الحصن وما لا سبيل اليه واين المجال قال: فتقدم امام الصفوف حيث يرى الناس ورفع يديه الى السماء واقبل على الدعاء والرغبة والتدرع والبكاء ونحن وقوف ننتظــر وقوفــه وتكبيره ثم كبّر وحمل الى سور الحصن وكبّر الناس معه وحملوا فانهارت ناحية من سور الحصن التي تليه من الحصن وجالت الخيل على هدمه وفتحه الله عزّ وجلّ على اوليائه وعبيده المسلمين قال: ومنها انه قال: قاتل حصناً آخراً كان فيه العدو عدد ظاهر وعدة ظاهرة فاقتتلوا قتالاً شديداً وجال المسلمون جولة عظيمة، فـامر موسى بن نصير بسرادقــه فكشط عن نسائه وبناته ليبرزهنّ واقبل على الدعاء وحمي المسلمون والتحم القتــال ففتحه الله تعالى عليه وكان يغزوا باهل بيته، يرى ان ذلك اقرب لاجابة دعوته.

* * *

---

(١) بياض في الاصل

وهذه نبذة من اخبار رجوع موسى بن نصير الى المشرق

ففي صدر سنة خمس وتسعين ورد ابو نصر رسول امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك الموَجه في طلب الأمير موسى بن نُصير فامره بالرحيل وخرج من قرطبة معه، ومع طارق ومن معه من التابعين وكل من اراد الرجوع والتخلف عن الاندلس، وترك معه حبيب بن عقبة بن نافع الفهري موازراً له واقام معهما بالاندلس كل من اراد سكناها في مواضعه التي كانوا اختطوها واستوطنوها، وقفل معه الرسولان مغيث وابو نصر حتى احتلوا اشبيلية فاقر موسى فيها ابنه المستخلف على الاندلس لا تصالها بالبحر نظراً لقربها من مكان المجاز وركب موسى البحر مع جماعة القفال فمضى لسبليه راجعاً الى المشرق وهو متلهف على مافاته من الجهاد، متأسف لما لحقه من الازعاج، وذلك في شهر رمضان منه يعني خروجه من اشبيلية.

قال عبد الملك بن حبيب يرفعه الى ابي نعيم التجيبي: لمّا خرج موسى بن نُصير من قرطبة بعد ان وصل اليه رسول امير المؤمنين الوليد واخذ بعنان دابته يخرجه من الاندلس على ما امره به.

قال: فلما فج الماء من وراء شقندة انبعث موسى الى قرطبة راجعاً تحته بغلة شهباء ومعه التابعون ووجوه الناس حتى بلغ الفج واطلّ على قرطبة فوقف وقال: ياقرطبة حبّذا انتِ ما اطيبك واطيب ليالكِ ونهاركِ ما احسن اعتدال هوائك، ثم ردّ وجه دابته على طريقه وخرج من اشبيلية بعد ان صام وعيّد فيها عيد الفطر.

وقال عبد الملك توجه موسى بن نصير يريد المشرق فطوى القيروان ولم يدخلها وضحّى اضحى هذه السنة بقصر الماء على ميل منها، وكان الناس قد قحطوا واجدبوا جدباً شديداً فخرج موسى بالناس واستسقى وخطب في الناس فلما فرغ من خطبته قيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين قال: ليس هذا اليوم ذلك، فسقوا سقياً كثيراً، قال: ثم

مضى الى امير المؤمنين ومعه طارق وكل ما اصاب من الاموال والجواهر والغنائم وخيار الشي نساءً وصبياناً والمائدة قيل انها قوّمت بمايتي الف دينار بما فيها من الجوهر قال: وذكر بعض اهل الاخبار في امر المائدة انها سيقت من بيت المقدس في الزمن الاول وذلك ان اوّل من احتل قاعدة الاندلس واختطها وملكها اشبان بن طوبال ابن يافث بن نوح عليه السلام، وبه عُرفت الاندلس اصبانيا، وانهم كانوا اكثر من مائة ملك ملكوا على تاريخ اربعة الآف سنة من هبوط آدم عليه السلام، وعلى تاريخ الف سنة من الطوفان وهو اوّل ملك اليونان فيها: وان اليهود لما ادّعت قتل عيسى بن مريم عليه السلام حميت النصرانية حيث كانت، فكاتب ملكها وكان صاحب الاندلس منهم يسمى بطرش وقيل هرقلش فآلى ان يلقي من زبل الاندلس في بيت المقدس، فغزا من الاندلس واحتمل كثيراً من الزبل، وغزا ايضاً ملك رومة وملك ارمينية وتحركوا على موعد واحتل جميعهم بيت المقدس وحاربوا من كان فيه حتى غلبوا عليه وقتلوا من اليهود مائة الف وسبوا مائة الف وفرقوا في الافاق مائة الف، واقتسموا ما وجدوا في البيت من الفوائد والغرائب النفيسة، فخرج في سهم ملك الاندلس يومئذٍ المائدة، وانها التي وجدت بجهة طليطلة وخرج في سهم ملك رومة حلّة آدم وعصى موسى عليهما السلام وخرج في سهم ملك ارمنية ياقوتة ذي القرنين وقيل ايضاً انها الياقوتة التي اصابها موسى بن نُصير مع الفيلة في ماردة وانها وقعت في يد ملك الاندلس مع المائدة فاصابها موسى في طليطلة ومـا ردة كانت تضيُ منهـا. وحمل جميع ذلك الى امير المؤمنين الوليد، قال: وفيما رواه عبد الملك بن حبيب السلمي ان نحت نصر (١) حشد جميع

---

(١) في سنة ٥٨٦ ق. م. أغار نَبو كَدْنَصرّ على اورشليم فاحرقها وجلا اهل يهوذا الى بابل.

اقطار الارض لحرب بيت المقدس فكان فيما حشد ملك الانــدلس، فحضر الغارة ووقعت في سهمه مائدة سليمان فجاء بها الى الاندلس.

قال: ثم دخلت سنة ست وتسعين وفيها لحق موسى بن نُصير بجميع مغانم الاندلس بحضرة امير المؤمنين الوليد قبل وفاته بشهرين او نحوهما، فاحضر موسى بين يديــه جميع ما يحمله وقدّم المائدة فاهداها اليه وادعى انه اصابها، فكذّبه طارق وقال: بل انا اصبتها، والدليل على ذلك هذه الرجل الناقصة منها معي، ثم اخرجها فصدّقه الوليد وقبل قوله واعظم جائزته واقام موسى قبل الوليد حتى توفي.

قــال: فلما مات امير المؤمنين الوليد وولي امير المؤمنين سليمان اخوه اخــذ موسى بن نُصير ومن كان معه من عمّال المغرب بما بلغه من اقطاعاتهم لقرى الاخماس وما علوا فيه من الحال، فغرموا وأُغرِمَ موسى مائة الف طلبة . . .

بها ماية الف فاستجار بيزيد بن المهلّب، وكان سليمان بــن عبد الملك يجد على موسى بــن نصير ابداً ويسميه الشيخ الكذّاب من اجل ما ادّعى انه اصاب المائدة وكان ذلك مما يعاب به سليمان فان موسى لم يكن كذّاباً ولا كذب في قوله انه اصاب المائدة فان كان هو لم يشاهد امرها فانما اصابها عاملــه ومولاه والموجَّه لذلك بسعيه وامره، كما ان فتح الاندلس انما ينسب اليه.

فهرس جغرافى

باسماء المدن والقرى والاماكن الوارد ذكرها بهذه الرحلة
مع ما يقابلها باللغة الاسبانية

INDICE GEOGRÁFICO

de los nombres de ciudades, aldeas y lugares mencionados en este viaje,
con su correspondiente en español

Ceuta	سبتة
Gibraltar	جبل طارق (جبل الفتح)
Tarifa	طريف (طريفة)
Algeciras	الجزيرة (الجزيرة الخضرآء)
Cádiz	قالص (قادس)
Santa María (Puerto de)	شنتمرية (سنتا ماريّا)
Ronda	الرندة
Sanlúcar	سان لوكار
Jerez (de la Frontera)	شريش (ده لافرنطيره)
Lebrija	البريجة
Utrera	أطريرة
Marchena	مرشينة
Guadalquivir	الواد الكبير
Sevilla	أشبيلية
Ecija	ايسكا (ازيجة)

Huesca	ويسكا (ويشكا)
Guadix	واد آش
Granada	غرناطة
Córdoba	قُرطُبة
Sierra Morena	سييرّا مورينة
Baeza	بياسة
Jaén	جيان
Málaga	مالقة
El Carpio	الكاربي (الغربيّ)
Andújar	أَندوخَر
Almería	المريّة
Linares	لينارس
Carmona	كرمونة
Torre de Juan Abad	طُرّي اكوان ابان (خوان اباد)
Mancha (La)	مانشا (مانتشا)
Orcera	قوصِرا (أُوصيرا)
Venta de San Andrés	بينطة سان اندريس
Membrilla	المنريلية (المنبرية)
Manzanares	منسنارس
Almagro	الماكرو (المغرو)
Mora	مورا
Tajo (Río)	وادي طاخو (وادي طاغو)
Bargas	بكص (بركاص)
Getafe	خطافي

Madrid	مدريد (مجريط)
Retiro (El)	الريطيرو
Pardo (Palacio de El).	البردو (قصر)
Manzanares (Río)	منسناريس (نهر)
El Escorial	الاسكوريال
Plasencia	بلاصِينصِيا
Toledo	طُلَيطُلة
Consuegra	سويقرا
Ayamonte	أيامُونطي
Medina Sidonia	مدينة صيدونية
Valladolid	بلَيادوليد
Olvera	البيرة
Medina Celi.	مدينة سليس
Barcelona	برشلونة (برسلونة)
Alicante.	أليقَنْتي
Salamanca	صالامنكة (طلامنكة)
Aranjuez	ارانخويس
Verde	بيردي (الخضرآء)
Illescas	وشقة
Guadalajara	وادي الحجارة
Béjar	باجة
Zaragoza	سرقسطة
Niebla	لَبلَة
Yjar	ايخر

بلنسيـــة	Palencia
بلـــد المورو	Balad El Moro
شنترين	Santarén
قلنبريـــة	Coimbra
شيـــة	Ejea
مدينة المائدة	Almeida
استرقـــة	Astorga
قلعة زعواق (قرب اشبيلية)	Zaguac
اكشونبة (اكشبونة)	Ocsonoba
الاندلس	Andalucía
نبـــارّى	Navarra
قشتالة القديمة	Castilla La Vieja
قشتالة الجديدة	Castilla La Nueva
اليـــون	León
راغون (اراغون)	Aragón
قطالونيـــة (قطلونيا)	Cataluña
جليقيـــة	Galicia

جـــدول

شـــرح الاصطـلاحـــات والتعـــابيـــر المغـربيّـــة الـــوارد ذكـرهـــا بهـــذه الرحلـــة

INDICE

de las locuciones y expresiones marroquíes citadas en este viaje.

المخزن : الحكومة المحلية

رجال المخزن : رجال الحكومة المحليّة

مخازني : شرطي (بوليس وطني)

المشوار : (السراي) دار الحكومة

المحلة، المحال : الجيش في العموم، ويطلق الاسبان اليوم هذا الاسم على فرق منظمة معلومة من الجيش المغربي المحلي

الاحباس : الاوقـــاف

المدشروالدشرة : القـــريـــة

الحوت : يطلق على عموم السمك

الرقّاص (رقاقيص) : ساعي البريد

براوات : جمع براءة وهي الرسالة : رسائل

الكسكسو : لون طعام مغربي مشهور جداً (تقدّم وصفه)

المغانة والمكّانة : الساعة، (آلـــة)

القصبة : القلعة المحصّنة (حصن)

فهرس

الالفاظ والتعابير الاسبانية التي استعملها المؤلف في كتابة
رحلته واثبتها محرفة او معجمة

INDICE

para las palabras y expresiones españolas que el autor empleó en la redacción de su viaje, conservándolas alteradas o aljamiadas

Costa :	الشاطئ :	كوشطة
Soldados :	الجند :	شاطاظ
Soldados de Guardia :	الحرس :	شاطاظ اهل الوَرْدِيَة
Convento :	الدير :	كنبينطو
Misa (Misas) :	القدّاس :	ميسة (ميسات)
Monja (Monjas) :	الراهبات :	منكاص (منخاص)
Descalzos :	طريقة رهبانية الحفاة :	الامكالصوص (دمكلصوص)
Nuncio :	القاصد الرسولي، ممثل البابا :	نوسي، نونسيو
Arzobispo :	رئيس اساقفة :	السوبيسبو، ارسوبيسبو
Conde (Condes) :	لقب من القاب الشرف :	كونديس : جمع كوندي
Duque (Duques) :	من القاب الشرف :	دوكيس : جمع دوكي
Lobo :	ذئب :	لوبو

سـرّه	: ثعلبٌ	Zorra :
بينطـة	: نزل، فندق	Venta :
فريَـة	: معرض: سوق جامعة	Feria :
غَليرة	: عجلـة	Galera :
بَـلاَصِيُو	: قصر	Palacio :
مـا يوردوم	: قيّم قصر الملك: قهرمان	Mayordomo :
انباشادور	: سفيـر	Embajador :
كندسطابلي	: رتبة حكومية تعادل قائداعلى للجيش:	Condestable
برنسيبي	: اميـر	Príncipe :
كران دوكي	: الدوقي الكبير	Gran Duque :
بلاصا مايور	: السوق العامة: الكبيرة	Plaza Mayor :
راي تشيكو	: الملك الصغير	Rey Chico :
ميلا كروس	: عجائب: خوارق	Milagros :
كاسيطة	: جريـدة	Gaceta :
فرايلي فرايلية	: راهب، رهبان (رهابين)	Fraile (Frailes) :
كليريكِ كليريكُس	: اكليريكي: اكليروس	Clérigo (Clérigos) :
ضـامات	: سيـدات	Damas :
شمريره	: قبعـة	Sombrero :
الأَربـة	: آلة طرب تشبه القانون	Arpa :
أركـانو	: آلـة طرب: الارغن	Organo :
البروسيسيون	: التطواف: (الزيَاح)	Procesión :
انكطارة كيطارَه	: آلة طرب تشبه العود	Guitarra :

كونفيصور	:	الاعتراف	:	Confesor
اريكس اريخس	:	هراطقـة	:	Herejes
باسطون	:	عصا، قضيب الاناقـة	:	Bastón
بولية—بولا (اذن كنائسي	:	يبيح لحامله الأكل في ايام الصوم)	:	Bula
انكيسيشيون	:	ديوان التفتيش	:	Inquisición
كودشه	:	عربة (سيارة)	:	Coche

فهرس وتراجم

الأعلام الوارد ذكرها بهذا المؤلف

INDICE Y BIOGRAFIAS

de los personajes citados en esta obra

Abú Hayan *(654-745 h.)*	Athir Ed-din abú Abdelah Mohamed ben Hayan el Andalusi el Granadino en Nafzaui [1]. Literato, poeta, filólogo y gramático. Escribió muchas obras y realizó numerosos viajes a Oriente. Nació el año 654 h. y murió en Egipto el año 745 h.	اثير الدين ابو عبد الله محمد بن حيان الاندلسي الغرناطي النفزاوي (١) أديب، شاعر، لغوي نحوي. له تآليف قيمة ورحلات عديدة الى المشرق، توفي بمصر. ولد عام ٦٥٤ مات ٧٤٥هـ	أبو حيان ٦٥٤ – ٧٤٥هـ
Aben Húmaya Mohamed *(Muerto el año 1568 J. C.)*	Su verdadero nombre es Fernando de Valor. Fué el jefe de los musulmanes de Granada que se sublevaron contra el Rey Felipe II. Fué muerto en el año 1568.	اسمه الحقيقي فرناندو دي فالور، كان رئيس عرب غرناطة عندما هاجوا ثورة على الملك فليب الثاني قُتل سنة ١٥٦٨م	ابن حميا (محمد) قُتل عام ١٥٦٨م

(1) De la cabila marroquí de Nafzaua.

(١) نسبة الى احدى القبائل المغربية

Yaber ben Labid	Notable andaluz. Era el gobernador de Olvera en el reinado de Abderrahmán ben el Hakam.	من وجهاء وعيون الاندلس كان والي إلبيرة في عهد عبد الرحمان بن الحكم	جابر بن لبيد
El-Yaziri *(Murió entre los años 395 y 398)*	Abdelmalek ben Idris el Yaziri. Escritor, poeta, literato y uno de los más elocuentes. Dejó cartas y poesías célebres. Fué uno de los ministros de la dinastía Amirit. Murió entre los años 395 y 398 h.	عبد الملك بن ادريس الجزيري كاتب، شاعر، اديب يعدّ من فطاحل البلغاء، له رسائل واشعار مشهورة، كان من وزراء الدولة العامرية، توفي بين سنة ٣٩٥ و ٣٩٨هـ	الجزيري توفي بين سنة ٣٩٥ و ٣٩٨هـ
Hassana Et-tamimia	Literata de Olvera y poetisa andaluza célebre. Dejó numerosos trozos y cartas en verso. Vivió en Olvera bajo el reinado de Abderrahman y dedicó varias poesias a su alabanza.	اديبة من إلبيرة، ومن شويعرات الاندلس المثقفات، لها مقاطع ومراسلات شعرية كانت في إلبيرة في عهد عبد الرحمان بن الحكم ولها فيه مدائح شعرية	حسّانة التميمية
	Es Hamda hija de Ziad de Guadix, poetisa anda-	هي حمدة بنت زياد الوادآشية من شواعر الاندلس المعدودات	

Hamda la Andaluza	luza célebre. Dejó varias polémicas literarias y noticias y cartas en verso.	المشهود لهنّ بعلوّ الطبقة في جنسهنّ، لها كثير من المناظرات الأدبية والاخبار والمساجلات الشعرية	حمدة الأندلسيّة
El alepino Cristiano	Maronita de Alepo, Siria del Norte. Era el intérprete de Carlos II, Rey de España. Acompañó en Madrid y sus alrededores a la comisión marroquí presidida por el visir el Gassani, y sirvió de enlace entre la comisión y las autoridades españolas. El autor lo citó con elogio varias veces.	ماروني من حلب (سوريا الشمالية) كان ترجمان ملك اسبانيا كارلس الثاني، قد رافق في مدريد وضواحيها السفارة الاسماعيلية التي ترأسها الوزير الغساني وكان صلة التفاهم بين الوفد المغربي والسلطات الاسبانية ذكره المؤلف مرات عديدة واثنى عليه	الحلبي النصراني
	Es Abú Bakr Mohamed ben Zakariya Er-Razi, conocido por galeno de los árabes y el más célebre médico de su época. Era además literato, poeta e historiador. Se ocupó	هو ابو بكر محمد ابن زكريّا الرازى الملقّب بجالينوس العرب، امام الطب والاطباء في عصره وكان ايضاً اديباً، شاعراً مؤرخاً، اشتغل بالفلسفة،	

Er-Razi *(Falleció el año 311 h.)*	también de filosofía. A pesar de su sabiduría, era humilde y amable con los pobres. Escribió muchas obras y fué el primero en tratar de la viruela y del sarampión. (El Gassani se refiere a Mohamed Ben Ahmed Er-Razi, célebre historiador y geógrafo andaluz.)	وكان على سعة علمه متواضعاً محبباً للفقراء محسناً اليهم . وللرازي مؤلفات عديدة جداً وهو اول في الف في الجدري والحصبة . وهنا يقصد المؤلف محمد بن احمد الرازي الاندلسي المؤرخ والجغرافي الشهير	الرازي توفي سنة ٣١١ﻫ

Es-Samh ben Malek *(Muerto el año 103 h.)*	Es el emir del Andalus. Es-Samh ben Malek el Jaualani el Hiyaui. Fué nombrado gobernador del Andalus bajo el reinado del príncipe de los creyentes, Omar ben Abdelaziz, el año 100. Fué muerto en un combate contra los cristianos el año 103 h.	هو أمير الأندلس السمح ابن مالك الخولاني ثم الحياوي ولي الاندلس في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ ، قتل في موقعة ضد الاسبان سنة ١٠٣ (يوم التروية)	السمح بن مالك قتل سنة ١٠٣

Ismail ben Obaid-Allah	Es Ismail ben Obaid Alah liberto de Bani Majzum. Omar ben Abdelaziz, le confió el gobierno de Ifrikia el año 100. Era muy virtuoso y cuidaba con celo de los intereses de los musulmanes.	هو اسماعيل بن عبيدالله مولى بني مخزوم : ولاه عمر بن عبد العزيز افريقيا عام ١٠٠ كان تقياً ورعاً حرصاً على مصالح المسلمين .	اسماعيل ابن عبيد الله

Abdel-Malek el Saadit
(983-986 h.)

Es Abú Meruán Abdelmalek ben Mohamed el Cheij. Se dirigió a Constantinopla y pidió al Sultán Murad III auxilio contra su sobrino, al cual combatió en la batalla del Rukn, cerca de Fez. Luego entró triunfalmente en la capital, en el año 983. Murió envenenado el año 986 en la célebre batalla de los tres reyes, librada en Uad Al Majasin, en las cercanías de Alcazarquivir. 1578.

هو ابو مروان عبد الملك ابن محمد الشيخ، ذهب الى الاستانة واستنجد بالسلطان مراد الثالث على ابن اخيه، فانتصر عليه في موقعة الركن قرب فاس ودخل العاصمة منتصراً عام ٩٨٣، مات مسموماً في موقعة وادي المخازن المشهورة، (قرب القصر الكبير) عام ٩٨٦هـ

عبد الملك السعدي
٩٨٣—٩٨٦هـ
١٥٧٥ - ١٥٧٨م

El Sultán Solimán, el Legislador
(1520-1566)

Es el Sultán otomano Solimán, conocido por el Legislador. Era un administrador decidido. Reprimió con severidad la sublevación del Gazzali, jefe de las diputaciones de Siria, y lo mató en Cabon, cerca de Damasco, el año 1521 J. C. Subió al trono otomano el año 1520 y murió el año 1566.

هـو السلطان العثماني سليمان الملقب بالقانوني، كان ادارياً حازماً، قمع بصرامة ثورة الغزالي رئيس نيابة سورية وقتله في قابون بالقرب من دمشق عام ١٢٥١ م. اعتلى العرش العثماني عام ١٥٢٠م مات عام ١٥٦٦

السلطان سليمان
القانوني
١٥٢٠ - ١٥٦٦م

Tarec ben Ziad — طارق بن زياد

Español	العربية
Es Tarec ben Ziad el Tanyi, el verdadero conquistador del Andalus. Penetró en este país el año 92 con los ejércitos del Magrib, pasando por el estrecho que lleva su nombre, y permaneció allí hasta su regreso a Siria con Musa ben Nosair, llamado por el príncipe de los creyentes, el Ualid ben Abdelmalek, el año 95.	هو طارق بن زياد الطنجي الفاتح الحقيقي للاندلس غزاها بجيوش المغرب من المضيق المنسوب اليه سنة ٩٢ وبقي بها الى ان ذهب الى الشام مع موسى ابن نُصير بطلب من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك سنة ٩٥

Tarif ben Malek — طريف بن مالك دخل الاندلس عام ٩١هـ

Español	العربية
Es Abú Duraa Tarif ben Malek el Najai, liberto de Tarec ben Ziad y jefe de las secciones exploradoras marroquíes musulmanas que prepararon la entrada de los ejércitos conquistadores del Andalus. Tarif había penetrado en este país con sus hombres en el año 91, explorando el terreno y estudiando el estado de los habitantes. Desembarcó en la costa que lleva su nombre y, al regresar, informó a Tarec de lo que había visto en su expedición.	هو ابو ذرعة طريف ابن مالك النخعي، مولى طارق ابن زياد وقائد فرق جنود الكشّافة المغاربة المسلمين الذين مهدوا السبيل لدخول جيوش الفتح، وكان طريفا قد دخل الاندلس مع رجاله سنة ٩١ فتجسس ارضها ودرس احوال رجالها، ونزل الشاطئ المنسوب اليه، ثم رجع واخبر طارقاً بحقيقة الحال وبما شاهده من احوال الاندلس.

Musa ben Nozair *(Falleció 99 h. 717 C.)*	Es Abú Abdelah Musa ben Nozair el Bakri, príncipe de Ifrikia y del Magreb, y generalísimo de los ejércitos de la conquista en el Occidente. El año 93 entró en el Andalus como conquistador y administrador. Volvió a Damasco el año 95, por orden del Ualid ben Abdelmalek. Falleció entre los años 97 y 99.	هو ابو عبد الله موسى ابن نُصير البكري أمير افريقيا والمغرب والقائد العام لجيوش الفتح في الغرب، دخل الاندلس فاتحاً ومنظماً سنة ٩٣ رجع الى دمشق بأمر الوليد بن عبد الملك سنة ٩٥، توفي بين ٩٧—٩٩	موسى بن نُصير (توفي عام ٩٩)
Los tabiitas que entraron en el Andalus con Musa ben Nosair en el año 93	1.—Alí ben Er-Rabah El Lajmí. Falleció el año 144. 2.—Haiat ben Rayaa et-tamimi. 3.—Abdelah ben Yazid el Ausari el Hubali. Murió el año 100. 4.—Hanach ben Abdelah Es-Sanaoni. Murió el año 100. 5.—Abu Said Es-Sadafi.	١ علي بن الرَباح اللخمي مات ١١٤، ٢ حيوة بن رجاء التميمي ٣ عبد الله ابن يزيد الانصاري الحُبلي مات ١٠٠، ٤ حنش ابن عبد الله الصنعاني مات ١٠٠، ٥ ابو سعد الصدفي	التابعون الذين دخلوا الاندلس مع موسى بن نُصير عام ٩٣
	Poeta y literato andaluz. Pasó su juventud en Egipto y luego se fué al Irak, donde se reunió con El-Asmaai y otros sabios del Oriente.	شاعر، اديب اندلسي، نشأ بمصر ورحل الى العراق فاجتمع بالاصمعي وبغيره من علماء الشرق	

Abbas ben Nasih Ez-Zukafi	Aprovechó mucho de su compañía. Regresó luego al Andalus. Era buen literato e historiador y además conocedor de las artes de la poesía y los secretos del idioma árabe.	فسمع منهم وأخذ عنهم، ثم رجع الى الاندلس، كان من ثقـات اهل الأدب والتاريخ عارفـا بفنون الشعر واسرار العربيـة	عبّاس بن ناصح الثقفـي
Abdelaziz ben Musa ben Nosair *(Asesinado el año 99 h.)*	Su padre lo había nombrado sucesor suyo en el gobierno del Andalus, al abandonar este país el año 95 h. Abdelaziz estuvo en este puesto hasta que los soldados lo mataron en el año 99 h., por orden del príncipe de los creyentes *Soliman* ben Abdemalek.	كان والده قد استخلفه على الاندلس عند خروجه منها عام ٩٥ه، فبقي واليها الى ان قتله الجند عام ٩٩ه بأمر امير المؤمنين سليمان ابن عبد الملك	عبد العزيز ابن موسى بن نُصير قُتِلَ عام ٩٩ه
Los soberanos Omeya en Occidente desde Abderrahman I hasta Abderrahman III *(138-350 h. 756-961 J. C.)*	Abderrahman I (756-788 J. C.) Hixem I (788-796 J. C.) Alhacam (796-822 J. C.) Abderrahman II (822-852 J. C.) Mohamed I (852-886 J. C.) *Al-Mondhir* (886-888 J. C.) Abdallah (888-912 J. C.) Abderrahman III (912-961 J. C.)	عبد الرحمان الداخـل ١٣٨—١٧٢ه، هشام ١٧٢—١٨٠ه، الحكم ١٨٠—٢٠٦ه، عبد الرحمان بن الحكم ٢٠٦—٢٣٨ه، محمد ابن عبد الرحمان ٢٣٨—٢٧٣ه، المنذر بن محمد ٢٧٣—٢٧٥ه، عبد الله بن محمد ٢٧٥—٣٠٠ه، أمـيـر المؤمنين عبد الرحمان الناصر ٣٠٠—٣٥٠ه.	امراء بني امية في الغرب من عبد الرحمان الداخل الى عبد الرحمان الناصر لدين الله ١٣٨—٣٥٠ه ٧٥٦ — ٩٦١

Los Jalifas Omeya en Oriente, desde Meruán I hasta Meruán II *(64-132 h. 685-750 J. C.)*	Meruán I (684-685). Abd-el-Melik (685-705 J. C.) El-Walid I (705-715 J. C.) Soleiman (715-717 J. C.) Omar II (717-720 J. C.) Yezid II (720-724 J. C.) Hixem (724-743 J. C.) El-Walid II (743-744 J.C.) Yezid III (744). Meruán II (744-750 J. C.)	مروان بن الحكم ٦٤—٦٥ ه، عبد الملك ابن مروان ٦٥—٨٦ ه، الوليد بن عبد الملك ٨٦—٩٦ ه، سليمان بن عبد الملك ٩٦—٩٩ ه، عمر بن عبد العزيز ٩٩—١٠١ ه، يزيد ابن عبد الملك ١٠١ — ١٠٥ ه، هشام بن عبد الملك ١٠٥—١٢٥ ه، الوليد ابن يزيد ١٢٥—١٢٦ ه، يزيد بن الوليد ١٢٦—١٢٦ ه، مروان الاخير ١٢٧—١٣٢ ه.	خلفاء بني أمية في الشرق من مروان ابن الحكم الى مروان الاخير ٦٤ — ١٣٢ ٦٨٥ — ٧٥٠
El Emir Mohauia de Omeya *(Muerto el año 132 h.)*	Emir de la dinastía de Omeya. *Fué muerto* en la revolución de los abasidas, en el año 132 h. Es el padre de Abderrahmán I, que se salvó y huyó a Occidente, renovando la dinastía de Omeya en España.	من الأمراء الأمويين قُتِلَ في ثورة العباسيين سنة ١٣٢ وهو والد عبد الرحمان الداخل الذي نجا من القتل وهرب الى الغرب واحيى السلالة الأموية في اسبانيا	الأمير معاوية الأموي الاخير قُتِلَ سنة ١٣٢

Alí ben Abí Taleb

(Asesinado el año 40 h., 660 J. C.)

Es el príncipe de los creyentes Abu-l-Hasan Alí ben Abí Taleb, primo y yerno del Profeta. Cuarto de los Jalifas legítimos y el más elocuente orador musulmán y, al mismo tiempo, el más generoso, el más sabio y el más virtuoso. Fué asesinado en la mezquita del Cufa, mientras rezaba, el año 40 h.

هو أَمير المؤمنيــن ابو الحسن علي بن ابي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنتــه ورابــع الخلفاء الراشدين وامام الخطباء من المسلمين على الاطلاق واكثرهم حلماً وعلماً وزهداً، قُتِلَ غيلةً بمسجد الكوفة وهو يصلّي سنة ٤٠ هـ

علي بـن ابي طالب قُتِــل سنة ٤٠هـ (٦٦٠)

Omar ben Al-Jattab

(Asesinado el año 22 h., 644 J. C.)

Es el príncipe de los creyentes Abu Hafs Omar ben Al-Jattab el Corachit, el segundo de los Jalifas legítimos y el primero en llevar el título de príncipe de los creyentes. Omar fué el primero en utilizar la hégira como base de una nueva era; fué también el primer Jalifa en organizar las provincias y crear las administraciones. Fué asesinado por el bandido Abu Lulua, esclavo de Al-Maguira ben Chaaba, el año 23 h. Cuidaba con celo de los intereses de los musulmanes, y era de los más elocuentes y de los más juiciosos.

هو أمير المؤمنين ابو حفص عُمر بن الخطّاب القرشي ثاني الخلفاء الراشدين واوّل من تسمّى بأمير المؤمنين واوّل من أرّخ بالتاريخ الهجري ومصّر الامصار ودوّن الدواويــن . قتله غيلةً الشقي ابو لؤلؤة عبد المغيرة بــن شعبة سنة ٢٣هـ . كان حريصاً جداً على مصالح المسلمين، ومن أبيَن الناس منطقاً واكثرهم صواباً وحكمةً .

عُمر بن الخطّاب قُتِلَ سنة ٢٣هـ (٦٤٤م)

Abdel-malek ben Habib *(Murió el año 237 h. 851-52 J. C.)*	Es Abú Meruán Abdelmalek ben Habib ben Soliman Es-Salmi, natural de Olvera, pero residió en Córdoba. Era una autoridad en historia, al mismo tiempo que un buen literato, gramático, versificador, y gran conocedor de genealogía y de datos. Visitó Oriente y oyó a sus sabios, regresando luego al Andalus. Falleció el año 237 h.	هو ابو مروان عبد الملك ابن حبيب بـــن سليمان السلمي من اهل إلبيرة غير انه سكن قرطبة، كان ثقة في التاريخ، اديباً نحوياً عروضياً حافظاً للاخبار والانساب رحل الى المشرق وسمع مـــن علمائه ورجع الى الاندلس . مات سنة ٢٣٧ هـ	عبد الملك ابن حبيب مـــات ٢٢٧ هـ
Maulay Ech-Cherif *(997-1069 h.)*	Es el noble Ech-Cherif Abú-l-Amlak ben Alí Ben Mohamed Maulay Cherif el Hasanit, ascendiente de la dinastía que reina actualmente en Marruecos. Era Maulay Ech-Cherif muy considerado entre los marroquíes y estimado por todas las clases. A él se dirigían en las dificultades, y pedían su intercesión en las crisis.	هـــو النبيل الشريف ابو الاملاك بن علي بن محمد مولاي الشريف الحسني جد العائلة النبيلة المالكة في المغرب اعزها الله، كان مولاي الشريف وجيهاً عند اهل المغرب محترماً مكرماً عند جميع طبقات الشعب يقصـــدونـــه في المعضلات ويستشفعون به في الازمات ويهرعون اليه في الملمات	مولاي الشريف ولد ٩٩٧ توفي ١٠٦٩هـ

Maulay Ismail

Es ech-cherif alauita, el sultán victorioso Abu en-Nasr Maulay Ismail ben Maulay Ech-Cherif, el tercer soberano de la dinastía alauita en Marruecos. Era valiente y déspota, al mismo tiempo que justo. (Véase el prólogo del libro.)

هـــو الشريف العلوي
السلطان المظفّر ابو النصر
مولاي اسماعيل ابـــن
مولاي الشريـــف ثالث
ملوك السلالة العلويّة في
المغرب، كان شجاعاً بطّاشاً
مستـــبداً عادلاً، (انظر
ترجمته في مقدمـــة
الكـــتاب)

مولاي اسماعيل

Maulay Mohamed ben Mihrez

(Muerto el año 1096 h.)

Es Abú-l-Abbas Ahmed ben Mihrez ben Maulay Ech-Cherif. Se sublevó en Marrakech contra su tío Maulay Ismail y se libraron entre los dos varias batallas. Fué muerto el año 1096 h.

هو ابو العباس احمد ابن
محرز ابن مولاي الشريف،
ثار في مراكش على عمه
مولاي اسماعيل، فوقعت
بينهما حروب ومنازلات
عديدة قُتِلَ سنة ١٠٩٦

مولاي محمد
ابن محرز
قُتِل ١٠٩٦

Es Abu Abdelah ben Maulay Abdelah ben Mohamed el Cheij. Fué aclamado como Sultán, después de la muerte de su padre, el año 981. Era severo y orgulloso; a pesar de ello, era un buen

هو ابو عبد الله ابن مولاي
عبد الله بن محمد الشيخ،
بُويع له بعد وفاة ابيه سنة
٩٨١، كان شديد العسف
على الرعية، متكبراً،
وكان مـــع ذلك فقيهاً

Mohamed ben Maulay Abdelah, conocido por el Masluj *(Muerto el año 986 h.)*	letrado y excelente poeta. Pidió a Don Sebastián, Rey de Portugal, ayuda contra su *tío* Maulay Abdelmalek. Murió ahogado en la batalla de los tres reyes, librada en Wadi-l-Mejazen, cerca de Alcazarquivir, el año 986 h. Después de su muerte, fué quitada su piel y llenada de paja, y por eso fué conocido por el apodo de Al-Masluj.	اديباً شاعراً مجيداً، استنجد بالضون سبستيان ملك البرتغال على عمه مولاي عبد الملك . مات غريقاً في موقعة وادي المخازن قرب القصر الكبير سنة ٩٨٦، وسلخ جلده بعد وفاته وملئ تبناً، ويعرف عند العامة بالمسلوخ	محمد ابن مولاي عبد الله المعروف بالمسلوخ قتل ٩٨٦ هـ
Juan de Austria *(Murió en 1679)*	Es Juan, hijo de Felipe IV y de María Calderón. Fué un general muy célebre, valiente y audaz. Se le atribuyen numerosas reformas y buenas obras que fueron realizadas en España. Murió el año 1679.	هو خوان بن فليب الرابع من ماريا كلدرون، كان شجاعاً مقداماً وقائداً لامعاً، ينسب اليه كثير من الاصلاحات والاعمال الطيبة في المملكة الاسبانية مات سنه ١٦٧٩	خوان دي اوسطريا توفي ١٦٧٩
Juan «El Fraile» *(1495-1550)*	El autor se refiere a San Juan de Dios, fundador de la Orden de los Hermanos de Caridad (1495-1550).	يقصد به المؤلف : القديس يوحنا دي ديوس مؤسس رهبانية اخوة المحبة ١٤٩٥—١٥٥٠	خوان (الفرايلي) الراهب ١٤٩٥ - ١٥٥٠

Juana, hija de Isabel	Fué conocida por «la Loca». Reina de Castilla, hija de Fernando y de Isabel, y madre de Carlos V. Fué proclamada Reina de Castilla el año 1504. Tuvo un ataque de locura a causa de la impresión que le causó la muerte de su marido, Felipe «el Hermoso», Archiduque de Austria.	تعرف بالحمقاء، ملكة قشتالة، ابنـة فرناندو وازابيل ووالدة كارلص الخامس، نودي بها ملكة على قشتالة سنة ١٥٠٤ اصابها مس من الجنون بسبب مصابها بوفاة زوجها فليب الجميل (ارموصو) ارشيدوق اوسطريا	خوانا ابنـة ازابيل
Reyes de España de la Casa de Austria	Felipe «el Hermoso» (n. 1478, m. 1506). Carlos V (n. 1500, m. 1558). Felipe II (n. 1527, murió 1598). Felipe III (n. 1578, m. 1621). Felipe IV (nació 1605, m. 1665). Carlos II (n. 1661, m. 1700).	فليب ارموصو (الجميل) ولد ١٤٧٨ مات ١٥٠٦ كارلوص كنطو (الخامس) ولد ١٥٠٠ مات ١٥٥٨ فايب سكندو (الثاني) ولد ١٥٢٧ مات ١٥٩٨ فليب طرسيرو (الثالث) ولد ١٥٧٨ مات ١٦٢١ فليب كوارطو (الرابع) ولد ١٦٠٥ مات ١٦٦٥ كارلوص سكندو (الثاني) ولد ١٦٦٠ مات ١٧٠٠	ملوك اسبانيا مـن سلالـة اوسطريا

El Duende (Fernando de Valenzuela) *(1692)*	Fernando de Valenzuela, poeta y político español. Tenía gran prestigio al lado de la Reina Mariana de Austria, madre de Carlos II, y una influencia inmensa en la dirección de los asuntos del Estado. Estuvo en esta posición hasta que Juan de Austria lo encarceló en nombre del rey. Murió el año 1692.	فرنانـدو دي فلنسويلا، شاعر وسياسي اسباني كان محظياً عند الملكة ماريانا دي اوسطريا والدة كارلوص الثاني وكان صاحب الكلمة النافذة في مصير شؤون المملكة، الى ان ابعده وسجنه انضون خوان دي اوسطريا باسم الملك، مات ١٦٩٢ وقد ذكر خطأً في المتن بانه الاب نيطارد اليسوعي.	الدوندي (فرناندو دي فلنسويلا) ١٦٩٢
El Delfín	Título que ostentaban los primogénitos de los Reyes de Francia. Se refiere el autor a Luis, hijo de Luis XIV y padre del Duque de Anjou, que subió al *trono* de España después de la Guerra de Sucesión, con el nombre de Felipe V.	هو لقب يطلق على الولد البكر من اولاد ملوك فرنسا، وهنا هو لويس ولد لويس الرابع عشر ووالد فليب دي انجو الذي اعتلى عرش اسبانيا بعد حرب الميراث وأخذ اسم فليب الخامس	الدلفين

Fernando el Católico
(1452-1516)

Fernando V, conocido por el Católico, Rey de Castilla, Aragón, Sicilia y Nápoles. Se casó con Isabel I de Castilla y reunió en su poder el reino de su esposa y los demás reinos españoles, completando así *la unión nacional española.* Se apoderó de Málaga, Granada y de las demás regiones que quedaban en manos de los árabes.

Reprimió con severidad la revolución catalana y puso fin a todas las guerras civiles. El Tribunal de la Inquisición fué fundado por él.

Era Fernando un jefe audaz y valiente, administrador excelente y diplomático fino. Bajo su reinado fué descubierto el Nuevo Mundo, aumentando con ello la riqueza *material y moral de España,* empezando su siglo de oro.

فرناندو
لاكطوليكو
(الكاثوليكي)
١٤٥٦ - ١٥١٦

هو فرناندو الخامس ويعرف بالكاثوليكي ملك قشتالة واراغون وسيسيلية ونابولي، تزوج من الملكة ازابيل الاولى القشتالية وضم اليه مملكتها وبقية الممالك الاسبانية المتفرقة، فتم بذلك الاتحاد الاسباني الوطني، استولى على مالقة وغرناطة وعلى بقية البلاد التي كانت بيد المسلمين، اخمد بصرامة ثورة القتالونيين وقضى على جميع الحروب الاهلية وأسس ديوان التفتيش المشهور. كان حازماً شجاعاً منظماً ادارياً سياسياً محنكاً. في عهده أكتشفت القارة الجديدة فازدهرت اسبانيا وكثرت ثروتها المادية والادبية فابتدأ يسطع مجدها السامي وعظمتها الخالدة

Isabel la Católica *(1451-1504)*

Isabel I, hija de Juan II y esposa de Fernando V el Católico. Colaboró con su marido en todas sus conquistas y todas sus obras. Se le debe el mayor mérito en el descubrimiento del Nuevo Mundo. Estimuló a Colón y lo ayudó en sus expediciones y descubrimientos, ofreciéndole el dinero y la gente necesarios para la realización de sus anhelos.

هي ازابيل الاولى ابنة خوان الثاني وزوجة فرناندو الخامس كانت ساعدزوجها الأيمن بكل فتوحاته واعماله العظيمة، يرجع اليها الفضل الاكبر في اكتشاف العالم الجديد. شجعت كولمبس وساعدته في مغامراته واكتشافاته وامدته بالرجال والمال، لتحقيق امانيه واحلامه. فكان العالم الجديد، وكانت عظمة اسبانيا ومدنيتها السامية.

ازابيل لاكطوليكا (الكاثوليكية) ١٤٥١ - ١٥٠٤

Sebastián (Don) *(1554-1578)*

Rey de Portugal y sobrino de Felipe II, Rey de España. Ayudó a Maulay Mohamed ben Abdelah «El Masluj» para recuperar el trono de manos de su tío Maulay Abdelmalek el Saadit. Condujo los ejércitos aliados para la lucha contra los marroquíes y los turcos venidos

الضون سبستيان ملك البرتغال وابن اخت فليب الثاني ملك اسبانيا ساعد مولاي محمد بن عبد الله (المسلوخ) لاسترجاع ملكه من عمه مولاي عبد الملك السعدي، قاد الجيوش المتحالفة لمحاربة المغاربة والاتراك

سبستيان (الضون) ملك البرتغال ١٥٥٤ - ١٥٧٨

	en ayuda de Maulay Abdelmalek en la célebre batalla de los tres reyes. Don Sebastián fué muerto, así como Maulay Mohamed, en aquella batalla, en el año 1578 (986 h.)	المنتصرة لمولاي عبد الملك السعدي في موقعة وادي المخازن الشهيرة، قُتِلَ ومتصرخه مولاي محمد في تلك الموقعة سنة ١٥٧٨	
Lorenzo «El Fraile» (460-520)	Santo y mártir español. Fué obispo y era muy virtuoso. Fué muerto alrededor del año 520 de C.	من القديسين والشهداء المسيحيين الاسبان كان اسقفاً فاضلاً، تقياً صالحاً، قُتِلَ حوالى سنة ٥٢٠ م	لورنصو (الراهب) ٤٦٠ — ٥٢٠
Julián	El Conde Don Julián, gobernador de la ciudad de Ceuta en tiempo de la conquista árabe. Es muy conocido. Fué él quien facilitó la entrada de los árabes en España y les entregó Ceuta, por vengarse del Rey Don Rodrigo, el año 91 h.	هو الكندي خوليان حاكم مدينة سبتة عند الفتح العربي، والمشهور انه هو الذي مهد دخول العرب الى اسبانيا وسلّم اليهم سبتة انتقاماً من الملك لذريق سنة ٩١ هـ	يوليان
Nabucodonosor II (605-562 a. de J. C.)	Rey de Babilonia y de Nínive. En el año 586 a. de J. C. atacó a Jerusalén, la quemó y llevó cautivos a Babilonia a los descendientes de Juda.	ملك اشوري اغار على اورشليم فاحرقها وجلا أهل يهوذا الى بابل سنة ٥٨٦ ق م	نبوكدنصر (الثاني)

فهرس وتراجم

أعلام المقدمة

INDICE BIOGRAFICO

de los personajes citados en el prólogo

Pérès (Henri)	Arabista francés, literato e investigador. Desempeña la cátedra de Literatura Arabe en la Universidad de Argel. Escribió varias obras y estudios importantes. Publicó últimamente en París (año 1937) su obra titulada «España vista por los viajeros musulmanes desde el año 1610 hasta 1930 de C.»	مستعرب فرنسي، أديب بحّاثة، أستاذ الآداب العربيّة في جامعة الجزائر، له مؤلفات وابحاث قيمة، نَشرَ مؤخراً في باريس (سنة ١٩٣٧) تأليفه المعنوَن: «اسبانيا بنظر الرحالة المسلمين من سنة ١٦١٠ الى سنة ١٩٣٠م.»	بيرس (هنري)
	Célebre orientalista y conocido investigador. Aprendió el árabe de su padre, el orientalista José Derenbourg, sobrepasándolo. Publicó numerosas obras árabes antiguas, como el libro «El Qui-	مستشرق مشهور وبحّاثة معروف، أخذ العربيّة عن ابيه المستشرق جوزف درنبورغ ففاقه ونشر كثيراً من آثار العرب ككتاب سيبويه مع	

Derenbourg (Hertwig) *(1844-1908)*

درنبورغ (هرتويك) ١٨٤٤ - ١٩٠٨

tab» de Sibawayh, con su traducción al francés. Tradujo también a este idioma «Usama ben Munquid»; hizo una nueva edición de la historia del Tactagui, conocido por el Fajri. En el año 1904 publicó su crítica y observaciones sobre los manuscritos de la Biblioteca árabe de Madrid. Murió el año 1908, teniendo 64 años. Era miembro honorario de la Real Academia de Historia de Madrid.

ترجمته الى الفرنسية وترجم الى لغته ايضاً أسامة ابن منقذ، وجدد طبع تاريخ الطقطقي المعروف بالفخري ونشر عام ١٩٠٤ نقده وملاحظاته على مخطوطات مكتبة مدريد العربيّة. توفي سنة ١٩٠٨ وعمره ٦٤ سنة. وكان عضواً شرفياً في المجمع العلمي التاريخي الاسباني في مدريد.

Es Abú-l-Abbas Ahmed ben El-Mehdi ben Isa el Gazzal el Fasi el Andalusi, secretario del Sultán Maulay Mohamed ben Abdelah y su embajador cerca de Carlos III, Rey de España, en el año 1765-1766.

El objeto de esta embajada fué la conclusión de un tratado y la liberación de los cautivos musulmanes. Cumplió su misión de buena manera y relató su viaje en una obra titu-

هو ابو العباس احمد ابن المهدي بن عيسى الغزّال الفاسي الاندلسي. كاتب اسرار السلطان مولاي محمد بن عبد الله وسفيره الى كارلص الثالث ملك اسبانيا ١٧٦٥—١٧٦٦ م لدرس وتوقيع معاهدات صلح وافتكاك ما بقي من اسارى المسلمين. فقام برسالته خير قيام، وكتب

El Gazzal (Mohamed ben El-Mehdi)

(Fallecido 1191 h.)

lada *Natiyatu-l-Iytihad fil Muhadana ual Yihad.* (Resultado del esfuerzo para la paz y la guerra santa.) Pero esta obra está más conocida por el nombre de *La Embajada Española,* como ya indicamos en el prólogo. Es una obra histórica interesante, conteniendo numerosos asuntos y acontecimientos históricos, importantes descripciones, comentarios y observaciones finas. El INSTITUTO GENERAL FRANCO se ocupa actualmente de su revisión, edición y publicación.

رحلته تحت عنوان: «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» وتعرف رحلته ايضاً «بالرحلة الاسبانية» كما سبقنا بتعريفها بالمقدمة وهذه الرحلة من الآثار التاريخية النفيسة، فيها كثير من القضايا والاحداث التاريخية الهامة والاوصاف والشروح والملاحظات الدقيقة. وتقوم الان «مؤسسة الجنرال فرنكو» بتنقيحها وضبطها ونشرها

الغزال (محمد ابن المهدي) توفي ١١٩١

Escritor y literato español. Investigador e historiador africanista; conocedor de los problemas y antigüedades marroquíes. Es autor de importantes obras y de numerosos estudios y artículos en revistas y periódicos españoles, lo cual es una clara prueba y digno testimonio de su vasta cultura y de su profundo cono-

كاتب واديب اسباني، بحاثة ومؤرخ افريقي، عالم بالشؤون والعاديات المغربية له مؤلفات جليلة، وابحاث ومقالات في المجلات والصحف الاسبانية تشهد له بثقافة عالية ومقدرة وطول باع في العلوم والشؤون المغربية. كان

García Figueras (Tomás)

cimiento de las ciencias y problemas marroquíes. Su libro «*Marruecos*», publicado recientemente, constituye un rotundo éxito y tiene gran eco en el mundo histórico, siendo recibido con gran entusiasmo y admiración en todos los círculos intelectuales.

Desempeña actualmente el cargo de Secretario General de la Alta Comisaría de España en Marruecos y, a pesar de sus trabajos políticos y administrativos, no cesa de investigar, escribir y publicar, con un ánimo infatigable.

En consideración a sus notables servicios intelectuales, fué nombrado Director del INSTITUTO GENERAL FRANCO PARA LA INVESTIGACION HISPANO-ARABE. Se pudo demostrar su gran capacidad, por lo que realizó esta institución científica, en investigación, traducción y publicaciones, bajo su consigna: «*Hemos hecho y no hemos hablado.*»

لكتابه الاخير (المغرب) (Marruecos) شأن عظيم في الميدان التاريخي، فتلقته الاندية الثقافية بكثير من التقدير والتقريظ . وهو يشغل اليوم وظيفة نائب عام المفوضيّة الساميّة الاسبانية في المغرب .

فمع كثرة اشغاله السياسيّة والادارية لا ينثني عن التأليف والبحث، فينشيء ويكتب ويؤلف وينشر بعزيمة لا تعرف الكلل .

وتقديراً لخدماته الثقافية الجليلة قلّد منصب مديرية «مؤسسة الجنرال فرنكو» للتأليف والنشر والابحاث العربية الاسبانيّة فظهرت مقدرته الفائقة بما قامت به هذه المؤسسة العلميّة من تآليف وابحاث وترجمة ونشر تحت رمز شعارها : «عملنا ولم نتكلم»

غرسيافيغيراس (توماس)

Sauvaire (Henri)
(Muerto 1896 J. C.)

Arabista francés. Fué cónsul de Francia en Beyrouth, donde entró en relaciones con intelectuales árabes, aprendiendo mucho de ellos. Dejó numerosas obras orientales, entre las cuales figura un libro que trata de las medidas y pesos árabes. Publicó el libro «*Uyun el-tauarij*», de Mohamed ben Chaker; escribió una historia de las escuelas de Damasco, y tradujo al francés la historia de Jerusalem, Eljalil, el Viaje del Embajador Marroquí, y otras obras.

Frecuentaba España para consultar los libros de la Biblioteca Nacional de Madrid y la del Escorial.

مستعرب فرنسي كان قنصلاً لدولته في بيروت فاجتمع بادبائها وأخذ عنهم، له تآليف شرقية جليلة منها كتاب في المقاييس والموازين العربيّة وكتاب عيون التواريخ لمحمد بن شاكر، ونشر تاريخ مدارس دمشق ونقل الى لغته تاريخ القدس والخليل ورحلة السفير المغربي، وغير ذلك من الاعمال الثقافية الهامة. كان يتردد كثيراً الى اسبانيا بقصد المراجعة والاستفادة من مكتبة مدريد الأهلية ومن مكتبة الاسكوريال الشهيرة.

سوفيير
(هنري)
توفي ١٨٩٦

Alejandro (Papa)

Alejandro VIII, Papa veneciano (1689-1691).

هو البابا اسكندر الثامن من البندقية اعتلى السدة البطرسيّة سنة ١٦٨٩ توفي ١٦٩١

اسكندر
(البابا)
توفي ١٦٩١

Inocencio (Papa)	Inocencio XII, el napolitano. Papa, (1691-1700).	هو البابا انوسنسيوس الثاني عشر النابولي انتخب رأساً للكنيسة الكاثوليكية سنة ١٦٩١ توفي ١٧٠٠	انوسنسيوس (البابا) توفي ١٧٠٠
El-Cadiri (Mohamed ben Et-Tayyeb) (1144-1178)	Es Mohamed ben Et-Tayyeb el Cadiri. Era muy virtuoso y fué gran literato e historiador, de cultura amplia, sabio y sufita célebre. Dejó importantes obras, entre las cuales figura una historia de Marruecos llamada *Nachrul-Mazani*.	هو محمد بن الطيب الحسني القادري كان جليلاً فاضلاً اديباً مؤرخاً واسع الاطلاع عالماً تقياً صوفياً مشهوراً له مؤلفات جليلة منها : نشر المثاني (في تاريخ المغرب)	القادري (محمد ابن الطيّب) ١١٤٤ — ١١٧٨ ﻫ
Carlos III (1716-1788)	Carlos, hijo de Felipe V, de la dinastía Borbón. Era buen administrador y conocedor de los problemas comerciales y económicos. Mejoró las relaciones comerciales con América y las colonias españolas y elevó en su país la industria, la cultura y las bellas artes. Supo tener a su país en la neutralidad durante la guerra entre Francia e Inglaterra, el año 1787.	كارلص بن فليب الخامس من السلالة البربونيّة، كان ادارياً عالماً بالشؤون التجارية عزّز التجارة مع اميركا والمستعمرات الاسبانية كما عزّز في بلاده الصناعة والثقافة والفنون الجميلة، وحفظ بدقة وسياسة حياد اسبانيا في حرب فرنسا وانكلترا سنة ١٧٨٧ م	كارلص الثالث ١٧١٦ - ١٧٨٨

El Kettani (Mohamed ben Yaafar)
(Murió el año 1345 h.)

Mohamed ben Yaafar el Hosaini el Idrisi. Notable y sabio de Fez. Tenía un conocimiento profundo del Hadíz y era además buen literato, historiador y hombre virtuoso. Viajó en Oriente y vivió algún tiempo en Damasco. Volvió a Marruecos un año antes de su muerte. Dejó numerosas obras, entre las que figura *Saluat-ul-Anfas.*

محمد بن جعفر الحسني الادريسي من عيون علماء فاس وسراتها الامجاد، كان متضلعاً من علم الحديث بصيراً بمعانيه، وكان اديباً مؤرخاً فاضلاً جليلاً، ذهب الى الشرق وسكن دمشق الشام، رجع الى المغرب قبل وفاته بسنة، له تآليف قيمة منها: «سلوة الانفاس»

الكتاني
محمد بن جعفر
توفي سنة ١٣٤٥
١٩٢٦–٢٧ م

Gayangos (Pascual) y Arce
(1809-1897)

Arabista y sabio español de gran celebridad. Nació en Sevilla el año 1809 y marchó a Londres, donde escribió varias obras, entre las cuales figura una histórica de los reinados islámicos en España, una traducción en dos tomos grandes de la historia de Al-Maccarri (Nefh At-Tib) y la descripción de los manuscritos de la Alhambra y de sus inscripciones. Publicó, además, varios artículos y estu-

مستعرب وعالم اسباني له شهرة واسعة، ولد في اشبيلية سنة ١٨٠٩ قدم لندن وصنّف فيها تآليف مختلفة اشتهر منها تاريخه للدول الاسلامية في اسبانيا، وترجمته لتاريخ المقري (نفح الطيب) في مجلدين ضخمين ووصف آثار الحمراء وكتاباتها. ونشر ايضا عدة مقالات وابحاث

كيانكوس
(بسكوال)
١٨٠٩ - ١٨٩٧

dios interesantes sobre asuntos árabes. Era muy aficionado a coleccionar manuscritos árabes. Murió en Londres el año 1897.

قيّمة في مواضيع عربية، كان مولعاً بجمع المخطوطات العربيّة. توفي في لندن سنة ١٨٩٧

Boscá Mata (Miguel)

Editor, dueño de la imprenta «Artes Gráficas», de Larache (Marruecos). Son muy celebradas sus impresiones por la limpieza y la excelencia del trabajo. Ultimamente ha adquirido gran fama, habiéndose dedicado a editar las obras árabes que publica el INSTITUTO GENERAL FRANCO PARA LA INVESTIGACION HISPANO-ARABE.

طبّاع فنّان، صاحب مطابع الفنون المصورة في العرائش (المغرب) عرفت مطابعه بالنظافة والاتقان واشتهرت مؤخراً بطبع المؤلفات العربيّة التي نشرتها مؤسسة الجنرال فرنكو للابحاث العربيّة — الاسبانية

بوسكا ماتا (ميشال)

Maulay Mohamed ben Abdelah

(Falleció en el año 1204)

Es el quinto rey de la dinastía alauita. Fué proclamado sultán después de la muerte de su padre. Hubo unanimidad en proclamarlo. Reglamentó las administraciones y los impuestos, y estableció los derechos de aduanas. Vino a Gomara, donde mató a Abu Es-Sujur el Jamsi. Se fué luego a Tetuán en el año 1173 h. y construyó la fortaleza de Martel (Martin). Sostuvo correspondencia con

هو الخامس من السلالة العلويّة الشريفة، بويع بعد وفاة والده ولم يتوقف في بيعته احد، مصّر الامصار المغربيّة ونظّم الضرائب ووضع المكوس. اتى الى غمارة فقتل ابا الصخور الخمسي، ثم جاء تطوان عام ١١٧٧ ه وبنى برج مرتيل، كان يراسل ملوك

مولاي محمد (ابن عبد الله) توفي عام ١٢٠٤

los Reyes de España, con el objeto de concluir tratados políticos y liberar a los cautivos musulmanes. Liberó El-Yadida de las manos de los portugueses en el año 1182 h. En el año 1184 h. cercó a Melilla, teniendo que levantar el sitio sin ningún resultado. Murió el año 1204 en Rabat, siendo su tumba muy célebre.	اسبانيا بشأن عقد معاهدات سياسية وافتكاك الاسارى المسلمين . انقذ الجديدة من البرتغال سنة ١١٨٢ هـ ضرب الحصار على مليلية ثم رجع عنها سنة ١١٨٤ توفي سنة ١٢٠٤ ودفن برباط الفتح وضريحه مشهور

Enrique VIII *(1509-1547)*	Rey de Inglaterra. Se separó de la iglesia católica y fundó el anglicanismo. Era sabio y culto; elevó el nivel cultural en su país y procuró la prosperidad de las letras y las bellas artes. Pero era sanguinario y vicioso, habiéndose casado seis veces.	ملك انكلترا ، انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية وأسس المذهب الأنكليكاني ، كان عالما مثقفا عزز الآداب والفنون في مملكته غير انه كان سفاحا فجورا ، تزوج من ست نساء .	هنريكس الثامن ١٥٠٩ — ١٥٤٧ —

تم طبع هذا الكتاب
في مطابع
الفنون المصوّرة، بوسكا
العرائش (المغرب)
في ١٥ مارس
سنة ١٩٤٠

SE IMPRIMIÓ ESTE LIBRO
EN LOS TALLERES
ARTES GRÁFICAS BOSCÁ
DE LARACHE
Y SE TERMINÓ EL DÍA
XV DE MARZO
DE MCMXL

El viaje del Visir para la liberación de los Cautivos

PUBLICACIONES
DEL
INSTITUTO GENERAL FRANCO
PARA LA INVESTIGACION HISPANO-ÁRABE

SECCIÓN SEGUNDA
TRABAJOS EN ÁRABE Y ESPAÑOL

NÚM. 1

EL VIAJE DEL VISIR PARA LA LIBERACIÓN DE LOS CAUTIVOS

POR EL VISIR
ABÚ ABDEL-LAH MOHAMED BEN ABDELUAHAB
CONOCIDO POR EL VISIR EL GASSANI, EL ANDALUSI

Lo presenta, texto árabe y versión española, el
Profesor Alfredo Bustani

TÁNGER, 1940

PRÓLOGO

He aquí el VIAJE DEL VISIR PARA LA LIBERACION DE LOS CAUTIVOS, obra que por primera vez se presenta a los lectores del idioma árabe, a los eminentes arabistas españoles y a los investigadores y estudiosos de España y del mundo árabe.

Hace unos meses publicamos en la Revista «*Mauritania*» un pequeño estudio sobre este precioso documento histórico que aún permanecía en aquella fecha olvidado en algunos archivos; numerosos investigadores y amantes del estudio de la historia nos pidieron desenterrarlo dándolo a la luz íntegramente y con aquellos comentarios que sirvieran para aclarar algunos pasajes confusos o no ajustados rigurosamente a la verdad histórica.

Para dar satisfacción a estos deseos, y para cumplir al propio tiempo la obligación imperiosa que nos imponen las normas del INSTITUTO GENERAL FRANCO, creado con este fin y para el servicio de la alta cultura hispano-árabe, lo damos hoy en la Serie 2.ª de sus publicaciones.

Para nuestro estudio hemos tenido a la vista tres manuscritos: el de Tetuán, señalado indistintamente con el núm. 1 o con la letra T; el de Banu Buzin de las cabilas de Al-Ajmas al Ulía (Altas) en el norte de Marruecos, señalado con el núm. 2 y la fotocopia del que existe en la Biblioteca Nacional de Madrid, señalado por la letra M. Para la mayor parte del trabajo hemos seguido el manuscrito de Marruecos.

Para completar el estudio le hemos añadido al final varios índices con los nombres de ciudades, aldeas, lugares y personas, men-

cionados en el mismo con sus correspondientes en castellano. También explicamos algunas palabras que se emplean de un modo especial en Marruecos y otras extranjeras que el autor recogió tal como le sonaban al oído.

El estilo de la obra

Su redacción es muy defectuosa; el estilo resulta a veces casi vulgar, el mismo que usaban los escribientes (Kuttab) gubernamentales de su época y como correspondía al escaso nivel cultural medio que entonces alcanzaba su pueblo.

Errores del autor

Son bastantes frecuentes y se derivan, sin duda, de haber recogido sin la debida comprobación noticias o comentarios. Tiene errores históricos y apreciaciones falsas respecto a la religión del pueblo que visitaba; cae en numerosas equivocaciones respecto al cristianismo, sus doctrinas, sus reglas, sus vicisitudes, sus comunidades religiosas, etc. Se saca la impresión, ante la magnitud de algunos de esos errores, y dadas las variaciones que en los distintos textos se observan, que muchos de ellos han sido introducidos por los propios copistas.

Por respeto al valor histórico del manuscrito hemos cuidado de que tanto en su parte árabe como en su traducción se refleje con fidelidad lo escrito por el autor, sin rectificar ninguno de sus errores. Sólo hemos señalado a veces en notas algunos de esos errores históricos y rectificado algunas palabas y expresiones alteradas por los copistas, tal por ejemplo, la confusión que se establece al principio del relato entre *Tarek* ben Ziad At-Tanyi y *Tarif* ben Malek Al Najai.

Entre otros que contiene el texto y algunos de los cuales hemos señalado en el curso de la obra, hemos de notar el error en el que

cae el autor cuando trata de las discordias que hubo entre el Papa y Enrique VIII, rey de Inglaterra, la separación de éste del seno del catolicismo, la fundación de la secta anglicano-protestante y su casamiento, en la vida de su esposa, no obstante las amenazas del Papa, con una mujer de la cual se enamoró; pues todo esto el autor lo atribuye al rey de Francia cuando explica la fundación del protestantismo.

Valor histórico del manuscrito

Tiene el manuscrito un gran valor histórico debido a su sinceridad, fidelidad y sencillez en la descripción de todo lo que el ministro autor ha visto en España, en orden al progreso, civilización y costumbres, de lo que oyó y experimentó en su viaje sobre la evolución de la política de las naciones y las leyes de los Estados; de la consideración, honores y buena hospitalidad que recibió en aquel país, y de lo que hizo para la confirmación de las buenas relaciones, el desarrollo de los intereses comunes, la seguridad de la buena vecindad entre España y Marruecos y la conclusión de tratados entre los reyes de ambos países.

El ministro autor vació en su relato finas observaciones y preciosos comentarios y nos dejó, de la España de Carlos II, un retrato verídico en pequeño, que quizá sea el más próximo a la verdad y de lo mejor de lo que se ha escrito sobre España.

El autor nos muestra también la grandeza de Marruecos en aquella época, el prestigio, celebridad y majestad de reino que poseían sus reyes, lo que Muley Ismael tenía de diplomacia, decisión, grandeza y poder y el mérito laudable que contrajo en la liberación de cuantos cautivos musulmanes quedaban en España y en la introducción de todos los procedimientos eficaces para el bien y la grandeza del imperio marroquí.

Embajada de Al-Gassani y Embajada de Al-Gazzal

Numerosos historiadores árabes y europeos confunden la embajada de Al-Gassani y la de Al-Gazzal y sus viajes a España, llegando incluso a atribuir equivocadamente este «Viaje» al escritor alfaquí Ahmed Al-Gazzal, fallecido el año 1191 h. Sin embargo, la embajada de éste, conocida por *«la Embajada Española»*, fué realizada en el año 1766, correspondiente a finales del año 1179 h. reinando en Marruecos Muley Mohamed Ben Abdelah y en España Carlos III.

El escritor e investigador español D. Tomás García Figueras escribió un precioso estudio sobre una de las etapas de esta embajada, que ha sido objeto de varios trabajos en español, la visita del Gazzal a la ciudad de Jerez (1). En cuanto a la de Al-Gassani, conocida por el VIAJE DEL VISIR PARA LA LIBERACION DE LOS CAUTIVOS, fué realizada el año 1102 h., correspondiente al año 1690-1691 a. p. c., bajo el reinado de Muley Ismael en Marruecos y de Carlos III en España.

El «Viaje» del Visir Al Gassani no ha cesado de ser el anhelo de los investigadores. Ya el arabista francés M. Sauvaire había hecho en su idioma, el año 1884, una traducción de esta obra bajo el título *«Viaje de un Embajador marroquí a España»* (2). Se apoyó para realizar esta traducción en el manuscrito de la Biblioteca Nacional de Madrid (n.º 5304), al cual falta el prólogo del autor y en el del Sr. Gayangos, que es copia del anterior. En su prólogo, M. Sauvaire dice que el autor le era desconocido (3).

(1) Embajada de El-Gazzal (1766). Nuevos datos para su estudio.-Tomás García Figueras.—Larache, Casa de Miguel Boscá Mata, 1938.

(2) *Voyage en Espagne d'un ambassadeur marocain.* Par M. H. Sauvaire. Paris, 1884.

(3) He aquí la misma expresión del traductor «Son nom nous est inconnu» (de l'auteur).

También hemos de indicar el error cometido por la Biblioteca Nacional de Madrid cuando fija la fecha del viaje en el año 1680-1681 (1). Pues la verdadera fecha del «Viaje» es a principios del año 1102 h., correspondiente al año 1690-91, porque los acontecimientos importantes citados por el autor y ocurridos durante su estancia en España se realizaron entre los años 1690 y 1691 de nuestra era, correspondiente al año 1102 h.

Entre los acontecimientos mencionados figuran la muerte del Papa Alejandro VIII, ocurrida en el año 1691, y la elección de su sucesor, Inocencio XII, el napolitano, en el año 1691, la toma de Mons por los franceses, año 1691, la reconquista de Belgrado por los turcos y muchos otros acontecimientos históricos trascendentales, que comprueban la fecha que hemos indicado. También el autor, a través de la obra, menciona varias fechas de su llegada y salida en ciudades españolas, confirmando todas ese año 1102 h.

Asimismo hemos de observar que el conocido orientalista y competente investigador Sr. Derembourg no mencionó el Viaje del Visir Al-Gassani en su obra *Notas críticas sobre los manuscritos árabes de la Biblioteca Nacional de Madrid* (2); trató en cambio con amplitud del viaje del alfaquí Ahmed Ben Al-Mahdi El Gazzal.

El investigador francés M. Henri Pères escribió un capítulo importante sobre el viaje del Visir El-Gassani y su misión en España, en su obra «*España vista por los viajeros musulmanes desde*

(1) Manuscritos árabes de la Biblioteca Nacional de Madrid nº 5304 «Viaje a España de un embajador enviado por Maulay Ismail a Carlos Segundo y observaciones que hace de todo lo que vió. 4º, papel: 108 folios; Foliación castellana; magrebí; algunas mociones; al principio un folio en blanco y en el siguiente del antedicho título en castellano que debajo lleva esta nota: «Esta embajada se hizo por los años 1680 a 1682.—Catálogo de la Biblioteca Nacional de Madrid.»

(2) *Notes critiques sur les manuscrits arabes de la Bibliothèque Nacionale de Madrid.* Por Hartwig Derembourg.—París, 1904.

1610 hasta 1936» [1]. En este precioso estudio el escritor francés nos da una idea general del valor histórico del «Viaje» y de la perspicacia del ministro, y demuestra la sensibilidad, la inteligencia, la atención siempre despierta y la fuerza de observación que poseía el ministro y los que le acompañaron en sus viajes.

Sin embargo, el Sr. Pères cayó en algunos errores, seguramente por no haber leído detenidamente el original árabe; tal sucede, por ejemplo, cuando elogia la redacción del Visir; tal vez se haya apoyado en la lectura de la traducción de M. Sauvaire y los comentarios de otros escritores.

Luego se pregunta el Sr. Pèrez qué ha pasado con los cautivos musulmanes después del regreso del embajador a Marruecos. ¿Los trajo con él o los dejó venir solos? ¿Se comprometieron los españoles a trasladarlos a Ceuta o a algún otro puerto marroquí?

La contestación a estas preguntas nos la darán los días futuros, ligados al esfuerzo de los investigadores y a los flujos y reflujos de la historia. Sin embargo, tenemos algunos Dahires del Sultán Muley Ismael que abren ante nuestros ojos algunas esperanzas, a través de las cuales miramos a este problema envuelto en espesas nubes, que a veces se aclaran dejando aparecer una luz lejana que intenta proyectar sus débiles rayos para ahuyentar la sombra del camino conductor a la verdad y a veces se acumulan más espesas todavía y nos impiden distinguir la verdad y enderezar nuestro juicio.

Pero estamos inclinados a creer que los cautivos musulmanes quedaron en España después del regreso del embajador a Marruecos, así lo demuestran algunos Dahires. Esto fué uno de los motivos que obligaron al envío de Embajadas posteriores a la del Gassani.

En cuanto a la referencia que hace el Visir de la Biblioteca del Escorial, diciendo que la mayoría de sus libros fueron de Sevilla y

(1) *L'Espagne vue pour les voyageurs musulmans de 1610 à 1936.*—Henri Pères.—París, 1930.

Córdoba, no quiere decir que ignoraba la verdad del asunto de la Biblioteca de Muley Zaydan, como dice el estimado investigador, pues son muchos los libros que fueron trasladados de Córdoba y Sevilla a la capital. Una parte de éstos fueron a parar al Escorial.

Es cierto que el núcleo más importante de la biblioteca árabe del Escorial fué la de Muley Zaydan, capturada en el mar en el año 1612 y trasladada a Madrid en la época de Felipe III (1). Pues que el ministro haya descuidado el mencionar esta verdad y haya aceptado la noticia del incendio de los libros, tiene algunos motivos que El-Gassani quiso callar.

Por esto no podemos convencernos de que la Embajada del Gassani y su viaje a España tuvieran por objeto la liberación de los cautivos y la aportación de los libros, sino que existen algunos asuntos importantes, a los cuales no hizo referencia el Visir a pesar de lo que dijo en su prólogo. Pues cuando volvió a su patria, aún el Gobierno Español buscaba a los cautivos.....

Por fin, el ministro El Gassani nos dejó finas observaciones y valiosos estudios sobre la vida social e histórica de las Naciones, sin abandonar el aspecto económico y religioso. Con su pluma sencilla y natural nos dejó un cuadro simbólico, con siluetas delicadas de precioso valor intelectual en el mundo de la investigación y del pensamiento.

Para mayor utilidad de nuestro comentario histórico, lo hemos acompañado de dos breves biografías; una de Mulay Ismael y otra de su ministro El Gassani, autor del «Viaje» que publicamos.

Tenemos la esperanza de que nuestra labor será considerada con justicia y estímulo.

Y Dios, el conductor a la verdad y el único infalible, es nuestro protector.

Alfredo Bustani

Tetuán, Enero 1940.

(1) Muley Zaydan 1012-1037 h. (1603-1628.)

Mulay Ismail

1082-1139 h. (1672-1727.)

Es el Cherif alauita, el sultán victorioso, el conquistador valiente, el administrador decidido y el déspota esclarecido, Abú En-Nesar Mulay Ismail.

Fué aclamado Sultán de Marruecos la noche del miércoles 16 de Dulhiya el año 1082 h., teniendo entonces dieciséis años. Asistieron a su aclamación los notables y virtuosos de Marruecos.

Llevó la labor del reino con fuerza y decisión, obteniendo así la sumisión del país en todas sus regiones. Reprimió la sublevación que inició en Marraquech su sobrino Ahmad Ben Mihrez. También cercó la ciudad de Fez durante quince meses, por haberse negado a su aclamación, hasta que por fin sus habitantes presentaron la sumisión el 19 de Rayab de 1084 h. (1673.)

Cuando Mulay Ismail dominó el país marroquí a costa de largas luchas, consolidó la tranquilidad interior, obligó a los ingleses al abandono de Tánger, año 1684; reconquistó Larache contra los españoles, año 1689, y cercó a Ceuta, se decidió entonces a las conquistas exteriores. Así se apoderó de los confines del Sudán, llegando hasta más allá del Nilo, extendiéndose su reino en el Este hasta la región de Biskra y los alrededores de Tremecen. Los países europeos lo temieron y sus reyes se precipitaron a la conquista de su amistad. El soberano marroquí supo corresponder a esta amistad, con la conclusión de tratados y el envio de embajadores. Más cercano que todos estaba el país español, a cuyo rey, Carlos II, Mulay Ismail envió su visir Mohamed Ben Abdeluahab Al-Gassani Al-Andalusi, autor de este viaje.

El Visir Mohamed Ben Abdeluahab Al-Gassani

(Fallecido el año de 1119 h.)

Dijo El Cadiri en *Nachr Al-Mazani:* «Es el escritor distinguido Abú Abdel-lah Mohamed llamado Hamú ben Abdeluahab el Visir Al-Gassani El Andalusi Al-Fasi.

»Fué escribiente del Sultán Maulay Ismail, distinguiéndose en este cargo. Refiere que cuantas órdenes recibía las redactaba aprendiéndolas de memoria, sin olvidar ninguna de ellas, a pesar de ser muy numerosas. Nuestro señor el Sultán lo envió a España para rescatar a los prisioneros musulmanes en poder de los cristianos y aportar los libros que quedaban en las mezquitas que pertenecieron a los musulmanes. Contó su viaje en un libro que se llama EL VIAJE DEL VISIR PARA LA LIBERACION DE LOS CAUTIVOS.»

Sidi Mohamed ben Chaafar el Ketani, en su obra *Saluat el Anfas,* trató también de la biografía del Visir Al-Gassani de un modo semejante al del Cadiri. Pero añadió calificándolo de «Alfaquí inteligente dotado de conocimientos muy variados». Dijo también «tenía una facilidad sin par para la copia de los libros y cambió la expresión «Al-Maxahed» por «Al-Masached Al-Mahchura» las mezquitas abandonadas.

Luego terminó diciendo: «Murió a consecuencia de una enfermedad en su casa situada en la calle de Er-Ratl en Fez el Karauin el año 1119 h.»

Prólogo del Autor

Loor a Dios.—El que hizo del recreo en los jardines de la história una distracción para las inteligencias y los pensamientos; el que ensanchó los pechos al libre albedrío recorriendo los Estados y los Continentes; el que embelleció los collares de los países con las perlas de sus suntuosas ciudades. Alabemos a su Gloria por cuanto nos hizo conocer de las experiencias de los viajes, tanto como para llenar cuadernos y libros. Agradezcamos su excelsitud, que ha dotado el viajar de la virtud de descubrir los secretos de las maravillas y las maravillas de los secretos. Y que Dios bendiga y salve a nuestro dueño, Señor y Profeta Mohamed, el más noble que cobijan los cielos y sostiene la tierra, poseedor del más amplio y perfecto honor. Que Dios bendiga a sus familiares, los puros y perfectos, y a sus adeptos los elegidos.

Y después:

Siendo que nuestro señor el Sultán, el imam vic-

torioso y magno, el dotado de virtudes que se unen a las de los antepasados y los modernos; de cualidades que desbordan sobre el universo como los mares encrespados; de la magnitud que no ha cesado de buscar ocasiones de grandeza, dedicándose por completo a la protección del país, de sus súbditos, de la religión y de las riquezas, con la espada y la lanza, magnitud que defiende la fuerza del Islam y renueva la tradición de su Abuelo—que Dios le bendiga y le salude—; el Glorioso, ilustre y de noble abolengo, sombra extensa de la justicia, Abu En-Nasr Maulana Ismail Ben Maulana Ech-Cherif, haga Dios duradera su victoria, enaltecido su hogar y elevada su capital; siendo apasionado por renovar las tradiciones, y siguiendo en su establecimiento los métodos más claros; estando su preocupación dedicada a la liberación de los cautivos del poder de los cristianos, para obtener la recompensa prometida para la liberación de los cautivos y lo que sobre esto dispone el Profeta Anunciador; siendo yo de los favorecidos por Dios para estar en su servicio, y aventajado por Él para ponerme de su lado, me envió

—haga Dios duradera su grandeza—a Europa, a fin de traer los cautivos musulmanes que en ella se hallan y buscar los libros de leyes que los musulmanes dejaron en las islas andaluzas, para que me corresponda una parte de la recompensa, pues no es la primera merced que obtuve de su parte.

En virtud de su noble orden y cobijado por la sombra de su Majestad y de su prestigio, me dirigí con la ayuda de Dios hacia aquellos continentes. Allí ví maravillas que hechizan los espíritus y alucinan los corazones. En estas páginas recopilé algunas de estas maravillas para protegerlas contra la pérdida, y las escribí por temor al olvido con la esperanza de que sean útiles a aquellos de nuestros hermanos que las lean, pidiendo a Dios ayuda y fuerza; pues es el dueño de los favores, de la generosidad, de la beneficencia y de la bondad.

Descripción del Puerto de Gibraltar

En el monte llamado Yebel El Fath (Monte de la Conquista), pues desde él se inició la conquista de la orilla andaluza, cuando Tarek, Dios lo tenga en su misericordia, llegó a él. Musa Ben Nosair—Dios le tenga en su Misericordia—había enviado anteriormente a esta orilla varias vanguardias, por orden de su soberano el Ualid Ben Abdelmalek. Aconteció esto cuando Musa era gobernador de Ifrikia de parte del Ualid y Tarek gobernador de Tánger de parte de Musa. Ya existían entre éste y el Conde Julián, gobernador de la parte de este lado de la orilla (1), relaciones y correspondencia, en las que le invitaba a pasar el Estrecho y entrar en la Isla (2). Musa escribió al Ualid informándole de ello, a lo que le contestó que lo intentase con unas vanguardias. Así lo intentó enviando a Tarek, quien saqueó y recogió gran botín y prisioneros, regresando al país de Berbería, donde la guerra contra los bereberes infieles reclamaba su presencia. Cuando éstos entraran a formar parte del Islam, después de un horrible saqueo y extensa cautividad, se extendió el saqueo a los infieles andaluces. Al regresar esta vanguardia, victoriosa, sana y salva, preparó Musa otra que atravesó el mar al año siguiente.

El narrador ha dicho: Cuando el Conde Julián invitó a Musa para entrar en España, éste fué a ver al Príncipe de los creyentes, el Ualid Ben Abdelmalek, informándole de ello. El Ualid lo impidió, diciéndole: «No expongas los musulmanes al peligro.» Contestóle Musa: «¡Oh, Príncipe de los creyentes! Sólo he de enviar a mi servidor Tarek con

(1) Se refiere a Ceuta. Julián era gobernador de esta ciudad.

(2) El autor llama isla a la Península Ibérica. Los autores árabes suelen dar el nombre de isla a toda península.

los bereberes. Si ganan, la victoria es nuestra; y si pierden, nada supone esto para nosotros.» Le autorizó entonces para que así lo hiciese.

Después de esto, el Conde Julián trasladó a su hija del Palacio de D. Rodrigo a Ceuta y, estando Musa ya en Ifrikia, Julián vino a visitarle describiéndole la situación de España, su fertilidad y la proximidad entre sí de sus poblaciones, diciéndole que eran fáciles la derrota de sus guerreros y su conquista. Musa le dijo entonces: «Creo en tu consejo, sin embargo la religión me hace dudar.» Tomó el Conde Julián con él a Tarek y sus hombres y con ellos atacó al país, volviendo después salvos y victoriosos. Musa se tranquilizó y pensó en el envío de Tarek con los bereberes, el cual hizo la travesía partiendo del lado de Ceuta y desembarcando en las proximidades de este monte (Yebel Fath), en una pequeña isla situada frente a la ciudad, que está al pie del monte. Es una isla pequeña, de una milla aproximadamente de largo y ancho, limitada por un gran río que baja de los montes de Ronda y sus alrededores. Estos montes, altos y numerosos, dan frente a los montes del Faths, el Habt y otros del país Bereber. La orilla española recibió el nombre de Yazira (Isla) por causa de esta pequeña isla, a pesar de no ser una isla propiamente ya que su territorio está unido y se extiende hasta Turquía y otros países de infieles, tales como el país de Flandes, Italia y Alemania. No existen en esta isla actualmente edificaciones ni habitantes.

El puerto de Gibraltar (Yebel Tarek) es grande y posee una amplia bahía. Tiene en su entrada una ciudadela inaccesible, bellamente construída y aprovisionada de cuanto es menester en cañones y municiones, estando destinada a pernoctar la guardia y el personal de vigilancia, pues la ciudadela domina a todo el puerto. Por el pie de la montaña se extiende una muralla que, partiendo de la ciudadela, se prolonga de una milla de longitud a lo largo de la orilla del mar y termina en la ciudad, a la cual llegan los barcos. La ciudad es mediana, más bien pequeña; la mayoría de sus habitantes son soldados y personas semejantes. Además,

por su situación extrema no tiene comercio ni población de importancia como las otras ciudades. Frente a ella, en la tierra del Islam, se extiende Ceuta con su fuerte núcleo de población; es la más próxima de todas las ciudades de la otra orilla, ya que la distancia aproximada entre ellas por el mar es de quince millas. La mayor vigilancia y preocupación en esta orilla está dedicada a la costa de Gibraltar, frente al país de los bereberes, pues sólo temen a éste y se ponen en guardia contra él, ya que circula en su historia, y lo tienen como cierto, el que ninguna invasión de España es posible desde el mar si no procede del lado bereber, y que la conquista de la orilla española y la travesía del Estrecho, efectuada más tarde, en la época de los reyes de nuestro Marruecos —Dios les tenga en su misericordia—, sólo se realizaron partiendo del sitio que da frente a Yebel el Fath y a Tarif (Tarifa).

He aquí el motivo de llamarse esta ciudad Tarifa: Siendo Musa Ben Nosair—Dios le tenga en su misericordia—gobernador de Ifrikia, de parte del Ualid Ben Abdelmalek, y Tarek, gobernador de Tánger, de parte de Musa, volvió el Conde Julián de Algeciras. Musa escribió al Ualid dándole cuenta de ello. Este le contestó diciéndole: «Inténtalo con una vanguardia y no comprometas a los musulmanes en un país tan difícil.» Pero le contestó Musa, diciéndole que no había peligro en este país. Volvió a escribirle el Ualid, diciéndole: «Inténtalo con unas vanguardias si el asunto es tal como dices.»

Preparó entonces Musa uno de sus libertos bereberes llamado Tarif, apodado «Aba Zeráa», dotándole de cien guerreros de caballería y cuatrocientos de infantería que, en cuatro embarcaciones, atravesaron el mar y desembarcaron en la costa andaluza, en el sitio conocido hoy por Yazira Tarif (isla de Tarif), llamado así por su desembarque en este sitio. Desde aquí avanzó hacia sus proximidades en dirección de la Isla Verde (Algeciras), en las que hizo prisioneros y ganó un gran botín, regresando sano y salvo.

La parte de nuestro país que está frente al Yebel El Fath, es el

monte Beliunes, conocido por Yebel Musa, la montaña de Moisés. Beliunes era el nombre de una ciudad que aquí existió antiguamente y de la que quedan huellas de muros y paredes; sus árboles, que aún se conservan, demuestran su importancia. Está a unas dos millas al sur de Ceuta. Al oeste también de Beliunes existen unas fuentes de agua agradable conocidas en la antigüedad por el nombre de Ain Al Haiat (Fuente de la Vida); se pretende que es Ain Al Haiat, de la que bebió el JIDIR [1]—sobre él sea la paz—. Frente a la misma fuente existe una roca que, en opinión de algunos historiadores, es la misma donde el criado de Musa olvidó el pescado.

Frente a Tarifa se halla la ciudad de Alcazarseguer, situada en Anyera. Son las más cercanas en todo el Estrecho, pues distan entre sí unas ocho millas aproximadamente.

A pesar de ello, estas regiones no están pobladas en proporción del temor de los infieles, ya que entre la ciudad de Yebel el Fath y la ciudad de Tarif sólo hay un campo inhabitado y el terreno que existe entre ambas ciudades es muy extenso.

Llegamos a este puerto (Gibraltar) la tarde de miércoles, a mediados del mes de Moharrem del año 1102 (1690 J. C.) en el mismo día que embarcamos desde la Alcazaba «Afrac», que domina Ceuta. ¡Vuélvala Dios al Islam! Hallamos en el puerto un barco preparado y provisto de soldados, de municiones y de cuanto material necesitaba. Este barco había sido enviado, según las órdenes del Rey, por el Duque (de Medina Sidonia) residente en la ciudad de Sanlúcar y que es el gobernador de toda esta costa y uno de los más notables cristianos, pues no puede ser gobernador de la costa vecina a nuestro país quien no pertenezca a la nobleza antigua y no tenga el título de Duque o Conde.

Este gran buque, que el citado Duque había enviado por conducto del gobernador de Cádiz, ancló en Ceuta. ¡Vuélvala Dios al Islam! Pero habiéndose levantado un viento del este que hace a los barcos imposible

(1) El Jidir (SAN JORGE).

el quedar cerca de Ceuta o en sus alrededores, lo hicieron volver al puerto de Yebel el Fath, en donde se quedaron esperando un viento que les fuese favorable para su regreso a Ceuta con objeto de recogernos. En Ceuta, los habitantes de la ciudad salieron a recibirnos; con ellos salió el hijo del Capitán y nos dijeron que esperaban la llegada de los barcos que estaban en Yebel el Fath. Le dijimos nosotros que o bien fueran a buscarlo o nosotros atravesaríamos el Estrecho con barcos pequeños que, por su rapidez y velocidad, hicieran breve el viaje. Prepararon para nosotros tres barcos pequeños, provistos de soldados y cañones que los protegían, en los que nos embarcamos navegando con la protección de Dios y su apoyo, durante medio día hasta nuestra llegada al citado puerto, trasladándonos desde nuestros barcos al que estaba destinado para nosotros allí, avanzando hasta las proximidades del Yebel el Fath y pernoctando en el barco. Mediada la noche se encrespó el mar con furia agitándose sus olas y balanceándose el barco de derecha a izquierda, revolcándose como se revuelca un animal, a tal punto que tuvimos miedo y pavor. Duró este estado hasta el amanecer. No es posible recopilar ni describir ni retener los horrores del mar, pues el que lo oye no le daría crédito si no lo viese.

¡Que Dios tenga en su misericordia al que dijo: «Pues cuanto se cuente del mar no es imposible ya que sus misterios y secretos son inacabables.»!

Solicitamos entonces del Capitán del barco que nos devolviese a la entrada del puerto por la que hicimos nuestro acceso, pues era éste un lugar resguardado de los vientos, y el mar en él estaba como una laguna. Restablecida la calma y apaciguado el furor del mar, permanecimos ocho días bajo la fortaleza al amparo del Yebel Fath, en espera del viento de levante que nos fuese favorable para efectuar el viaje a Cádiz como era nuestra intención y deseo y en cuya ciudad ya los cristianos estaban prestos a recibirnos y reunidos a tal efecto.

Durante nuestra permanencia en el citado puerto, su gobernador

nos hacía objeto de toda clase de atenciones obsequiándonos diariamente con frutas secas y frescas, excusándose siempre de negligencia, pues en poco tenía todo lo que hacía con nosotros, hasta que, mediada la noche del miércoles, octavo día de nuestra permanencia, uno de nuestros acompañantes percibió el viento de levante. Nuestro amigo de referencia conocía bien las cosas del mar, por sus muchos viajes marinos, y aunque el Capitán del barco se encontraba dormido, le despertamos, haciéndole saber que ya el viento se había levantado. Inmediatamente nos dispusimos y salimos de nuestro sitio, encontrándonos frente a la ciudad de Tarif cuando llegó el alba. Es esta una ciudad mediana, situada en la costa del mar y en un bello paraje. Su nombre es debido a que la ocupó Tarif, según ya hemos dicho anteriormente; y de nuestro país la ciudad que se encuentra frente a ella es la de Alcazarseguer. No cesamos de navegar durante el día siguiente y al rezar el Dohor, dimos vista a la ciudad de Cádiz. Es esta una ciudad grande, situada en una isla sobre el mar, con un camino que la une con la tierra, rodeándola el agua por sus siete octavas partes. Tiene un gran puerto cuya amplitud no es posible calcular y al que acuden numerosos barcos grandes y pequeños. Como es una ciudad tan grande, a ella se dirigen viajeros y comerciantes de todas partes y de todos los pueblos y ciudades que le son próximos y limítrofes con objeto de comprar y vender mercancías y para trabajar. Se reunen en el puerto embarcaciones pequeñas que acuden a la ciudad trayendo material y numerosos alimentos, o frutas y otros productos cuyo número no es posible detallar. Cuando sube el sol, las barcas se deslizan como si estuviesen dotadas de alas o quisieran ser como las cabelleras de las gacelas y, semejando círculos como la luna en su cuarto, se extienden en la superficie del mar como grupos de negros caballos en tropel. ¡Gloria al Rey creador y poseedor del Mundo Supremo!

Cuando el gobernador de la ciudad vió en este día soplar el levante que nos llevaría hacia ellos, se dispuso nuestro recibimiento con gran presteza y esplendor. Reunieron los soldados y caballos que tenían, pre-

pararon sus cañones de mar y de tierra y salieron hacia el mar a esperar nuestra llegada. Cuando nos hallábamos a unas dos millas del puerto, llegó hasta nosotros un Capitán en una de las embarcaciones del gobernador, la cual había sido engalanada con toda clase de colchonetas y telas de seda, y en la que iba colgada una bandera del Rey. Subió a nuestro barco el Capitán, dándonos la bienvenida y en bellas palabras disculpó la ausencia de su representado, que quedó en la ciudad preparándose para nuestro recibimiento. Descendimos de la nave grande en las barcas pequeñas y nos dirigimos a la ciudad. Allí estaba el gobernador de pie en el extremo del muelle y con él también estaban presentes todos los habitantes de la ciudad, hombres, mujeres y niños. De toda ella no dejó de asistir quien supiera tocar un instrumento o cantar, como tampoco quedó cañón en las murallas de la ciudad o en los barcos grandes al cual no se hiciera disparar.

El citado gobernador nos recibió con todo esplendor, mostrándonos su alegría por nuestra llegada, recibiéndonos también todos los musulmanes, hombres, mujeres y niños, cautivos que había en la ciudad. Estos se alegraban y proclamaban su profesión de fe, bendiciendo al Profeta (¡que Dios le bendiga y le salve!), dando gritos de júbilo para nuestro Señor el Victorioso por la gracia de Dios. Hablamos con ellos y les prometimos que todo se arreglaría ya que nuestro Señor—hágalo Dios victorioso—no les abandonaría mientras que gozara del favor divino. Fué para ellos este día de gran fiesta por la llegada de la buena nueva que Dios les enviaba por mediación de nuestro poderoso Sultán, y sobre todo cuando supieron que nuestro Señor no tenía, al reunir a los cautivos cristianos, otra intención que la de liberar a los musulmanes que se encontraban en poder del enemigo infiel. ¡Que Dios les confunda! Con gran satisfacción comprendieron la buena intención que el Rey abrigaba respecto a ellos. Que Dios conserve su vida y haga perdurar su existencia.

El gobernador nos hizo entrar en la ciudad y nos dirigió hacia una gran casa destinada para nuestro hospedaje, haciéndonos presentar toda

clase de alimentos. Durante aquel día y toda la noche, tanto él como los notables que le acompañaban, no cesaron de atender a todas nuestras necesidades. Seguidamente empezó a preguntarnos sobre el objeto de nuestro viaje y si teníamos posibilidad de permanecer en su ciudad para descansar algunos días. Le dijimos que no nos era posible permanecer en ningún sitio sino que teníamos que llegar a donde nos dirigíamos y cerca del Rey del cual éramos enviados. A esto nos contestó: «Este es el deseo de nuestro Señor y Rey, y él cuenta alegremente con vuestra visita y espera vuestra llegada rápidamente.»

Nos pusimos de acuerdo para emprender el viaje al día siguiente. Entonces nos trajo dos coches y nos llevó a la ciudad, que recorrimos calle por calle. Es una ciudad grande y bien poblada; en sus mercados abundan los comerciantes, los artesanos y los hombres que se dedican a compra y venta. Además no tiene muralla, excepto por la parte que da al puerto; por las restantes, sus murallas son el mar, el cual, por su poca profundidad y las muchas piedras que allí existen, impide el acceso de los buques.

Al día siguiente, el citado gobernador y las personas de relieve que con él estaban amanecieron haciendo los preparativos para nuestro viaje, y, como de costumbre, salieron todos los habitantes de la ciudad, soldados, jinetes y otras gentes, para despedirnos después de haber enviado un aviso de nuestra llegada al gobernador de Santa María, a fin de que preparasen el sitio donde nos iban a hospedar. En la mañana del día que nosotros salimos de Cádiz, mientras hacíamos nuestros preparativos para el viaje, se nos presentó uno de los monjes cristianos que se había criado en Constantinopla, el cual nos informó de la victoria obtenida, con la ayuda de Dios, por el Ejército de los musulmanes y que el Sultán Seliman—¡que Dios le ayude!—había ocupado la ciudad de BIR EL AGRAD (Belgrado) y sus alrededores y que además se cuidaba de reconstruir todo lo que se había destruído en sus edificaciones, así como en la restauración de las murallas que habían sido destruídas, poniendo

mano a la obra de reconstrucción, empleando unos doce mil obreros y albañiles. Recibimos con gran alegría la noticia del triunfo que Dios concedió a los musulmanes. Los cristianos veían también en la reconquista de esta ciudad una gran fuerza para el Sultán, a quien grandemente ensalzaron.

Salimos hacia el mar encontrando dispuesta, tal como la dejamos, la barca que nos había desembarcado de nuestro buque. En ella pusimos pie y con el poder de Dios Excelso nos dirigimos a la ciudad de Santa María, que se encuentra a unas seis millas, de modo que no hubo transcurrido una hora cuando ya tuvimos la ventura de estar frente a dicha ciudad. Allí encontramos un escuadrón de caballería compuesto de unos cien hombres que se aprestaron a nuestro recibimiento haciendo muestras de alegría y contento. Cuando anclamos en el puerto de Santa María, vimos en la orilla una gran muchedumbre de hombres y mujeres, habiendo acudido también para nuestro recibimiento el gobernador de la ciudad y su juez, acompañados de dos coches para subirnos en ellos. Al encontrarnos con ellos nos hicieron objeto de un hermoso recibimiento y cortesía, digno de reconocimiento. Entramos en la ciudad recorriendo sus casas, calles y mercados. Es una ciudad grande, ancha y espaciosa, teniendo sus calles empedradas; es una de las capitales de la orilla andaluza y uno de los centros a donde se dirigen las actividades y el comercio. A pesar de esto, no tiene muralla que la separe del mar; tampoco tiene muralla en su otra parte unida a la tierra. En su extremidad del lado del mar existe una casa grande, cuya puerta de entrada ha sido tapiada. Es la casa en la que se hospedó el Sultán Ech-Cheij, hijo del Sultán Ahmed Ed Dahabi, llamado Ad-dajel porque entró en España; está inhabitada actualmente, puesto que es costumbre de los cristianos el respetar la casa que ha servido de alojamiento a un Rey, tapiando sus puertas para que no la habite nadie y siendo señal de esto el tapiado. Así hicieron en Madrid en una casa que hasta la actualidad no ha sido ocupada desde los tiempos de Carlos V, el cual había ven-

cido en una guerra al Rey de Francia y lo hizo prisionero, trayéndolo a la capital de su reino, Madrid. Fué en esta casa donde le hospedó, reteniéndolo en su poder cierto tiempo hasta que se dignó concederle la libertad, conservando dicha casa en la misma situación, tapiándose sus puertas. Esta casa es muy célebre y conocida.

Cuando llegamos a la casa destinada para hospedarnos en Santa María, llegaron sus habitantes y sus notables para saludarnos y darnos la bienvenida, con tales muestras de agrado y con tal hermoso recibimiento y contento que no lo tuvo ninguno de los otros. No cesaron constantemente el gobernador y el juez de visitarnos hasta que la noche extendió su manto y embelleció el espacio con la luz de las estrellas. Al día siguiente, cuando amaneció, vino a vernos uno de los caballeros del Duque, gobernador de esta costa, que reside en la ciudad de Sanlúcar, quien nos presentó disculpas al no asistir él, por una enfermedad que le impedía llegar hasta nosotros. Aceptamos sus disculpas y salimos de la ciudad, habiendo salido nuevamente sus habitantes para despedirnos. Salieron el juez y el gobernador ya citados, acompañados del escuadrón de caballería, con su Capitán, que vinieron acompañándonos durante unas tres millas hasta llegar al límite que separa su región de la de Charich (Jerez); allí echaron pie a tierra los notables y todos los que nos acompañaban, despidiéndonos y presentando sus excusas y que era poco lo que habían hecho, diciéndonos:

«Este límite nos separa del gobernador de la ciudad frente a la cual nos hallamos; si pudiéramos continuar, iríamos con vosotros durante todo el día como prueba de consideración y veneración al que os envía.» El objeto de su expresión era como el dicho de: «Por un solo ojo, a mil se le hace el bien.»

Nos despedimos de ellos, continuando nosotros nuestro viaje hasta que llegamos a la ciudad de Jerez. En los alrededores de ésta hay un amplio terreno que contiene una cantidad innumerable de árboles regados por ríos; se ven allí olivos, jardines, viñas y todas clases de plantas.

Jerez es una ciudad grande, amplia, en la que existen vestigios de una civilización antigua, pues quedan aún huellas de sus murallas; pero su mayor parte está en ruinas porque los cristianos no se cuidan de la construcción de murallas y fortificación de las ciudades, excepto algunas de ellas próximas al mar, como Cádiz, por la parte que da al puerto, la ciudad de Yebel Fath, que tiene una fortaleza y murallas no altas porque están construídas sobre el mismo mar.

La ciudad de Jerez tiene el sobrenombre *de la Frontera,* cuyo significado es este mismo, entendiéndolo así por ser y dar vista a la tierra del Islam. ¡Hágalo Dios Fuerte! La mayor parte de sus habitantes son descendientes de los musulmanes de España que se cristianizaron. Son gentes labradores y agricultores. La cruzamos al medio día y no cesamos de caminar durante todo este día hasta que llegamos a una ciudad cuyo nombre es Briyah (Lebrija). Es una ciudad pequeña con matiz rústico en la que se conservan restos de murallas destruídas también. Nos recibieron su gobernador y su juez y nos hospedaron en la casa de uno de sus notables poniéndose todos a saludarnos.

Fué allí donde uno nos dijo con leves indicaciones, puesto que no podía declararlo de otra manera, que era descendiente de una familia musulmana de España. Desde luego, la mayor parte de sus habitantes proceden de los musulmanes españoles. Pero como se criaron en el centro mismo de los infieles, han sido vencidos por la desgracia. ¡Que Dios nos libre!

Al día siguiente continuamos nuestra marcha hacia una ciudad llamada Trirah (Utrera), cuyos alrededores son de un terreno amplio y poblado por cortijos de labor y ganado. La mayor parte de ganado lanar andaluz es blanco y negro. A unas dos o tres millas a la izquierda del caminante, cuando se dirige desde Briyah (Lebrija) a Trirah (Utrera), se halla el río Uad el Kebir (Guadalquivir), que baja de Sevilla y en el cual se reunen las aguas de todos los ríos de Andalucía; es navegable para las embarcaciones en un recorrido de cuarenta millas desde el Océano Atlántico hasta Sevilla.

La ciudad de Trirah (Utrera) es mediana, ni pequeña ni grande, y la mayor parte de sus habitantes proceden de los andaluces musulmanes. Llegamos a ella en la tarde de este día; encontramos a todos sus habitantes que salían a pedir agua, llevando cada uno una cruz al hombro; en este estado nos recibieron no pudiendo faltar a ello. Nos hospedamos en una gran casa que domina la mayor parte de la ciudad. Cuando dejaron las cruces, volvieron nuevamente a saludarnos con agrado y contento. Sus habitantes son de una gran prestancia y lo más notable de ellos es la belleza en hombres y mujeres. Por cierto que vimos dos muchachas: la hija del gobernador y la del juez, de una belleza, preciosidad y perfección, que nunca vieron mis ojos en toda España mujeres más guapas. Eran de origen andaluz, de la sangre del último Rey de Granada, que perdió esta ciudad y que es conocido entre los cristianos por el «Rey Chico».

A propósito de esto, en la ciudad de Madrid, un hombre llamado Don Alonso, nieto de Musa, hermano del «Rey Chico», me informó que las dos jóvenes de Trirah (Utrera), eran de su sangre. Este Don Alonso era un hombre de bello aspecto, de buen carácter, fuerte y valiente; era muy conocido entre los cristianos y tenido por uno de sus mejores y más valientes caballeros, de espíritu decidido y arrojado. Capitán de Caballería al que los cristianos reconocían gran valor. Sin embargo demostraba simpatía hacia los musulmanes que encontraba, les refería su ascendencia, mostrando gran contento cuando oía noticias del Islam y de los que lo profesaban, pues me llegó a contar que su madre, cuando estuvo embarazada de él se le antojó comer el «alcuscus», diciéndole entonces el padre: «No vaya a ser que la preñez que tienes en tu vientre sea un gran señor de los musulmanes», con lo cual bromeaba, pues no le disgustaba su ascendencia, ya que la conocían y sabían que procedían de la Casa Real. ¡Que Dios nos preserve del error y que nos dé la perseverancia en el camino de la rectitud!

Como mayor prueba de alegría, los habitantes de Trirah (Utrera),

en la noche que pernoctamos en ésta, nos trajeron un grupo de los frailes que mejor cantan en sus Iglesias, aportando éstos los instrumentos de música. Entre éstos había uno que llaman el arpa: tiene muchas cuerdas y se parece a un telar; pretenden que este era el instrumento del Profeta David. ¡Que sobre nuestro Profeta y sobre él sea la bendición de Dios y la paz! Yo he visto un retrato de los que ellos colocan en sus habitaciones y en sus casas, pretendiendo que es el retrato de David, pues todas sus historias y su religión, están tomadas de la religión israelita y de la Biblia, salvo, según pretenden, la diferencia que resultó entre ellos y los hebreos cuando éstos prendieron al Mesías y lo mataron. Desde entonces, no han cesado de introducir en su religión y en sus falsas creencias lo que les relata el Papa en Roma. (Aquí una frase difamatoria contra el Papa.)

Entre la ciudad de Trirah (Utrera) y Marchinat (Marchena) hay una distancia de unas veinte millas, cuyo espacio es de un terreno próspero y feraz, no habiendo en este país andaluz más montes que los que quedan situados a la derecha del caminante y que aparecen a la vista, como los montes de Ronda. Entre ambas ciudades cruza un río grande sobre el que hay un bello puente de hermosa construcción que data de la época de los musulmanes, y es en este río donde se desarrolló la batalla de Zalaca. También existe una pequeña Iglesia, en cuyas paredes figura un grabado de la referida batalla. La ciudad de Marchena es una ciudad mediana, en la que se conservan también huellas de la antigua civilización, pero en la actualidad es más bien una ciudad rústica. Sus habitantes son agradables y algunos de ellos se atribuyen su descendencia a los andaluces musulmanes. Desde esta ciudad a la de Azijah (Ecija) hay una distancia de veintiuna millas, siendo todo este terreno fértil y en él abundan huertas y jardines, en su mayoría árboles y olivos. En la ciudad de Marchena, por la parte que da a Azijah (Ecija) hay unas ocho millas, donde abundan los olivos y en cada bosque de estos hay una casa que sirve para almacén de aceitunas y como vivienda para los

que están encargados de los bosques. Igualmente, a partir de Azijah, por el camino de Marchena, hay olivos en un recorrido de ocho días y de los cuatro lados del caminante, pues Andalucía es, en la otra orilla del Estrecho, la región más rica en árboles y olivos. Cerca de la ciudad de Azijah, en una colina que domina la ciudad, existen vestigios de una antigua construcción reformada; se pretende que era la residencia de un santón musulmán y que fué conservada en su estado antiguo, por lo que han visto de las gracias del santón. Cuando nos acercamos a la ciudad de Azijah vimos desde ella un hermoso paisaje, sin igual en las otras ciudades de la Península, ya que queda situada en un bello rincón a la orilla del río llamado Uad Chinil (Río Genil).

Este río, desde el sitio que comienza, Uad y Ach (Guadix), tiene lugares de recreos, jardines y bellos paisajes que ocuparon las inteligencias de numerosos autores andaluces. Sobre él se han compuesto un número incalculable de poesías de todos los ritmos y medidas. De ellas recordamos lo dicho por Atir Ed-Din Abi Ḥaian, que, hallándose en Egipto, expresa su nostalgia hacia Granada y describe sus viviendas en ella, mostrando su dolor y llorando por sus centros e instituciones:

«¿Recuerdas aquellas casas en el Ahbal y aquellas otras alineadas en las dos orillas del Genil?

»¿Recuerdas aquellos paisajes, panoramas y habitaciones reservadas para las moras con sus vestidos largos?

»Donde florecieron las flores en los jardines, aspirando entonces un aroma más delicioso que el sándalo.

»Donde los pájaros cantan con la elocuencia del trino encima de las finas ramas que se mecen removiendo el dolor del enamorado y haciendo verter sus lágrimas.»

Aún los cristianos lo llaman por su nombre primitivo. Un gran río que desciende del valle de Ach y del valle del Genil, en los alrededores de Granada y sus montes. Sobre este río existen innumerables bellos lugares de recreo, huertas, jardines, molinos y toda clase de plantaciones,

siendo esta parte de toda la región andaluza, lo más bello que hemos visto como paisaje y recreo. La ciudad está situada a la orilla de este río con todo lo que la rodea de huertas y jardines, constituyendo el espacio de toda su vegetación un cielo rodeado por sus astros.

Por cierto que la belleza de este río y sus hermosos paisajes me recuerdan lo que dijo la poetisa Hamuda la andaluza, la mujer poeta que era de Guadix:

«Mis lágrimas han desvelado mis secretos sobre un río que lleva trazas visibles de belleza.

»¡Qué río circula en cada jardín! ¡De qué jardín está bordeado cada río!

»Entre las gacelas, una ha cautivado mi alma; ya me habrá robado mi corazón.

»Tiene una mirada que suspira por alguna cosa y esa cosa me impide dormir.

»Cuando deja flotar sobre ella su cabellera, veo la luna llena en medio de negras nubes, como si a la mañana se le hubiere muerto un hermano y vistiere sus ropas de luto.»

Hamuda es de las poetisas más famosas de Andalucía. Su biografía es muy conocida y tiene el sitio que le corresponde entre las noticias de los poetas y poetisas del Andalus. Es ella quien dice:

«Y cuando los intrigantes lo han rehusado todo, a excepción de nuestra muerte, pues ellos no tienen que temer ni mi venganza ni la tuya.

»Cuando han lanzado sus bandas para coger nuestros entretenimientos y que mis defensores y los que me sostienen se han reducido a un pequeño número.

»Yo los he vencido con mi mirada por las lágrimas, y con el sable, la matanza y el incendio.»

Por cierto que al ver esta ciudad y sus preciosos paisajes he aña-

dido a los dos versos del Yaziri, que me han servido de modelo, otros dos de mi composición:

«Cuando mis ojos vieron su belleza, juré que no se podía imaginar otra semejante.»

He aquí los dos versos que añadí:

«Sálvela Dios, para que su verdadera religión sea allí practicada, quedando ésta preservada de toda inquietud.»

«Por la mano de alguno que reparte justamente las recompensas, es agradable a Dios y desciende de la más eminente de las criaturas.»

Cuando nos encontrábamos cerca de la ciudad, salió el Gobernador en su coche acompañado de sus hijos y de algunos oficiales; éstos montaban caballos que, según pretendían, eran de los mejores caballos andaluces. Nos recibió en las afueras de la ciudad y nos dió la bienvenida demostrando toda clase de alegría y amabilidad. Nos llevó a la ciudad, haciéndonos recorrer todas sus calles, plazas y mercados. La hallamos mediana, con verdadero aspecto de ciudad y muy limpia. Sus habitantes son bellos y de buen carácter. En su centro está la mezquita, de forma magnífica y de construcción perfecta, con naranjos en el patio. Esta mezquita es de la época de los musulmanes y se conserva en su estado antiguo.

Llegamos con el Gobernador a su casa, que es grande y amplia. Fué en ella donde nos hospedó con toda clase de honores y de buen trato, con palabras y hechos. Allí pasamos la noche y al día siguiente salimos de la ciudad, encontrando en su extremo un puente magnífico, alrededor del cual hay numerosos edificios y molinos.

Continuamos luego la marcha hasta la ciudad de CORDOBA.

Es una gran ciudad y una de las capitales de España. Fué antigua residencia de reino y en ella también vivían los Gobernadores del Andalus anteriores a la entrada de Abd er Rahmán ben Muauiya. En el año

168 h. Abd er Rahmán se trasladó desde *Ar-Rusafa,* donde habitaba, a Córdoba haciéndola la capital de su reino y residencia de su imperio y jalifato. Ya había sido la residencia de los reyes Omeyas desde la época de Abd er Rahmán Ad-dájel (el I), y otros de los que le precedieron y sucedieron.

La ciudad está situada al pie de un monte llamado Sierra Morena, a la orilla del Guadalquivir, que desciende de los montes de Baeza, Jaén y otros. Los cristianos lo llaman por el mismo nombre que tenía en tiempo de los musulmanes. Este río es el más grande de toda Andalucía. A él afluyen todos los demás y es el que atraviesa Sevilla desembocando en el mar, por la ciudad de Sanlúcar. En las afueras de Córdoba hay innumerables jardines, huertas y viñas.

Al acercarnos a la ciudad salieron sus habitantes para recibirnos. También salieron los cautivos musulmanes profesando su acto de fe y pidiendo el triunfo para nuestro señor el victorioso por la gracia de Dios(1), repitiendo los niños cristianos lo que ellos decían.

Al entrar en la ciudad, la encontramos grande, muy poblada y provista de todos los oficios e industrias. La mayor parte de los vendedores son mujeres. Fuimos hospedados en la casa del Gobernador. Al día siguiente la abandonamos habiendo visitado su gran mezquita, tan célebre y tan conocida.

Es una mezquita muy grande, y de construcción perfecta. Tiene en su interior mil trescientas sesenta columnas, todas de mármol blanco. Entre cada dos columnas hay un arco montado de otro arco. Tiene catorce puertas, pero muchas de ellas han sido cerradas. Su mihrab musulmán se conserva en su antiguo estado sin ninguna reforma. Sólo le pusieron una ventana de cobre con una cruz delante. No entra nadie allí, nada más que el encargado de la cruz. No se le añadió nada ni en su interior ni en sus paredes. Tiene esta mezquita un patio muy grande

(1) Se refiere al Sultán Mulay Ismail.

con una fuente de agua en el centro rodeada de ciento diez y siete naranjos.

Frente al mihrab, en el patio, se halla el minarete de la mezquita, construído con piedras y que, a pesar de ser muy grande no es tan elevado como el minarete de Sevilla y de Toledo. Está construído sobre una de las puertas de la mezquita que da frente a la Flecha. El techo y las puertas de la mezquita se conservan en su estado antiguo, sufriendo sólo las reformas que necesita el techo para impedir su derrumbamiento.

Los cristianos han hecho en el centro de esta mezquita, frente a su mihrab, una gran cúpula con rejas de cobre amarillo. Al interior de esta cúpula pusieron una cruz y los libros de oraciones a las cuales asisten acompañándola de música. (1)

Las puertas de esta mezquita se hallan en el mismo estado que tenía al ser construída y conservan las escrituras árabes grabadas sobre ellas.

Además, es una de las mezquitas más grandes y más célebres del mundo.

En el año 199 h. el imán Abd er Rahmán I compró a los cristianos por cien mil dinares una iglesia antigua que se hallaba en el sitio donde fué elevada la mezquita, aumentando así su superficie.

En esta fecha puso los cimientos de la mezquita de Córdoba y empezó las obras de construcción y embellecimiento. La construyó del dinero de los habices, gastando en ello doscientos mil dinares. Refiriéndose a esto, dice un poeta:

«Sacó en pro de Dios ochenta mil en plata y oro.»

«Gastándola en una mezquita cuya base es la piedad y cuyo programa es la religión del profeta Mahoma.»

«Verás el oro reluciente entre sus alturas que brillan como el resplandor del relámpago.»

Le hizo entonces siete puertas; pero los reyes omeyas no han ce-

(1) Se refiere a la sillería del coro de la Catedral.

sado de aumentar en su construcción y embellecimiento hasta la época del Manzor ben Abí Aamer.

Sin embargo, anteriormente a él, ya el imán Abd er Rahmán Ben Alhakem ben Hixem ben Abd er Rahmán había perfeccionado la obra de su ascendiente Abd er Rahmán I, elevando el techo de la mezquita. Refiriéndose a esto, su poeta Ibn Al-Muzanna, dice:

«Has elevado para Dios la mejor casa ante cuya descripción la gente queda muda.»

«Se acude hacia ella de todos lados como si fuese la mezquita Al-Haram.»

«Su mihrab, cuando la gente en él se agrupa, parece Ar-Rukn y Al-Mucam.»

Dijo otro poeta:

«Construyó una mezquita para Dios, que nunca se hizo cosa igual; tampoco hay sobre la tierra mezquita que se le pueda comparar.»

«Salvo la que construye Ar-Rahmán [1] y la mezquita que construyó el profeta de los musulmanes, Mahoma.»

«Tiene unas columnas coloradas y verdes como si brillasen en ellas piedras preciosas.»

«Que Dios te conserve sano y salvo y victorioso en todos los asuntos.»

«Ojalá pudiésemos servirte de rescate en todo accidente y que Dios te conserve eternamente entre nosotros para el bien del Islam.»

Abd er Rahmán II es el primero que dió al jalifato en el Andalus su aspecto de grandeza y consideración; y ordenó la construcción de la mezquita de Sevilla y su muralla para defenderla contra las invasiones de los infieles por el Mediterráneo en el año 230 h.

Cuatro años después, Abd er Rahmán II ordenó la construcción de grandes mezquitas en toda España, que fueron edificadas entonces dotándolas de tribunas para los oradores.

(1) Quiere decir Abd er Rahmán.

Sus mujeres se hacían la competencia en la construcción de las mezquitas y en su embellecimiento y en adquirirles bienes, imitando en esto al soberano Abd er Rahmán. Así se construyó la mezquita Tarub, Mayd, Ach-chefa y Metaa.

Tomaba gran interés por los libros de ciencia y de literatura, enviando a Bagdad a su hombre de confianza Abbas ben Naseh Az-zucafi; proveyéndole de gran cantidad de dinero. Este compró numerosos libros raros, siendo Abd er Rahmán II conocedor de lo extraño en el idioma, sabiendo de memoria gran número de poesías árabes y los días memorables en la historia.

Una vez, Hassana At-tamimia (de Banu-Tamim), vino a presentarle una denuncia contra Yaber ben Labid, Gobernador de Olvera: Resulta que el padre de Alhakem había firmado un escrito para Hassana, en el cual le concedía la liberación de sus posesiones incitándola al bien. Ella pidió a Yaber lo que le concedía el escrito; pero el Gobernador se negó a hacerlo.

Entonces, Hassana vino al palacio del imán Abd er Rahmán II, penetró en el patio y simpatizó con una de sus mujeres, quien la hizo llegar a él, estando entonces en un momento de diversión. Al referirle su genealogía, el Sultán la reconoció así como a su padre. Dijo entonces Hassana, improvisando estos versos:

«Hacia el poseedor de la grandeza y de la gloria nos hemos dirigido montados en caballos que se calientan al fuego del sol del mediodía.»

«Para soldar mi fractura, pues es el mejor soldador y para que me defienda contra el opresor Yaber.»

«Pues por el odio que éste nos tiene hemos quedado como el pájaro entre las garras de una fiera.»

«Es propio que ayudes a quien, como yo, está atemorizada por la muerte de Abulaasi, que era mi protector.»

«¡En paz descansa! Si viviese, no hubiese sufrido la agresión del tiempo.»

«¿Puede Yaber borrar lo que que su mano ha escrito? ¡Pues seguramente que así ha cometido un gran crimen!»

Cuando terminó de decir estos versos le entregó el escrito de su padre que la concede la liberación de sus bienes y la incita al bien, contándole todo lo que pasó con Yaber y su negativa en hacerle caso. Abd er Rahmán tuvo compasión de ella; cogió el escrito de su padre, lo besó y lo puso sobre sus ojos, diciendo: «Seguramente que Ben Labid ha rebasado sus límites, y su procedimiento ha sido estúpido. ¿Cómo viola la orden del imán Alhaken mientras nos basta seguir su camino y cumplir, después de su muerte, con sus órdenes? Vete, ¡oh, Hassana!, pues ya lo he destituído por tí.» Entonces firmó un escrito igual al que había firmado su padre. Ella le besó la mano y se fué, habiendo Abd er Rahmán ordenado que se le entregase una recompensa. Desde Olvera le envió una poesía, en la cual dice:

«El descendiente de los Haximitas cumple las mejores acciones del mundo y estimula más que nadie a los que se dirigen hacia él.»

«Cuando en la batalla sacude su lanza, ésta queda preñada de sangre.»

«Di al imán: ¡Oh, tú quien perteneces a la mejor ascendencia, comparando entre padres y ascendientes!»

«Me has hecho justicia y no has consentido mi opresión. Pues he aquí mi agradecimiento permanente.»

«Si me quedo, vivo de tus favores, y si me marcho, ya me has provisto de todo lo que necesito.»

Luego, Abd er Rahmán Alnaser—es Abd er Rahmán ben Mohamed ben Ab er Rahmán II ben Alhakem ben Hixem ben Abd er Rahmán I ben Muauiya ben Hixen ben Abdelmalek Ben Maruan, que son la estrella de Banu Omeya en España—emprendió el engrandecimiento de la Mezquita de Córdoba, y la terminó, teniendo ésta al terminar sesenta y seis arañas y en cada una veinte copas doradas.

En el año 355 h. fué acabada la tribuna de la mezquita de Cór-

doba y elevada en la macsura, siendo compuesta de ébano, de sándalo colorado y amarillo. Costó quinientos treinta y cinco dinares, tiene nueve escalones y pesa treinta y seis mil libras. La ampliación que se hizo en la mezquita costó más de ciento sesenta y un mil dinares. En el año 381 h. Almanzor ben Abí Aamer emprendió una nueva ampliación de la mezquita, haciéndola el doble de lo que era en el tiempo de sus predecesores. La gente rezó en ella el año 384 h., habiendo durado las obras tres años, tomando parte en ellas los cautivos cristianos y los más notables guerreros del jalifato. Construyó en ella cisternas para recoger las aguas de las lluvias que caen en su patio. El número de sus columnas se eleva a mil cuatrocientas, de las cuales hay siete en el minarete y en la macsura.

Frente a esta mezquita se halla la gran alcazaba que era la residencia real de Córdoba y del imperio musulmán en España cuando éste estaba unido, antes de la aparición de los reyes de Taifa—¡Devuélvala Dios al Islam!—. Las murallas de la Alcazaba no han dejado de conservar su antiguo estado de buena construcción y son de la misma altura que la mezquita.

Vista la importancia del edificio de esta mezquita y la elevación de su techumbre, se le adosaron al exterior gran número de pilares a unos diez codos el uno del otro para reforzar las paredes.

Toda la mezquita está rodeada por una construcción de la altura del hombre que proteje la parte mencionada.

Esta mezquita es una de las mejores del Islam. Su celebridad nos dispensa de una descripción más detallada. Se dice que es tan grande como «Al-Masyed Al-Acsa».

Refiriéndose a éste, el autor de «*Nuzhat Al Muxtaq fi dikr Al-amsar ual aqtar ualbuldan ualmadain ualafaq*», dice: «En todo el mundo no hay otra mezquita igual sino la de Córdoba, en el Andalus.» Dice también que el techo de la mezquita de Córdoba es más grande que el del «Masyed-Al-Acsa». El patio de este tiene 200 brazas de largo y 180 brazas de ancho.

En los alrededores de Córdoba, a la orilla del río, hay muchos terrenos de cultivo y pastos para la recría de caballos, porque los caballos de Córdoba y sus alrededores de las regiones andaluzas son los mejores que tienen los cristianos en toda la extensión de España. Por esto, el rey de España prohibió a los andaluces de cruzar un asno con una yegua y quien se descubra violando esta prohibición será castigado con el encarcelamiento, con la confiscación de sus bienes o con otras penas.

En cuanto a los mulos es en la región de la Mancha donde se producen. Esta, que significa señal, es una región muy extensa de una travesía de seis días; su terreno es duro y pedregoso; sólo produce el ajenjo y otras plantas secas. Es la región que separa Andalucía y Castilla la Nueva.

Los mulos de esta región son semejantes a los de Siria o al menos se aproximan a ellos.

Los habitantes de Córdoba son labradores y agricultores. Todas las regiones andaluzas son escasas en agua, salvo sus ríos ya mencionados, y nunca sus habitantes se preocuparon de las acequias y de explotar sus aguas, siendo sus cultivos en terrenos secos, exceptuando los que oímos decir de la abundancia del agua que corre por todo sitio en Granada y sus alrededores.

Sobre este río se hallan gran número de puentes, de construcción perfecta.

A la puerta de Córdoba hay un gran puente debajo del cual quedan restos de otro puente que, según pretenden, había sido construído por los musulmanes y derribado por el torrente hace unos diez años. Los cristianos elevaron encima de él otro puente, teniendo diecisiete arcos.

Alabando a Córdoba y describiendo sus bellezas, un poeta dijo los dos versos siguientes:

«Córdoba sobrepasó a los demás países en cuatro cosas: El puente del río, su mezquita.»

Estas son dos; Az-zahra es la tercera y la ciencia, más importante que todo, es la cuarta.

Desde Córdoba hasta una ciudad llamada El Carpio, hay unas quince millas. Esta es pequeña y se halla sobre una colina, cerca del río. En éste existen ruedas y norias que suben el agua a las huertas situadas más bajo que la ciudad. Sus habitantes son labradores y agricultores, de carácter más bien rústico. En las dos orillas del río hay innumerables aldeas y poblados.

Desde El Carpio hasta una ciudad llamada Andújar, hay veintiuna millas. Esta es una ciudad antigua con vestigios de civilización remota, situada en la orilla del Guadalquivir. En sus cercanías hay, sobre este río, un puente antiguo de la época de los musulmanes. En los alrededores de la ciudad hay innumerables huertas, jardines, olivos y terrenos de labranza. Sus habitantes son labradores y probablemente son descendientes de los andaluces musulmanes y en su mayor parte de los abencerrajes que, según pretenden, se habían hecho cristianos bajo el reinado del sultán Abul-Hasan, último rey de Granada.

Refieren en sus historias que uno de los granadinos, Ben Zukari, presentó al rey una denuncia contra uno de los abencerrajes pretendiendo que éste tenía relaciones con la nuera del rey. Así, éste, irritado contra los abencerrajes que se encontraban en Granada, en su compañía, mató a un grupo de sus notables. Los abencerrajes eran en aquella época los más fuertes del ejército musulmán. Aún después de la conquista de Córdoba y sus alrededores por los cristianos, ellos conservaban su pueblo Andújar y lo defendían. Pero cuando se enteraron de la muerte de sus familiares en Granada, les embargó una cólera, una vergüenza y una irritación tal, que se dirigieron inmediatamente al rey cristiano y abrazaron su religión, saliendo luego en una expedición contra Granada. Más tarde participaron con el rey cristiano en las guerras contra Granada y sus alrededores. ¡Líbrenos Dios de caer en el error teniendo la verdad!

La mayoría de estos cristianizados en Andújar pertenecen a la nobleza; pero no gozan de las mismas ventajas que otorgan los títulos que los cristianos adquieren por herencia como el de duque, conde y otros

títulos. La única ventaja que adquieren hoy de la nobleza, consiste en el derecho de llevar en el vestido una cruz sobre el hombro.

Como cargos, pueden ocupar los de secretarios, gobernadores de pueblos, policías y otros de poca importancia. Pero no pueden ocupar cargos de gran consideración, como dirigir los ejércitos o gobernar las grandes provincias, ciudades y capitales como Sevilla y otras.

De todos modos, son muy numerosos en estas regiones. Los hay quienes reconocen su ascendencia musulmana, otros que no la conocen y otros que la desprecian y pretenden ser naturales de los montes de Navarra. En estos montes se habían refugiado los cristianos que quedaron al ser España vencida y ocupada por los musulmanes. Es un orgullo de poder decirse natural de aquellos montes y de sus alrededores y los gobernadores y funcionarios no desprecian a esta procedencia.

Un día encontré en Madrid a un hombre—cuyo nombre no recuerdo ahora—subido en su coche y acompañado de un grupo de mujeres de gran distinción y belleza, unas jóvenes y otras de más edad. El hombre se detuvo y saludó, demostrando, él y las mujeres, gran alegría y acogimiento. Nosotros le contestamos de la misma forma. Al despedirnos se hizo conocer diciendo que era descendiente de los abencerrajes musulmanes. Más tarde me informé de él y me dijeron que era uno de los secretarios del gobierno, encargado de leer los escritos y oficios que allí se presentan.

Estando en Madrid nos venían a ver, en compañía de D. Alfonso, un grupo de granadinos que ocupan altos cargos en Granada y se decían descendientes de los habitantes de ésta que se hicieron cristianos. ¡Líbrenos Dios!

Nos preguntaban por la religión musulmana y cuando oían las reglas de pureza que dispuso el Islam, manifestaban gran satisfacción por ello, las escuchaban y alababan esta religión ante los cristianos. No han cesado, durante nuestra estancia en Madrid, de venir a vernos, demos-

trándonos toda clase de bondad y cariño. ¡Haga Dios que vuelvan al buen camino y a la verdadera religión!

Desde la ciudad de Andújar hasta la de Linares hay veinticuatro millas. A tres o cuatro millas de Andújar, el caminante abandona el Guadalquivir dejándolo a su derecha, a su bajada de los montes,

Linares es una ciudad mediana, con vestigios de antigua civilización. Una gran parte de su población son descendientes de los andaluces musulmanes. En sus alrededores abundan las minas de plomo, cuyo mineral se traslada a todas las regiones de España.

Cuando llegamos, como de costumbre, a esta ciudad, sus habitantes acudieron a saludarnos. Con ellos venían un grupo de frailes que también nos saludaron y nos pidieron, en nombre de las monjas, de visitarlas. Les prometimos que lo haríamos al día siguiente.

Al salir de la ciudad, por la mañana, pasamos por el convento para visitar a las monjas. Las encontramos al entrar, en una casa vecina a la iglesia, separada de ella por una verja, escuchando la misa en el mayor recogimiento y reserva, desde la pequeña, que apenas tenía siete años, hasta las viejas. Todas ellas son vírgenes y la costumbre en esto es que cada cual que desea el retiro ingresa en el convento destinado a ello, después de jurar y prometer ante testigos que, ingresando en aquel lugar, abandona todo deseo mundano y no le queda ninguna pasión por ningún hombre ni por nada. En estas condiciones entra en el convento y lleva los vestidos severos. Pues la que tiene dinero con él vive y la que no tiene sirve con otra y vive con ella o será mantenida a cuenta de los bienes habices destinados a este fin.

En este convento de monjas nunca penetran los hombres, pues hay unas viejas encargadas de ellas. Si una enferma y necesita el médico se llama a éste, al cual, al entrar, le rodean cuatro viejas que se colocan, una a su derecha, otra a su izquierda, la tercera detrás y la cuarta delante, acompañándolo desde que penetra en la puerta del convento hasta que sale.

El ingreso de la mujer en el convento significa su muerte, pues no le queda interés en ningún objeto mundano, exceptuando la que entra siendo menor; a ésta, cuando llega la mayoría de edad, se la consulta y se le deja la libertad de manifestar su opinión y de disponer de sí misma. Si, después de un retiro solitario, prefiere aquel lugar y dice: «No tengo interés en salir ni en casarme», entonces su aceptación será recogida por testigos y se la hace prometer y jurar que queda en el convento por propia voluntad y que no le queda afección ni deseo por cosa alguna del mundo. Pero si prefiere abandonar el convento y casarse, no se le niega. Las hay que prefieren la permanencia allí por costumbre, otras porque se creen en el buen camino, otras por temor al escándalo en salir habiendo sido ya contadas entre las monjas. En la mayoría de los casos ingresan en el convento por carecer de la dote, que la mujer acostumbra a entregar al marido, habiendo llegado éste a una suma tan grande que sólo pueden pagar las que tienen mucho dinero o gran herencia. Así ingresan en aquel lugar cuando no encuentran dinero suficiente. Las hay también que tienen mucho dinero y son hijas de grandes notables; a pesar de esto, pretenden consagrarse a la vida de devoción, abandonando el mundo; la superioridad y el deseo de figurar dejan el orgullo y la superioridad a sus hermanos u otros familiares e ingresan en el convento, siendo la mayoría de ellas vírgenes.

Hay también otras que sus padres, deseando preservarlas de los vicios mundanos y del escándalo de los deseos humanos, las dejan allí por reserva y preservación hasta que llegue la época de su casamiento y entonces las sacan de allí. Así he visto en el convento de las monjas, en Sevilla, una muchacha muy guapa, de buen tipo y de cara alegre; tenía unos catorce años y llevaba vestidos distintos de los de las monjas. Pregunté por ello y por el motivo de su vestuario, distinto de los demás, y me contestaron que esta muchacha se encontraba allí por preservarla hasta que se casase, habiéndola llevado su padre al convento teniendo veinte meses.

Estas monjas tienen, como los frailes, numerosas comunidades, Las hay de una clase que se llaman descalzas. Su reglamento consiste en no adquirir ni guardar dinero, y viven de limosnas. Hay también una clase de monjas que obedecen a un reglamento estrecho y riguroso. Cuando la mujer desea entrar en uno de estos conventos, se la hace jurar y prometer que no le queda ningún interés en el mundo y que no mira a nadie que no sea del convento, a tal punto que si su padre o su madre desean verla tiene que ponerse en la cara un velo que la impida verlos. Viven con el máximo de humildad y de austeridad, al revés de las que pertenecen a otras comunidades.

Hasta las ventanas que dan a la iglesia para oir la impiedad (1), han sido hechas muy estrechas y en un sitio obscuro. En la parte exterior de la ventana, por el lado de la iglesia, se hallan numerosos ganchos, trampas y clavos que impiden acercarse de noche a la ventana, a pesar de la estrechez de sus agujeros, pues nadie se acerca a ella. Se han hecho estas ventanas pequeñas y en lugar obscuro, de manera que las que se hallan dentro no ven ni pueden ser vistas desde fuera.

Las monjas de esta comunidad, establecidas en la ciudad de Carmona, tuvieron el deseo de vernos, pidiéndonos el Gobernador que las visitáramos. Las encontramos en este estado, con el máximo de austeridad. Después de hablar con ellas y disponernos a marchar, nos dijo una monja: «¿Qué significa esta frase: *Que Dios nos conduzca así como a nosotros en el camino de la salvación?*, pues ¿no sabemos dónde se nos lleva?» Contesté diciéndole: «Al infierno, ¡y qué mal fin!»

Esta comunidad vive en el máximo de retiro y de austeridad. Pero las demás sólo son privadas del derecho de salir, casarse y disfrutar de los vestidos finos y de otros placeres mundanos. Salvo esto, hay gran diferencia entre ellas y las anteriores, que tienen aquella vida tan austera. En resumen, las monjas, como los frailes, obedecen a varios reglamentos, unos austeros y otros fáciles.

(1) Así califica a la Santa Misa.

Entre los frailes, encuentras quien hizo de esta vocación una manera de adquirir las riquezas. Pues si tiene apoyo cerca del Gobierno cobrará miles [1] fingiendo que son para sus necesidades. Hay quien profesa para descansar de las fatigas del mundo y de sus penas, bastándose con la tranquilidad. Los hay quienes hacen de ello un escudo que les preserva de la difamación, pues nadie se atreve a difamar a un fraile ni atribuirle ningún vicio, aunque realmente lo viese. Seguramente que ellos son los descarriados que arrastran a los demás y los alejan del camino de la verdad. Que Dios los extermine de la tierra y la llene de la invocación perpétua de su nombre. Las circunstancias nos han arrastrado a estas reflexiones.

Volvamos a tratar de la ciudad de Linares, en la cual vimos a las monjas. Es, como ya dijimos, una ciudad mediana, con vestigios de civilización. Sus habitantes son de aspecto alegre y como muestra de alegría y de generosidad, se reunieron todos, hombres y mujeres, y trajeron un instrumento de música, teniendo la costumbre de bailar un hombre con una mujer. Cuando un hombre desea bailar, escoge a quien quiere de las mujeres, pequeña o mayor, se quita el sombrero y la invita; así ella no puede negarse a su petición.

Casi todos los habitantes de esta ciudad son labradores y agricultores, de manera que no se encuentra ninguna casa de comercio, pues no está considerada entre las ciudades de algún rango.

Desde Linares nos dirigimos a una aldea llamada Torre de Juan Abad. Es una aldea grande y sus habitantes son más bien rústicos, de un rusticismo parecido al de nuestros bereberes, habitantes de los montes del Fahs y sus alrededores. El día de nuestra llegada a aquel pueblo, salieron a recibirnos un grupo de mujeres que llevaban en sus manos los laúdes y las panderetas a la manera de los bereberes de nuestro país. Sus canciones son distintas de las de los cristianos que viven en las ca-

(1) El autor dice miles sin especificar de qué unidad de moneda se trata.

pitales. Llegamos a esta aldea el día de nuestra salida de Linares, que es también el día en el cual nos separamos de la región andaluza.

Entramos en La Mancha, ya mencionada. Es una región dura y montañosa; tiene muchas piedras, caminos difíciles, bosques espesos, árboles y ríos sin agua por ser una región seca, comparada con la andaluza, aunque sea ésta de poca agua. La planta más corriente que produce es el ajenjo. Su tierra es colorada y sus poblaciones son rústicas, al revés de las andaluzas.

Desde la Torre de Juan Abad—y *torre* significa fortaleza—nos dirigimos hacia una casa de hospedaje, cerca de una ciudad llamada Chiclana, que se halla al pie de un monte, apartada de la carretera. Pues tienen la costumbre en Andalucía y en todas las regiones de España, de poner en cada cierta distancia una *fonda* o una *casa de hospedaje* para los huéspedes y los viajeros. Cuando llega un viajero a una de estas casas se hospeda en ella, encuentra la comida que desea y que puede pagar, cada cual según sus posibilidades; encuentra también la cebada para sus animales y una cama para dormir. Allí come, descansa y da de comer a sus animales, sea de día o de noche, sin necesitar más que pedir lo que desea.

Cuando se dispone a abandonar la fonda, la esposa del encargado o su hija, le trae la cuenta en un papel. El huésped no puede sino pagarla tal como se la presente, sin ninguna discusión. El dueño de la fonda hace esto abonando al Rey un tanto por ciento del ingreso, Así, ningún viajero en este país, ya sea su viaje largo o corto, tiene que dormir al aire libre. Sino que sus viajes se efectúan en un tiempo y espacio determinado, de manera que si sale de tal sitio sabrá que estará para el medio día en tal otro y para la noche en otro, todos sitios conocidos y determinados. Así el viajero no necesita llevar consigo ninguna comida, sino sólo el dinero necesario para sus gastos. Estos son enormes a causa del encarecimiento permanente de la vida. De esta manera encontrarás en España que el hombre que desea vivir sin ningún lujo en comidas y

bebidas, haciendo economía en su vida, a pesar de esta economía, no le basta un escudo diario.

En cuanto al que desea vivir con lujo, éste tendrá gastos enormes.

A pesar de ser España muy poblada y de tener gran número de pueblos, aldeas y ciudades, nadie se atreve a viajar solo en una gran distancia de la Sierra Morena y en toda la región de La Mancha, por temor a los numerosos ladrones que en ellas se encuentran. Por eso los cristianos encargados de acompañarnos estaban bien preparados y no querían que nadie de nosotros se adelantase ni se retrasase por miedo a los incidentes. Cuando encontrábamos un grupo de tres o cuatro personas, preguntábamos a nuestros compañeros por qué aquéllos pasaban en pequeños grupos y nos contestaban que a gentes como estas se les puede tener miedo, porque si encuentran una ocasión en esta región espantosa, hacen lo mismo que los bandidos, sin que nadie pueda descubrirlos.

En cuanto a los bandidos, sólo los hay allí raras veces. A nuestro regreso de Madrid vino a recibirnos en la Torre de Juan Abad un hombre natural de una aldea llamada Orcera, a unas millas de la torre mencionada. Nos saludó dándonos la bienvenida y nos dijo «que tenía gran amistad con D. Alfonso, el nieto del rey de Granada, y que le había escrito desde Madrid recomendándole acompañarnos en este lugar espantoso y le incita a no dejarnos durante nuestra travesía en esta región, donde pueden tener algún incidente.»

Este hombre, fuerte y valiente, había sido de los bandidos de este monte. Nos contó que cuando se dedicaba al bandidaje, el rey de España mandó un batallón de trescientos guerreros para detenerlo. Pero él se escondió en un lado de estos montes. Cuando regresaron sin poderlo detener, volvió a su casa en Orcera, donde vive ahora, sin miedo para él mismo ni para sus bienes. Sólo desea del Rey un escrito con el cual tendrá la seguridad para sí mismo y lo tendrá en su poder como justificante de perdón, porque él, personalmente, no tiene miedo a nada. He visto sus cabras y sus caballos pastar libremente en unas extensiones de

terrenos cerca de la ciudad. Nos contó también los actos de bandidaje que hizo en estos montes, habiendo mostrado ahora arrepentimiento y disposición de no volver a aquello. Me dijo, además: «Si estuviese preparado para el viaje iría con Vd. hasta Muley Ismail, pidiéndole una carta para el Rey de España para obtener su perdón por un escrito que me dejara en tranquilidad. Si de hoy en adelante viene alguien de vuestro país, yo le acompañaré.» Al querer acompañarnos, habiendo venido para esto, le dijimos: «No te necesitamos y es preferible tu regreso a tu casa desde aquí», y le instamos a hacerle regresar. Pero insistió en acompañarnos. Entonces le dejamos para que cumpliese con su deseo, y en vista de la amistad que teníamos con D. Alfonso, nos acompañó con un amigo durante un día, al cabo del cual nos dejó, cediendo a nuestra insistencia de que regresase a su casa.

En estas fondas destinadas a los viajeros hay caballos preparados para los mensajeros y correos del gobierno que atraviesan largas distancias en una hora. Cuando el correo llega al lugar mencionado, que ellos llaman venta, el administrador de ésta lo recibe a la puerta con un caballo ensillado y una copa de vino y dos huevos. El correo toma estos, cambia su caballo con el que se le preparó, y el administrador envía con él un hombre, montado también, hasta que se acerca a las ventas siguientes. Entonces toca la trompeta que lleva para anunciar su llegada. Así, cuando llega, encuentra preparados el caballo, el vino y lo que se acostumbra a tomar. Entregando el caballo que trajo de la venta al compañero para devolverlo a su dueño, toma otro caballo y otro compañero, haciendo lo mismo cada dos o tres etapas.

Así atraviesa las largas distancias en un día. Pues estando en Sanlúcar, ciudad sobre el Atlántico, recibíamos de Madrid las cartas del Cardenal y de los Ministros de la Corte con sólo tres fechas, lo que nos asombraba, siendo las distancias entre las dos ciudades de más de trescientas millas. De la misma manera hacen en todos los países cristianos.

Pero el correo necesita en la primera parada un escrito de puño y

letra del remitente y que atestigua que está enviado a tal región para que el ventero le diese el animal para montar y el acompañante necesario.

Cuando el primer ventero le haya dado esto se considera esta entrega como garantía para evitar que el pretendido correo no sea un criminal que huye y por causa del cual los venteros pueden ser castigados. Así es que después de la primera parada no se necesita ninguna presentación. Hay un precio fijo por lo que se abona por hora como alquiler del caballo y del acompañante.

El ventero se encarga de todo pagando por ello un impuesto determinado al recaudador de impuestos del reino. El correo abona lo que debe por cada estación y el dueño de la fonda paga al principio de cada año el impuesto por explotación de la venta. La mayor parte de los ingresos de los cristianos vienen de los impuestos. Desde esta venta, cerca de Chiclana, nos dirigimos hacia otra venta llamada San Andrés, en la cual se hospedan los viajeros. Cerca de ésta se halla otra y muchos poblados muy habitados.

Los habitantes de estos poblados vinieron todos a vernos, hombres y mujeres. Vino también su gobernador, desde una distancia de tres millas, acompañado de sus hijas mayores, que eran muy guapas, y de otros hijos pequeños. Son gentes más bien de carácter rústico por vivir lejos de las capitales. A unas cuatro millas de esta venta hay un sitio en el cual se hallan un pequeño río y una venta destinada para hospedaje, y una iglesia, a la cual los cristianos acuden de todas las aldeas y ciudades.

Esta iglesia tiene un jardín magnífico, en el cual se halla una fuente de agua agradable y está situada en una llanura tan amplia como abarca la vista.

En esta llanura se establece un zoco, una vez al año, el primer día del mes..... Allí acuden de todas partes los comerciantes y negociantes, animándose el zoco en el centro de aquella región durante quince días. Luego se dispersan y no vuelve el zoco a establecerse hasta

el año siguiente, en el mismo día y mes. Le llaman en su idioma una *Feria*, que significa zoco.

Desde este lugar nos dirigimos hacia una ciudad que se llama Membrilla.

Es una ciudad que revela una civilización antigua. La mayor parte de estas ciudades son hoy aldeas, por tener un aspecto rústico y estar desprovistas de todas las características de la ciudad.

Como los cristianos ¡que Dios los extermine! no se preocupan de la construcción de murallas, y cuando una se derriba no la renuevan, no les quedó a las ciudades otro nombre que el de aldeas. Sus tierras son propias para la labranza; sus aguas no son abundantes, exceptuando las acequias que se hallan en sus huertas y en sus plazas.

A una milla de esta ciudad se halla otra llamada Manzanares. Sus huertas limitan con las de Membrilla. Es una ciudad mediana; sin embargo, es más grande y más adelantada que Membrilla. Cuando nos acercamos a ella vinieron a nuestro encuentro notables de una ciudad que se llama Almagro, a nueve millas de Manzanares. Estos eran yernos y cuñados del cristiano (1) el Halabí, intérprete enviado por el Rey de España como embajador.

Vinieron de dicha ciudad y se hospedaron en la casa de un clérigo primo suyo. El clérigo entre los cristianos es aquel que estudia sus ciencias y no es fraile; pero es semejante a éste en que, como él, no se casa. Su vestuario es distinto del de los frailes y de los demás cristianos. Estos clérigos son los que dicen las misas, que significan rezos, acompañándolas de música, y rezan con acentos y voces armoniosas.

Entre ellos hay quienes se hacen castrar para mejorar la voz y hacerla más dulce y melodiosa.

Pues he visto en Madrid, en el palacio del Rey, dos jóvenes estudiantes eunucos, que éste tenía para leer las oraciones, acompañándolas de los acentos musicales que más le gustan.

(1) El manuscrito Nº 1 dice «el sirio cristiano».

Aquella gente, que vinieron de Almagro, son de los notables de la ciudad y les tienen en gran consideración. El objeto de su viaje era para encontrarnos. Nos saludaron y nos llevaron a la casa de su primo ya citado.

Habían, también, preparado otra casa para hospedar a los cristianos que nos acompañaban, gastando en ella gran cantidad de dinero. Al llegar a la ciudad nos encontramos que era muy bonita. Tenía en su extremidad una alcazaba pequeña y fortificada, provista de una muralla y de unas torres. Esta muralla estaba rodeada de otra menos alta y todo estaba rodeado por un foso de paso difícil, en el mejor estado. La ciudad en sí misma no tiene muralla.

Entramos en la casa del clérigo mencionado, y él, alegrándose mucho, nos mostró todo lo que tenía de cuadros y cosas semejantes, estando orgulloso de ello. Insistió mucho en que tomásemos con él un poco de vino, que alabó mucho, pretendiendo que era antiguo. Le dijimos que aquello no era permitido en nuestra religión y por lo tanto no lo podíamos hacer. Entonces se puso a lamentar el que solamente podíamos tomar agua pura y fresca.

Pasamos la noche en su casa, después de haber traído las mujeres que tenía de familiares, como sus primas y sus hermanas, porque él era soltero.

Al día siguiente, sus primos salieron para despedirnos y nos acompañaron hasta las afueras de la ciudad, volviendo a sus casas y a sus pueblos.

De la ciudad de Manzanares nos dirigimos hacia Mora (que significa la musulmana). El motivo de este nombre es (¡Dios es el más sabio!) quizá porque se haya retrasado más que las ciudades vecinas en hacerse cristiana. Entre las dos ciudades se hallan innumerables viñas, pues la mayor parte de aquel día la hemos pasado entre campos de cepas, porque en casi todas estas regiones no hay más variedad de plantas. Por la poca distancia que hay entre Madrid y estas regiones, sus habitantes

multiplicaron sus cultivos, porque emplean el vino en toda ocasión y en toda comida. La mayoría de sus bebidas es el vino. Pues es raro que halles en todo este país quien beba agua. A pesar de esto, no encuentras a nadie borracho por ser la bebida cosa corriente entre ellos. Este vino que toman, los hay quienes lo mezclan y quienes lo compran en pequeña cantidad puro. Por el gran consumo que de él hacen y por ser Madrid muy poblada de sus habitantes y de los que a ella acuden para vivir y comerciar, se vende el vino a un precio muy caro, y paga, a la puerta de la ciudad, un impuesto de las dos terceras partes de su valor. Pero no les importa esto, porque el vino les es indispensable en todos sus momentos y porque todos lo consumen, hombres, mujeres y niños, en general y en particular, monjes, padres, clérigos, frailes y otros, pues nadie deja de tomarlo.

Mora es una ciudad mediana, más bien pequeña. Sus habitantes son, en civilización, parecidos a los de Manzanares.

Cuando salimos de Mora, después de haber pasado la noche en ella, anduvimos unas quince millas y llegamos a un gran río que llaman El Tajo. Es el río que atraviesa la ciudad de Toledo, situada a unas seis millas a la izquierda del caminante. En este sitio la ciudad aparece desde tan lejos que se extiende la vista, pues está en una colina que domina el río mencionado.

En este sitio, por el cual atravesamos el río, hay una casa del Rey, en la cual éste se detiene cuando viene de caza en este río y en sus alrededores. Por eso se hallan a la derecha, en las dos orillas del río, huertas y árboles espesos. Están éstas protegidas y reservadas a la caza del Rey, pues nadie puede entrar ni cazar en ellas.

Como este camino es el de Madrid, Castilla y otras regiones, y como no había puente para atravesar el río, pusieron una gran cantidad de maderas juntadas las unas a las otras. De las dos orillas del río fueron cogidas con cuerdas. Cuando llega una caravana, un grupo de gente, de coches, de galeras o de carretas, la balsa se acerca a la orilla

del río, el animal la pisa sin fatiga alguna. De la otra orilla un solo hombre tira de la balsa. Pues la persona, sin darse cuenta, estando en su coche o encima del animal, se encuentra haber atravesado el río y se halla en la otra orilla con mucha facilidad. En cambio, se paga un impuesto de poca importancia.

Este río tiene un aspecto grandioso. Le rodean numerosos edificios, aldeas y molinos. Los campos sembrados que le rodean son innumerables. En él también se pesca, aunque en pequeña cantidad.

A seis millas de este río hay una aldea que se llama Bargas. Es una aldea rústica, sin ningún aspecto de ciudad. El carácter más sobresaliente de sus habitantes es su rusticidad. Fué en esta aldea en donde pasamos la noche al atravesar el río y de ella salimos el día de nuestra llegada a Madrid. Pues sólo hay unas veinte millas entre las dos. A unas seis millas antes de llegar a Madrid se halla Getafe. Es una ciudad muy grande. Pero como está muy cerca de Madrid, y ésta, en estos tiempos es la capital y en ella residen los Reyes de España, perdió su importancia.

Llegamos a Getafe al medio día. En ella nos encontró uno de los notables que están al servicio del Rey y que se llama Carlos del Castillo. Le dan el sobrenombre de Conde. Vino en uno de los propios coches del Rey, habiéndolo enviado éste para recibirnos. Pues este Conde es el encargado de la recepción de las comisiones que vienen de países extranjeros musulmanes y otros. Este es el único cargo que ocupa este Conde y por ello cobra un sueldo anual de tres mil duros. Cuando llegó a nosotros, bajó del coche y nos saludó en nombre de su soberano. Después de darnos la bienvenida y de demostrar gran alegría, nos hizo subir en el coche, que nos llevó hacia Madrid. A una milla de ésta encontramos una multitud de gente que salían para recibirnos, unos en coches, otros a pie y otros a caballo

Llegamos a la ciudad. Está situada sobre una colina, en la orilla de un gran río, que desciende de unos montes donde abundan las nieves. Estos montes separan esta región de Castilla la Vieja. Madrid está en la

llamada Castilla la Nueva. En este río abundan las aguas, sobre todo en tiempo del frío, a causa de las nieves que caen en los montes ya citados.

A este río le llaman Manzanares. Tiene dos puentes: uno muy bien construído y el otro destruído por el torrente. Pero están ahora reuniendo materiales para construirlo. Ya se han construído sus pilares y encima de ellos se pusieron maderas fuertes, sobre las cuales atraviesan los coches, las carretas y todo el mundo.

Entramos en la ciudad y la encontramos grande, y de construcción hermosa y de calles amplias. Tiene una población numerosa. En ella vimos a los prisioneros musulmanes. Estaban contentos y alegres y profesaban la xehada (acto de fé de los musulmanes), y pedían a Dios la bendición del Profeta—¡que Dios le bendiga y salude!—y la victoria para nuestro soberano el victorioso por la gracia de Dios (1). Los niños cristianos repetían lo que ellos decían.

Cuando entramos en la ciudad pasamos por el lado de la casa del Rey y lo vimos de pie en una ventana mirando a través de los cristales.

Se nos hizo pasar por unas calles anchas, todas empedradas, hasta que llegamos a una casa cerca de la del Rey. Es una gran casa que él tiene destinada para hospedar a los no cristianos que vienen de países lejanos, pues tienen la costumbre de ser sus huéspedes durante tres días y luego escogen casas que habitan si vienen con la intención de establecerse. Esto es porque los Reyes cristianos acostumbran enviar, a sus similares, mensajeros que llaman embajadores y que están allí como intermediarios entre ellos en las conversaciones y en las demás relaciones. Los enviados de otras razas se hospedan en aquella casa hasta que regresen, como la embajada turca que vino a España hace unos cuarenta años. Pretendieron que era de Estambul, pero la verdad es que vino de la parte de algunos sin escrúpulos que querían desprestigiar a los reyes de Constantinopla.

Tres años anteriores a esto, vino una comisión del país moscovita,

(1) Se refiere al Sultán Mulay Ismail.

país lejano del lado del Polo Norte. Esta comisión visitó al rey de España para pedir a su madre una sobrina suya de Alemania, con la cual quiso contraer matrimonio el rey moscovita. Pero sus familiares se negaron a este casamiento y dejaron el asunto a su tía, enviándolos a España. Este fué el motivo de la visita de la comisión moscovita al rey de España.

Cuando entramos en esta casa, la encontramos grande y bien provista de muebles, ornamentos y de todo lo necesario para la estancia. Hallamos también su administrador, que es uno de los funcionarios del rey, encargado de sus muebles. Nos saludó de parte de su soberano dándonos la bienvenida. En esta casa estuvimos doce días.

Llegamos a Madrid la noche del sábado, el siete de rabí primero 1102 h.

Durante los doce días, el Conde encargado de nosotros, el administrador de la casa y otros notables, venían, mañana y tarde, a saludarnos de parte de su soberano y nos decían que deseaba que descansásemos de la fatiga del camino y que estaba haciendo grandes preparativos para recibirnos.

Transcurridos los doce días, el Conde encargado de nosotros vino a avisarnos de que su soberano estaba ya preparado para la recepción. Nos preguntó sobre nuestra manera de saludar para que le diésemos detalles antes de entrar, porque el Rey no había recibido nunca personas de nuestra religión. ¡Hágala Dios gloriosa! Le explicamos cómo saludamos a nuestros correligionarios y a los que no son de nuestra religión. A éstos, decimos: «¡La paz sea con los que siguen el verdadero camino!», nada más.

Nos dejó el Conde y se fué a contarlo al Rey. Este quedó muy extrañado, pues no estaba acostumbrado a ello. Pero no pudo sino aceptarlo, porque sabía nuestra decisión de no añadir otra cosa.

Volvió el Conde trayendo en su mano un papel donde estaba descrita la forma de entrar, los designados para recibirnos en la puerta, los que están delante de ellos, para que lo tengamos todo en cuenta. Además,

nos dijo: «A tal puerta os encontrará el mayordomo acompañado de tantos notables y de tantos soldados y guardias. En tal otra puerta habrá tantos y tantos y a la otra os recibirán notables como Duques y otros.»

Al día siguiente nos vino a ver a la hora determinada, habiéndose preparado su soberano para la recepción. Y nos llevó hacia el palacio real. Hallamos los habitantes de la ciudad todos reunidos, a tal punto, que nos fué muy penoso el llegar al palacio.

Cuando llegamos a la puerta nos recibió el mayordomo acompañado de notables y soldados. Nos saludó dándonos la bienvenida y nos hizo entrar en la casa que llaman palacio, el cual significa el mexuar. Comenzamos a pasar ante grupos de notables que saludaban, parándose luego cada cual en su sitio determinado, hasta que entramos bajo una gran cúpula; en una de sus puertas nos recibió el primer secretario del palacio.

Es un hombre de muchos años, tan viejo, que su cuerpo está inclinado. Nos hizo un buen recibimiento, estando acompañado de un grupo de duques y condes, llevándonos bajo otra cúpula que comunica con ésta por medio de una puerta. Allí encontramos al Rey, de pie, con una cadena de oro en el cuello, siendo esto costumbre de los reyes cristianos, pues la cadena para ellos substituye la corona.

A su derecha se hallaba una mesa de oro, incrustada de piedras preciosas, que había preparado durante nuestra estancia, después de nuestra llegada, para poner encima de ella la ordenanza del Sultán, por respeto y consideración a su remitente. ¡Hágalo Dios Glorioso! A la derecha de la mesa, había un ministro suyo que se llama el condestable. Es el que lleva la cuenta de los gastos e ingresos y cuida de la casa, la familia y de todos los asuntos particulares del Rey. Es uno de los más notables de la Corte. A la derecha del condestable estaba la esposa del Rey con un gran número de señoras, hijas de notables. A la izquierda del Rey se hallaban otros ministros.

Cuando entramos nos dió la bienvenida, mostrando gran alegría y

satisfacción, haciéndonos objeto de todos los honores. Nos preguntó con interés por nuestro Rey, el victorioso por la gracia de Dios, y cuando lo nombró se descubrió por respeto y consideración. Le contestamos que se encontraba bien, por lo cual dió a Dios las gracias.

Luego le entregamos la carta del Sultán, después de haberla besado y puesto sobre nuestra cabeza. El la cogió y la puso sobre la mesa para ella destinada, después de haberse descubierto.

Después se puso a preguntarnos sobre nuestro estado en el camino y lo que sufrimos de cansancio y de penas. Le dijimos que estábamos bien y le dimos las gracias por lo que hizo él y sus funcionarios que nos recibieron en el camino. Se alegró y mostró gran satisfacción por ello.

Terminando nosotros de hablar, dijo él: «Demos las gracias a Dios por vuestra llegada sanos y salvos. En otro momento volveremos a hablar del objeto de vuestra visita.»

Salimos entonces, acompañándonos para despedirnos los que allí estaban, hasta la casa donde estábamos hospedados.

El Rey es un hombre de poca edad, de unos treinta años, de color blanco, de baja estatura, con cara larga y frente ancha. Se llama Carlos II; por esto se entiende que es el segundo de este nombre en su dinastía. Es originario de Flandes y no es de la descendencia de los reyes de España que lucharon contra los musulmanes y conquistaron a las regiones andaluzas, a Castilla y a otras regiones de este país.

Uno de los primeros de estos reyes, llamado San Fernando—es el conquistador de Granada y sus alrededores de las manos de los musulmanes—tenía su residencia en Sevilla—¡Devuélvala Dios a la comunidad del Islam!—. Cuando murió, dejó un hijo llamado por su nombre, Fernando, y apodado «el Católico». Sucedió en el reinado a su padre, pero murió al cabo de pocos años sin dejar sucesor. Pues a su muerte, tomó el poder su esposa Isabel, hija del rey de Aragón.

Aragón es una de las capitales de esta Península y residencia del rey [1]. Permaneció en el poder varios años, con absoluta libertad en todos sus actos; montaba a caballo, corría y se comportaba como los hombres.

Bajo su reino, uno de los jefes marítimos españoles, descubrió un país de las Indias que hoy está en sü poder. Encontró a sus habitantes en un estado anárquico, como animales, y sin armamentos. La única arma que tenían eran trozos de madera, en las cuales ponían una piedra de fuego, y con ella luchaban.

Al verlos en este estado y conocer su ignorancia, volvió a España informando a la reina Isabel de todo ello. Esta le preparó tres barcos y le acompañó de elementos de caballería y de cañones. Volvióse luego a este sitio que indicó y luchó contra los habitantes del país. Los venció y detuvo a su rey [2].

Aún poseen en las Indias [3], numerosos países y regiones muy extensas de las cuales aportan anualmente lo que les hace ricos. Pues con los productos de este país indio, su utilidad y la abundancia del dinero que de allí se trae, esta raza española quedó hoy la más rica entre los cristianos y la de mayores ingresos. Sin embargo, les domina las dulzuras del progreso y la civilización, y es raro que encuentres en esta raza quien comercie o viaje para negocios como es costumbre de los demás cristianos como los de Flandes, ingleses, franceses, genoveses y otros.

También desprecian los oficios viles, a los cuales se dedican las gentes de clase baja, y se consideran superiores a las demás razas cristianas. La mayoría de los que ocupan estos oficios bajos en España son franceses, porque éstos, como tienen un país en donde se hace difícil el ganarse la vida, emigran a España con el fin de trabajar y hacer fortuna, pues en poco tiempo reunen mucho dinero. Entre ellos los hay que

(1) El autor da a la provincia de Aragón el nombre de capital.

(2) En esta narración, el autor se refiere al descubrimiento de América por Colón.

(3) La costumbre antigua de llamar a América la India.

abandonan su patria y se establecen en España, a pesar de ser la vida cara en este país, pues en ella aumentan los ingresos.

La mayoría de los españoles son funcionarios o militares y desdeñan a la industria y al comercio con la esperanza de poder figurar en la nobleza o, al menos, poder dar este título a sus descendientes si no llegan a obtenerlo para ellos.

Pues es de su costumbre que todos los industriales, comerciantes y artesanos no puedan subir en coche en la capital donde reside el Rey. Si uno de ellos desea ingresar en la nobleza o instalarse cerca de la residencia del gobierno para ser considerado como funcionario, debe dejar los oficios que le deshonran para poder obtener aquel título para sus descendientes. En cuanto a él, personalmente, por mucho que haga, no puede obtenerlo, a menos que sea un comerciante muy rico de los que no manejan balanza ni se sientan en una tienda, como los grandes comerciantes que tienen importantes negocios y fortunas enormes que les dispensan de vender y comprar en las tiendas y los mercados. Pues éste puede ingresar en la nobleza, abandonando totalmente el comercio.

La nobleza, para ellos, consiste en llevar en el vestido una cruz sobre el hombro de una manera determinada. Es un grado muy elevado, que sólo pueden alcanzar los que tienen antigüedad en el cristianismo y cuentan en ello siete ascendientes con testimonio de cristianos de cada época que conocen su padre y su abuelo y han oído de los demás y de los viejos que fulano descendiente de mengano es cristiano, hijo de cristiano hasta el séptimo ascendiente y que no se halla contra ninguno de ellos difamación, tachas ni acusación de ser judío o de otra religión que no sea la cristiana.

Entonces se ordena la imposición de la cruz sobre el hombro después que haya pagado por ella una cierta suma al gobierno y otra a los frailes que le dan el permiso, siguiendo el mismo rito—falso—que ellos.

Pues esta insignia en forma de cruz no puede ser otorgada, como dijimos anteriormente, más que a los que tienen antigüedad en el cris-

tianismo o a los andaluces musulmanes que eran los notables de su pueblo y que se hicieron cristianos por interés. A estos fué otorgada aquella insignia que demuestra su antigua nobleza en el Islam y su prestigio y nobleza en esta falsa religión. ¡Líbrenos Dios!

Volvemos a la biografía de este Rey, citando sus ascendientes y explicando cómo le llegó el reino de España y otros países como los de Flandes, Nápoles y las demás dependencias que están en su poder.

Es Carlos II hijo de Felipe IV, hijo de Felipe III, hijo de Felipe II, hijo de Carlos V, hijo de Felipe el Hermoso. Este era un conde de mucho prestigio en el país de Flandes, donde tenía celebridad y mando. Cuando murió Fernando el Católico, el residente en Sevilla, como ya lo hemos mencionado, sin dejar un descendiente masculino que heredase el trono de sus predecesores y luego murió su esposa Isabel, ésta tenía una hija llamada Juana, que su madre hizo casar con el conde de Flandes, llamado Felipe el Hermoso, que significa en su idioma el bello, pues era muy célebre en su época por su belleza, y así el calificativo de hermoso le quedó como apodo.

Al morir la reina Isabel, escribieron a su hija, casada en Flandes, para que viniese a heredar el trono de sus antecesores. Juana vino con su esposo, Felipe el Hermoso, del cual tenía un hijo llamado Carlos V, es decir, el quinto de este nombre con relación a sus predecesores, porque él es el primer rey de España de esta dinastía. ¡Que Dios purgue de ella a la tierra!

Considerándolo como el primero de la dinastía con el nombre de Carlos, el nieto de su nieto lleva el nombre de Carlos II.

Pues resultó que la hija de Fernando reinó con su marido. Su hijo, Carlos V, creció y fué uno de los reyes infieles más terribles. Tenía firmeza y mucha diplomacia; desde que creció y se hizo mayor, no descansó hasta que llegó al poder. Entonces comenzó las conquistas en todos los países cristianos, viajando, moviéndose y conduciendo los ejércitos por tierra y por mar. Pues han contado sus viajes marítimos

que resultaron más de veinte. El fué quien se dirigió hacia Argel con una escuadra de más de trescientos barcos, llevando consigo los instrumentos de construcción y todo lo necesario de yeso, piedras y obreros, y ancló en ella de noche. Por la mañana, la población se encontró con una fortaleza en las mejores condiciones, habiéndose dispuesto sobre ella los cañones y los aparatos de destrucción. Así se puso a derribar sus murallas, sus casas y sus fortificaciones, encontrándose los argelinos en la mayor dificultad y desgracia y a punto de caer en su poder. Pero Dios —¡alabado sea su nombre!—, no quiso sino dar la victoria a su verdadera religión contra los demás, haciendo que el mar se encrespase y que sus olas se enfureciesen. Así se hundió la escuadra, logrando el rey salvarse con siete barcos y la gente que pudo llevar, sufriendo en el mar enormes penas.

Cuentan que entonces el rey se quitó la corona y la echó al mar, diciendo: «Quien desee llevar la corona, que venga a Argel a tomarla.» De la expedición sólo se salvaron él y siete barcos. Carlos V cercó también a Túnez en la misma expedición que dirigió contra Argel.

La fortaleza que elevó en ésta, es la conocida hoy por el nombre de Borch Muley Hasan. Aún se conserva en buen estado y domina la ciudad, estando a una distancia igual a la que alcanza un cañonazo a la derecha, saliendo por puerta Azun.

Dominó varias regiones del país andaluz, de Francia, Alemania, Valencia y otros. Es él, como hemos citado, quien combatió el rey de Francia, lo hizo prisionero y lo trajo a Madrid, dándole luego la libertad contra un rescate. Pero fué de las buenas cualidades de este rey que, cuando dominó todas las regiones de España y se hizo además rey de Alemania, tuvo un hijo llamado Felipe II, siendo el I su abuelo, el conde que venía de Flandes; Carlos V entregó a su hijo el reino de España, Flandes y Milán y dió a su hermano Fernando el reino de Alemania con el título de emperador. El rey actual es de la dinastía de Felipe II. ¡Que Dios la haga perecer!

Cuando Carlos V entregó el poder a su hermano y su hijo, se retiró a un convento de frailes, haciéndose uno de ellos.

Se pretende que abandonó al mundo y se hizo monje en una ciudad que se llama Plasencia, de la región de Castilla, a unas cuarenta y cinco millas de Madrid.

Su esposa se había hecho monja anteriormente; ésta era la hija del Rey de Portugal y hermana de Sebastián, que vino a nuestro territorio acompañando al hijo de Muley Abdelah, quien le pidió auxilio.

Cuando Felipe II tomó el poder, resultó de los reyes más diplomáticos de su época. También se dirigió hacia los países extranjeros y cercó una de las capitales de Francia, disponiendo contra ella los cañones y los aparatos destructores, con la intención de derribarla. Pretenden que había en la ciudad que cercó una iglesia llamada de San Lorenzo Real, que impidió la llegada de los cañonazos a la ciudad, pues ningún efecto producían en ella. Al prolongarse el cerco y haciéndose necesaria la destrucción de la iglesia, Felipe II prometió construir una más grande bajo el patronato de San Lorenzo. Entonces dispuso los cañones frente a la iglesia y la destruyó, dando así contra la ciudad. Cuando volvió, edificó la iglesia prometida y fué la que llaman El Escorial. Este se halla al pie del monte cerca de Madrid. Es uno de los edificios grandiosos cuya descripción haremos, si es grato a Dios, en el sitio que le corresponda.

Pretenden también que Felipe II se había entrevistado con su tío Sebastián, el rey de Portugal, quien salió hacia Marruecos en el reino del Sultán Muley Abdelmalek, quien le había pedido auxilio. Cuando Felipe se enteró de la decisión de su tío de avanzar sobre el territorio musulmán, se dirigió hacia él y le habló de ello, aconsejándole la quietud, de no exponerse en el territorio marroquí; de aplazar el asunto lo más posible sin comprometer a la ayuda de quien se lo pedía por su ignorancia del terreno, su salida de su Patria hacia otro país que no es suyo y por no tener fuerza suficiente para resistir a los musulmanes.

Pretenden que el que pedía ayuda, le mostraba cartas de llamamiento de parte de algunas cabilas marroquíes y que eran de su parte y de su bando. A pesar de ello, el rey de Portugal insistió en su decisión sin escuchar al consejo de su sobrino ni a sus palabras. ¡Pero Dios dispuso para los musulmanes en esta salida una gran victoria que hace mucho tiempo no se había visto cosa igual! En el día de esta batalla bendita, murió el sultán Abdelmalek a consecuencia de una enfermedad que le había acompañado en el camino cuando se dirigió contra los cristianos, al enterarse de su salida.

Los cristianos mencionan su valentía y su fuerza y dicen que luchó con su espada, a pesar de su enfermedad, hasta que fué vencido por la enfermedad y fué privado de la fuerza que le sostenía en el combate. Entonces murió. ¡Téngalo Dios en su misericordia!

En aquel día también fué muerto su sobrino Mohamed ben Abdelah; asimismo fué matado Sebastián y murieron todos los cristianos que le acompañaban. No se escaparon más que un número muy reducido. El número de los cristianos, según tenemos conocido, era de ochenta mil. Pero los cristianos pretenden que el ejército que acompañaba a Sebastián era de dieciocho mil: doce mil portugueses, tres mil ingleses que vinieron en su ayuda en virtud de un tratado de paz entre ellos, y tres mil españoles que le mandó su sobrino, Felipe II.

Sin embargo, la verdad es lo referido por los musulmanes en cuanto al número citado.

Como el rey de Portugal rechazó el consejo de su sobrino y se expuso al peligro en Marruecos, le acusan de locura y ligereza. Aquella expedición bendita fué el motivo de la decadencia de Portugal. ¡Que Dios la destruya!

En aquella derrota sufrida por los portugueses, murió Sebastián sin dejar ningún descendiente. Sólo tenía dos hermanos: el uno era Cardenal y el otro heredó el trono permaneciendo en el poder pocos días, muriendo luego sin descendencia. Al ser exterminada esta dinastía por la

muerte de Sebastián y de su hermano, pasó la corona de Portugal a Felipe II por medio de su madre Isabel, en virtud de sus leyes que otorgan a la mujer el derecho de heredar el reino cuando no existe un heredero varón.

Sublevación de los moriscos

Bajo el reinado de Felipe II, los moriscos se sublevaron en Granada y sus alrededores, habiéndose enterado de la llegada a Almería de una escuadra venida de Argel bajo el mando del almirante *Habib Raies* y creyendo que éste les defendería. Habib llevó en sus barcos lo que pudo de los habitantes de Almería y sus dependencias, regresando luego a su país. Entonces los moriscos rebeldes se vieron incapaces de mantener la resistencia: unos adoptaron el cristianismo y otros huyeron. Así quedaron durante cuarenta años, hasta la época de Felipe III, hijo de Felipe II. Se dice que el rey de los turcos escribió una carta al ministro de Felipe III pidiéndole su intervención para sacar los musulmanes que quedaban en España, prometiéndole así su amistad y ayuda. El ministro llevó a su soberano la idea de la conveniencia de desterrar a los nuevos cristianizados para evitar otra sublevación.

El rey aceptó el consejo de su ministro y ordenó reunirlos y enviarlos al Africa; se excluían de esta orden los que voluntariamente profesaron el cristianismo y que eran más numerosos que los cristianizados a la fuerza o protegidos por algún personaje para no ser descubiertos. De todos modos, como eran muy numerosos y se habían mezclado con los demás habitantes olvidándose del Islam, ha sido imposible buscar a todos ellos. Resultó que la mayoría de los que abandonaron la Península en aquella época eran de los moriscos que se habían sublevado en Granada y sus alrededores. Los cristianos acusan a este ministro de ser judío, porque su conducta fué perjudicial al cristianismo, al cual quitó un gran número de adeptos por el consejo que dió a su soberano.

La Inquisición

Es muy frecuente en España acusar a cristianos de ser judíos. Por este motivo tienen en Madrid un tribunal llamado la Inquisición, compuesto por doctores y jefes religiosos, todos viejos. Este tribunal persigue a los acusados de judaísmo y al sospechar de alguien ordena su detención y su encarcelamiento, después de confiscar sus bienes y repartírselos.

Cuando el acusado haya pasado un año en la cárcel le someten a un interrogatorio sobre lo que se le atribuye. Si lo niega le piden, como prueba de sinceridad, decir quién lo denunció y entonces presenta tres nombres. Si el denunciador es uno de los tres y el acusado confiesa que tenía con él enemistad, indicando su fecha y motivo y se demuestra la exactitud de esta pretensión, encuentra en esto un argumento de defensa. Así se prolonga el proceso ante este tribunal, hasta que queda olvidado lo que se le atribuye, y entonces sale de la cárcel. Pero si se comprueba la acusación o si él confiesa su veracidad, el tribunal le obliga a abandonar el judaísmo y adoptar el cristianismo. Si obedece al mandato del tribunal lo sacan de la cárcel y lo hacen recorrer las calles para que el público lo conozca, poniéndole sobre el hombro una cruz amarilla como señal de su origen hebraico y de su conversión. Al cabo de seis meses se quita aquella cruz y el interesado queda como los demás cristianos.

Pero, si a pesar de confesar que es judío, o se demuestra por testigos que lo es, se niega a abandonar su religión, entonces lo queman en el fuego sin aceptar ninguna intercesión en su favor. Por este motivo el judaísmo no tiene adeptos en la península Ibérica.

Este tribunal ya mencionado es el encargado de examinar los casos de personas que han sido denunciadas por sus creencias o por algo sospechoso. Pero nadie se atreve a acusar a sus miembros o atribuirles al-

Tarek entró en España. Aún sus descendientes llevan el nombre de Guzmán.

Cuando los portugueses ofrecieron el trono al Duque de Braganza, éste consultó a su mujer, la cual le aconsejó aceptara, diciéndole: «Ser rey una sola noche es preferible a ser duque cincuenta años.» Entonces el duque aceptó la oferta.

En esto estaba de acuerdo con el hermano de su esposa, que vivía entonces en Sanlúcar. Entre ésta y Portugal hay una ciudad llamada Ayamonte, en la cual hay un marqués de la más alta nobleza española, llamado el Marqués de Ayamonte. Este tomó parte en el acuerdo, así como el Duque de Hijar.

Cada uno de ellos quería el trono para sí mismo. Pero Felipe IV se enteró del complot y llamó a los tres, que estaban bajo su dominio, y les envió a Madrid antes de decirles lo que había sabido.

Púsose a hacerles sufrir para que confesasen, pues habían caído entre sus manos algunas de las cartas que se habían cambiado y que demostraban el complot.

El Duque de Medina Sidonia confesó en seguida. Como era amigo del Rey, éste lo desterró a Valladolid y lo destituyó de su cargo de gobernador general de la costa que da frente a nuestro continente (1). ¡Guárdelo Dios!

En cuanto a los otros dos fueron sometidos a muchos sufrimientos, pero no confesaron.

Entonces les llevó a la plaza de Madrid con sus criados y los del Duque de Medina Sidonia, que se habían enterado del asunto. Allí fueron muertos todos.

A consecuencia de esto estalló la guerra entre Portugal y el rey de España y se apaciguó con la muerte de Felipe IV, que le sucedió el año 1666 de la era cristiana, correspondiente al año 1077 de la nuestra.

Felipe IV tenía muchos hijos, pero según las leyes no podían heredar el trono por ser hijos bastardos. Su esposa era la prima del empera-

(1) Marruecos.

guna falsedad o pasión, pues esto sería motivo de su perdición, ya que nadie, ni siquiera el Rey, puede poner en libertad a quien está entre sus manos. Pues si alguien fuese acusado en sus creencias, aunque sea uno de los ministros o generales del soberano, éste no le puede proteger y será detenido donde se halle, aunque sea en la iglesia, con el Rey, o en cualquier otro sitio.

Durante nuestra estancia en Madrid acusaron a uno de los ministros de ser judío, lo detuvieron y lo encarcelaron en Toledo, donde está todavía.

También acusaron en esta temporada a uno de los administradores del Rey y lo encarcelaron con su mujer, sus hijos y sus criados, después de confiscar todos sus bienes, y aún siguen en la cárcel.

Forma parte de este tribunal un representante del Papa de Roma, llamado en su idioma el Nuncio. Son numerosos los acusados de ser judíos en estos países; la mayor parte de ellos son portugueses, descendientes de los judíos que vivían en España bajo la dominación musulmana. Cuando los musulmanes fueron vencidos, estos judíos se hicieron pasar por cristianos, trasladándose a Portugal, donde están en mayor número que en España.

Cuando murió Felipe III, bajo cuyo reino los moriscos abandonaron España, le sucedió en el reino Felipe IV.

Este era de los reyes más diplomáticos. Bajo su reinado se sublevaron los portugueses, ofreciendo el trono de Portugal al Duque de Braganza, separándolo así definitivamente del de España.

El Duque de Braganza es el padre del actual Rey de Portugal. Su esposa era la hermana de un duque de la más antigua nobleza española, llamado Duque de Medinasidonia[1]. Pretenden que su ascendiente D. Alfonso de Guzmán [2] era el gobernador de la ciudad de Tarifa cuando

(1) Gaspar Alonso Pérez de Guzmán, Duque de Medinasidonia, m. en 1664. Era cuñado de Juan de Braganza, que se declaró rey de Portugal.

(2) Alonso Pérez de Guzmán «El Bueno», nacido el 24 de enero de 1256 y muerto el 19 de septiembre de 1309. Guzmán es muy célebre en la historia española por su hazaña en Tarifa, de la cual era alcaide, permitiendo que degollasen a su hijo antes de rendir la ciudad. Pero el autor, equivocadamente, dice que Guzmán era alcaide de Tarifa cuando Tarek entró en España.

dor de Alemania, que había traído a España para casarla con su hijo. Pero éste murió poco después de la llegada de su prometida a Madrid, y luego murió su madre. Entonces, Felipe IV se casó con la prometida de su hijo y de este casamiento nació su hijo Carlos II, el rey actual.

Cuando murió Felipe IV, su hijo era aún menor y su esposa tomó el poder. En cuanto a sus demás hijos, que no tenían derecho al trono, la mayoría de ellos se hicieron monjes. Uno de ellos es el Mufti de Málaga, llamado en su idioma arzobispo. Otro, llamado Juan de Austria, sobresalió en valentía y diplomacia. Durante el reinado de su madrastra y la minoría de su hermano se dirigía a las guerras, dando pruebas de bravura y audacia; y en donde se hallaba su decisión, dominaba a todas las opiniones. Frenó a su madrastra y a los cortesanos y daba órdenes que nunca habían conocido. Justificaba su actitud diciendo que hacía esto en interés de su hermano para cuando fuese mayor y que él no era más que uno de sus servidores. Todos los cortesanos lo temieron y no dudaron de que deseaba el poder para sí mismo.

La reina se dejaba dirigir por un hombre llamado «El Duende» [1]. Disgustado por esta conducta, Juan de Austria lo detuvo y lo encarceló en una fortaleza situada en una colina que domina el pueblo de Consuegra, a dieciocho millas de Toledo. Esta fortaleza, bien defendida, data de la época de los musulmanes, y por su altura domina numerosos pueblos y aldeas de la provincia de Toledo. Tiene dos murallas altas, y en su interior hay una gran iglesia sostenida por un pequeño grupo de frailes. Entré en aquella fortaleza y ví su buena construcción y fortificación, lo que demuestra el cuido de sus constructores en aquella época. ¡Téngalos Dios en su misericordia!

Cuando «El Duende» fué encarcelado en esta fortaleza, Juan de Austria ordenó que no saliese nunca de aquel sitio. Púsose él a vigilar a los gobernantes, estudiando todas sus decisiones, aprobando lo que encontraba conveniente y desaprobando lo que veía inoportuno, disminu-

(1) Fernando Valenzuela y Enciso.

yendo de su prestigio y de sus ingresos, y discutiendo lo que percibe cada uno. Llegó a censurar los gastos de la reina misma.

Cuando su hermano tuvo catorce años lo llevó a Aragón, donde lo coronó, trayéndolo luego a Madrid. Se puso entonces a actuar a sus órdenes como un fiel servidor. No cesó de trabajar hasta que desterró a su madrastra de Madrid a Toledo, donde permaneció durante un año y medio.

Cuando murió Juan de Austria, volvió la reina a su residencia y fué sacado de la cárcel «El Duende», quien se dirigió a América, donde se encuentra todavía como gobernador de una gran región.

Al llegar Carlos II a la mayoría de edad, se casó con la hija del Rey de Francia, que murió sin descendencia. Luego contrajo matrimonio con su prima materna, hija del Emperador de Alemania, siguiendo aún sin tener hijos. Este soberano nunca acompañó un ejército ni fué a una guerra. No monta a caballo y siempre va en coche acompañado de su mujer, con la cual sale casi todos los días. Va en coche a sus cotos, visita siempre las iglesias y es muy devoto.

El día que nos recibió por primera vez, le entregué la carta del Sultán; la cogió y la dió al intérprete cristiano Alepino. Hecha la traducción, y viendo su contenido y la petición del príncipe de los creyentes, constistiendo en cinco mil libros y quinientos cautivos, Carlos II no pudo contener su emoción, ni saber cómo recibir esta noticia, viendo que era una decisión de parte de nuestro Sultán. ¡Hágalo Dios victorioso! Entonces consultó a todo su gobierno, durando la consulta varios días, y acordaron por fin dar satisfacción a la demanda de nuestro Sultán. En este tiempo tuvimos con él varios encuentros, a los cuales nos invitaba. Después de tratar en consejo la demanda del Sultán y pretender haber enviado en busca de los libros musulmanes en toda España, encargaron para hablar con nosotros al secretario del Tribunal Supremo y Cardenal jefe de su religión y sucesor del Papa de Roma.

Vista la alternativa que les dejaba en su carta el imán—¡Consérve-

lo Dios y ayúdelo!—para el envío de mil cautivos musulmanes en caso de que faltasen los libros o se hiciese imposible enviarlos y visto el deseo que tenían de guardar algunos millares de volúmenes, optaron por el envío de cautivos. Cuando el imán manifestó su aceptación, se pusieron a buscarlos y reunirlos de todas las regiones. Durante este tiempo el Rey se interesaba por nosotros y con la intención de procurarnos toda clase de distracciones nos llevaban, por orden suya, a sus paseos y cotos y a su propio palacio y jardines. No quedó en Madrid una casa de las de su séquito que no hayamos visitado y visto sus jardines y huertas. Cuando lo encontrábamos, demostraba gran alegría sin faltar en honores y acogimiento.

En Madrid se hallan numerosos sitios de recreo: pues en esta ciudad tiene el Rey una magnífica villa de veraneo llamada El Retiro. Tiene un gran jardín, en el cual se ven diversos arroyos, y en su centro corre un río sobre cuyas orillas se elevan buenos edificios y bonitas cúpulas para protegerse del sol durante el verano. Hay también en este río barquitas que llevan al Rey en sus paseos.

Este río se congela en invierno a tal punto que la gente puede pasar por encima. Así ves a los cristianos patinar sobre el hielo con maestría. Pero los que mejor lo hacen son flamencos e ingleses, porque en sus países, situados en el Norte, abundan la nieve y el hielo en todos los sitios, sobre todo en los ríos. Pretenden que las mujeres flamencas ponen a sus zapatos hojas de hierro y así, pasando sobre el río con gran rapidez, se dirigen por la mañana a un pueblo lejano para hacer negocios y regresan por la noche a su domicilio.

He visto algunos cristianos atravesar este río, estando helado, de la manera siguiente: manteniéndose de pie con una pierna y levantar la otra, conservando el equilibrio sin inclinarse de ningún lado, y pasar así patinando como un rayo.

Son numerosos los que acuden a este río en la época del hielo en plan de recreo. Allí verás numerosos coches llenos de personas de am-

bos sexos. Pero al llegar la época de veraneo, durante la cual reside el Rey en este jardín, sólo dejan entrar a los que tienen autorización para ello.

Hay en este jardín una ancha columna de mármol que lleva la estatua de un caballo, en cobre colorado, de pie sobre sus patas inferiores con una montura de cobre; sobre esta columna fué puesta también una estatua en cobre del padre del Rey, Felipe IV, montado a caballo, con un bastón en la mano.

Pretenden que en la época de celo de los caballos traen la yegua que desean hacer procrear ante esta estatua, que, por medio de un mecanismo propio, produce un sonido semejante al relincho del caballo; entonces efectúan la cópula entre la yegua y un caballo que ellos escogen para que diese un potro semejante a la estatua.

Vemos también una cosa semejante en otra casa del Rey, en las afueras de la ciudad, situada en medio de un jardín parecido al anterior, sobre la orilla del río que pasa bajo la ciudad; lleva también unas estatuas de su padre, Felipe IV.

Tiene, además, en las afueras de Madrid, varios jardines y sitios de recreo conteniendo cotos, cuya entrada está absolutamente prohibida a todo el mundo.

Cierto día ordenó al Conde encargado de nosotros de llevarnos a un cazadero, a unas seis millas de Madrid, donde se halla un gran palacio llamado El Pardo, construído por su padre, que domina el río Manzanares y atraviesa Madrid. Viven en este cazadero numerosos animales de varias clases, como ciervos, jabalíes, conejos y otros, porque está reservado a la caza del Rey, y su entrada está completamente prohibida a toda persona ajena. Por eso pretenden que el permiso que nos concedió para ello fué una cosa excepcional, que nunca había sido otorgado a otra persona, y cuentan que fué negado a los embajadores de Alemania y Francia, los cuales lo pidieron al Rey.

Hay también en este cazadero lobos más grandes que los de nues-

tro país, de color amarillo, fuertes y agresivos. Intentamos verlos cuando estábamos cazando, pero no lo pudimos lograr. Sucedió que el Rey salió de caza cierto día y mató a uno. Al llegar a su palacio, nos lo envió para verlo porque se enteró que aquella clase no se encuentra en nuestro país. En su idioma lo llaman lobo, y llaman zorra a la clase pequeña que vive en nuestro país. La clase llamada lobo es fuerte y agresiva y quizá es la misma que la que, según dicen, se encuentra en Egipto, y es tan grande como el tigre.

La ciudad de Madrid, aunque haya sido la residencia de algunos de los predecesores de este Rey, no tenía el adelanto actual ni sus calles eran tan anchas.

Anteriormente al abuelo de este soberano, la residencia real se hallaba en la ciudad de Valladolid, a tres días de Madrid. Al establecerse su abuelo en ésta se intensificó su movimiento y aumentaron sus edificios proporcionalmente al aumento de la población. Pues los más notables cristianos de España viven en ella, al lado del Rey; y los que tienen el gobierno de una ciudad o región, dejan en ella un sustituto y viven en Madrid.

Las calles de esta ciudad son grandes, amplias y llenas de comerciantes, artesanos e industriales de ambos sexos. A su mercado acuden todos los habitantes de los pueblos y aldeas que están en sus cercanías.

En sus alrededores se hallan numerosas aldeas, cuyos habitantes aportan a la ciudad todo lo que en ella se vende de alimento y frutos, a tal punto que el pan, salvo una mínima parte, no se fabrica en Madrid sino que viene de las aldeas que están en sus cercanías. Lo traen mujeres, montadas en burros, que se paran en los mercados para venderlo: algunas de ellas lo llevan a las casas, a cada cual lo que necesita, pues ningún cristiano hace el pan en su casa sino que todas sus provisiones las traen del mercado.

En éste hay varios establecimientos que preparan comidas y las tienen a la disposición de los forasteros, huéspedes y viajeros que no tie-

nen un sitio determinado, pues entra la persona en el establecimiento y pide a la mujer encargada la comida que desea: carne, pollos, pescado o lo que sea. Allí come y bebe, y paga la cuenta a la mujer.

Encuentras también en este mercado toda clase de carne y de aves, unas muertas y otras vivas, que compran los que comen la sangre. También encuentras toda clase de frutas secas y del tiempo, pues la uva, las manzanas y las peras, se venden en este mercado durante todo el año.

La mayor parte de las frutas del tiempo, se aportan de los montes de Granada y Ronda que, a pesar de hallarse lejos de Madrid, le envían sus productos, como las demás provincias, por las ventajas que procura la carestía de la vida en esta ciudad.

Siempre hay también en este mercado gran cantidad de pescado fresco que aportan desde una travesía de siete días de la región de Alicante y de otras de Portugal.

En el centro de este mercado hay otro amplio cuadrado que contiene grandes tiendas, encima de las cuales se elevan edificios de seis pisos, poblados por la gente del mercado y otros. Pretenden que en esta plaza hay catorce mil casados y la llaman la plaza mayor, que significa zoco grande.

En su centro hay numerosas mujeres que venden pan, legumbres, frutas, pescado y carne de todas clases, y en ella celebran sus fiestas y ferias, como la de los toros. Pues tienen la costumbre el 10 o 15 del mes de Mayo, de escoger algunos toros bravos y traerlos a esta plaza, que adornan con todo lujo. Ellos se sientan en los salones que dan a la plaza, echando los toros a su centro uno tras otro. Entonces, quien pretende ser valiente y lo quiere demostrar, entra allí montado a caballo para luchar contra el toro con la espada. Unos mueren y otros matan al toro.

Hay en aquella plaza un sitio reservado al Rey para asistir a la fiesta con su esposa y séquito. La gente, de toda categoría, se pone en las ventanas, pues su alquiler en aquel día o en una fiesta parecida, se paga en el mismo sitio como se paga en todo el año.

Fiesta de San Juan

Asistí allí a una fiesta que celebran en aquella plaza en honor de un monje llamado San Juan.

Pretenden que era un fraile muy virtuoso e hizo cosas extrañas—el diablo les hace ver estas cosas imaginarias—que llaman los milagros, palabra que significa las pruebas. Hace de esto casi un siglo y en este año pretenden que el Papa lo aprobó como santo, autorizándolos de hacer recorrer a su figura en todas las calles para que la gente lo vea y lo conozca. Le dedicaron este día, habiendo adornado la iglesia y puesto a su figura vestidos incrustados de perlas y piedras preciosas. Adornaron también con todo lujo todas las calles, desde su iglesia hasta la plaza, colgando en ésta las piedras preciosas y cruces incrustadas. El Rey se preparó para ello con toda solemnidad y dispuso para nosotros un asiento frente al suyo, y lo adornó con el mismo lujo. Luego mandó invitarnos para procurarnos cierta distracción. Nos dirigimos hacia aquel sitio, que encontramos lleno de gente de ambos sexos y en las calles quedaban más personas que en la plaza. Subimos al asiento que nos estaba destinado y, como al sentarnos nos encontramos frente al Rey, éste nos hizo un gran saludo quitándose el sombrero. Se sentó con su mujer, su madre, rodeado de su séquito y sus ministros. Todos ellos pasaron con las cruces y las figuras de santos, entre las cuales venía la de este fraile que el Papa acababa de confirmar y al cual dedicaron numerosas iglesias en toda ciudad y aldea.

Asimismo en todo sitio, celebran en su honor una fiesta proporcionada con la importancia de la ciudad o de la aldea.

Los hospitales

Los frailes que pertenecen a su orden son los que se ocupan de cui-

dar los enfermos, muchos de ellos habiendo empezado en su vida, a fundar hospitales en sus iglesias y cuidarse a conciencia de los enfermos. En España hay innumerables hospitales, pues sólo en Madrid se cuentan catorce, todos grandes, limpios y provistos de todo lo necesario en camas, comidas, bebidas, medicamento y personal, y teniendo un servicio de ambos sexos cada cual para el sexo al cual pertenece.

Emplean el mayor cuido y tratamiento, de manera que no falta al enfermo nada de lo que necesita, sea poco o mucho.

Entré en varios hospitales, donde ví abundantes provisiones y numerosos depósitos llenos de aceite, vinagre, bebidas y medicamentos. En la cocina encontré toda clase de carne: de cordero, de gallina, de conejo, de perdíz, de cerdo, todo para alimentar a los enfermos. Cuando el médico visita al enfermo y le toma el pulso enterándose de su estado, escribe una receta y la entrega al encargado de los enfermos; éste la da a la jefe de la cocina, quien manda al enfermo la comida prescrita por el médico.

Ví también en otra habitación las ropas de los enfermos. Cuando uno entra en el hospital le quitan todas sus ropas y la depositan en esta habitación, colocando encima una tarjeta con el nombre de su dueño. Le ponen otras destinadas a los enfermos y perteneciendo al hosptital, le destinan una cama con dos mantas, dos sábanas y una almohada. Cada ocho días lavan las ropas que llevan y le ponen otras limpias. Cuando le dan el alta le ponen sus vestidos que llevaban al entrar, y así abandonan el hospital. Si muere, lo entierran a cuenta de éste y entregan a sus familiares las ropas que dejó allí.

Cada hospital tiene un médico que vive en una casa cercana, pagándole su alquiler y todos sus alimentos y gastos para que esté siempre presente y no se ocupe de ganarse la vida. Los frailes de esta orden fundada por San Juan, son los que más se ocupan de los enfermos.

Durante nuestra estancia en Sanlúcar, enfermó uno de nuestros compañeros. Estos frailes, que nos visitaban todos los días, cuando vieron al

enfermo, nos pidieron trasladarlo al hospital para que lo tratasen mejor. Pero yo me negué a ello; entonces, molestos, me dijeron: «Sólo hemos querido hacer el bien y creímos que no nos lo negaría.» Insistieron mucho en ello, pero yo no cedí. Sin embargo, no cesaron de visitarlo hasta que sanó.

Por su buen comportamiento, su humildad y buen carácter, uno lamenta que no se hallen en el verdadero camino, porque ciertamente entre su raza son la gente de mejor carácter y de más humildad. ¡Dios conduce quien quiere al buen camino!

Correos

En el mercado de Madrid hay también un sitio destinado para las cartas que llegan de todos los países y regiones. En cada día llega la correspondencia de un país o de una región. Quien espera una carta va a los establecimientos destinados a ello y pregunta si viene algo para él. Si encuentra una carta la recoge y paga por ella un impuesto equivalente a un cuarto de onza de nuestro país. Asimismo quien desea enviar una carta la escribe y la echa en este sitio sin pagar nada, pues quien la recibe paga los gastos. Esto es para las cartas que vienen de una distancia de menos de medio mes. Pero las que vienen de países lejanos como Italia, Roma, Nápoles, Flandes, Francia, Inglaterra y de otros países, pagan su peso en plata, siendo esto un gran ingreso para el Estado. En el mes de febrero llegó el correo de Italia y Roma, trayendo cincuenta y tres rubh (cuartos) en cartas, que pagaron trece quintales y cuarto en plata.

El cargo de Director de los Correos está en manos de un conde, llamado Conde Yati (Conde de Oñate). Pretenden que el Rey se lo concedió para que viviese de ello y de él dependen todos los correos.

Tienen por regla general que el correo de un país lleva toda la correspondencia que puede y emprende un viaje rápido, pudiendo cam-

biar, a un precio fijo, el caballo que resulta débil o cansado, en una de las numerosas ventas que hay en el camino a disposición de los viajeros y correos anteriormente descritos. La distancia fijada para cambiar la montura es de nueve millas. Así el correo atraviesa la mitad del camino encontrándose entonces con el del país de destino. Los dos se cambian la correspondencia que llevan y vuelven cada uno a su país; así la persona tiene diariamente noticias de todas partes.

Gaceta

Pero en Madrid hay, además de las cartas, otra cosa para dar las noticias que vienen de países lejanos: En cierta casa hay un molde para escribir, en manos de un hombre que paga por esto un impuesto al Rey al principio de cada año. Todas las noticias que oye o recibe las reúne y las pone en el molde, sacando millares de copias, que vende a precios muy baratos. Verás un hombre llevando en mano un gran número de copias gritando: «¿Quién compra las noticias de tal país o de tal otro?» El que desea conocerlas compra una de estas hojas que llaman gaceta, con la cual se entera de muchas noticias. Sin embargo, hay en ellas muchas mentiras, a las cuales incita la pasión humana.

El Papa.=Manera de elegirlo

Con el correo de Italia y Roma antes mencionado llegó la noticia de la muerte del Papa y todavía nadie ocupa su puesto. Durante nuestra estancia en Sanlúcar nos enteramos de la elección de su sucesor. Este es el más alto puesto cristiano, pues quien lo ocupa promulga las leyes y dicta los reglamentos, ordenando lo que desea y prohibiendo lo que aborrece, según su interés. Les corresponde la obediencia absoluta a los que manda, si no estarían fuera de su religión.

La manera de su investidura es la siguiente: El Papa tiene bajo sus

órdenes setenta y dos sacerdotes, llevando el título de cardenal, que es un grado inferior al de Papa. Cuando éste muere, los setenta y dos cardenales entran cada cual en su habitación, cierran la puerta y se entregan a la devoción y a la meditación, sin ver ni hablar a nadie; sólo se les entrega el alimento del cual viven. Así permanecen durante cuatro meses, meditando y pensando cada cual en la persona que prefiere, entre los setenta y uno restantes, por su confianza, cultura, fidelidad y devoción. Escribe su nombre en un papelito y lo echa en una caja cerrada, de manera que nadie se entera de su contenido. Al expirar el plazo fijado para ello y terminar la escritura y la elección, se reunen en sesión, abren la caja y leen los nombres.

El Cardenal cuyo nombre esté más veces repetido en los papelitos, será investido de aquel puesto después de jurar y hacer jurar a los demás fidelidad a las leyes establecidas. Entonces él será el Papa.

Acostumbran a escoger para este puesto, personas que han pasado de los ochenta años. El que eligieron esta vez dicen que sólo tiene setenta y cinco años, y aún dicen que es joven y que nadie antes que él llegó a este puesto en esta edad.

Hace años tenían otra costumbre, consistiendo en no elegir para este puesto más que italianos de Roma o de sus alrededores. El motivo de esto fué que una vez ocupaba el puesto de Papa un francés; éste se puso a reunir dinero y enviarlo a su país. Entonces acordaron que no ocuparan aquel puesto ni franceses ni españoles, que entonces eran muy poderosos, sino que siempre lo desempeñara un italiano. Un familiar suyo gobierna Roma y sus dependencias; nada se hace en toda Italia sin él.

El Papa que eligieron este año es de Nápoles, ciudad italiana, pero en mano de los españoles. Así fué violado esta vez el acuerdo mencionado, ocupando el puesto un italiano de una región bajo el mando español.

El Papa es quien les obliga al ayuno, algunos días, por motivos que

él menciona y les prohibe comer carne el viernes y el sábado; impide a los cristianos casarse el uno con su prima materna o paterna, sin autorización especial por él concedida.

La obtención de tal autorización necesita muchos gastos para los intermediarios y a causa de la distancia tan larga, de manera que sólo pueden soportarlos los ricos y notables. También les permite casarse con una parienta sin necesidad de una autorización especial de su parte si hubo unión adulterina y la parienta resultó embarazada.

Don Pedro de Aragón

En Madrid ví una mujer joven, bella y distinguida, y perteneciente a la Nobleza española [1]. Se casó con su tío materno llamado Don Pedro de Aragón, descendiente de los reyes de Aragón, el cual, estando viejo y temiendo morir sin heredero, pidió autorización al Papa y se casó con su sobrina, muriendo poco después de contraer matrimonio, dejándole una inmensa fortura.

Después de la muerte de su marido, varios notables pidieron su mano; pero ella rechazó todas las peticiones.

El Duque de Medinaceli

Esta mujer es la hija del Duque de Medinaceli [2], el cual era ministro y chambelán del Rey, al cual podía dirigirse en cualquier momento. Tenía, además, gran posición social, que heredó de sus antepasados, siendo de sangre real española. Cuando saludaba al Rey, le decía: «Estamos tras de vosotros», queriendo decir que les corresponde el trono si la familia real quedase sin heredero.

(1) Ana Catalina, nacida en 1663 y muerta en 1698, hija de Juan Francisco Tomás, Duque de Medinaceli. Se casó primero con su tío D. Pedro Antonio de Aragón y después con el gran almirante de Castilla Duque de Medina de Rioseco.

(Enciclopedia Espasa. *Medinaceli.*)

(2) Juan Francisco Tomás, nacido en 1637 y muerto en 1691. Fué primer ministro desde el año 1680 hasta 1685.

Esta expresión que el Duque repetía ante el Rey, hasta hace nueve años, sus antepasados la repetían también ante los del soberano. Cuentan que éste, sospechando de aquella expresión que tanto le molestaba, porque aún no tenía hijos, le dijo: «Esta palabra que siempre repites me hace sufrir mucho y quiero que la dejes y no vuelvas a repetirla ni tener esperanza en lo que expresas ni tú ni tus descendientes.» El Duque, que no podía desobedecer al soberano, la abandonó, permaneciendo en su cargo hasta que una vez el Rey le dió una orden; pero el ministro, que deseaba lo contrario, no le hizo caso. El soberano vió esta decisión contraria y calló. Pero como el Duque tenía una llave, con la cual podía entrar a ver al Rey en dondequiera que se hallaba, vino cierto día y encontró la puerta cerrada por dentro. Sus intentos para abrirla fueron sin resultado. Entonces tocó hasta que se levantó el Rey y vino a ver quién tocaba. Cuando abrió y encontró que era el ministro volvió a cerrársela en la cara. Este, irritado, regresó a su casa, donde quedó definitivamente sufriendo la enfermedad que llamamos nogta (gota) durante ocho años, hasta que murió al fin del corriente, estando nosotros en Madrid. Dejó un hijo que es el embajador de España en Roma al lado del Papa.

Los embajadores

Pues acostumbran enviarse embajadores los unos a los otros, como hizo el Papa, enviando a Madrid uno de los mejores doctores de su religión, llamado el Nuncio, el cual es su representante en los tribunales y legislaciones. Asimismo hay en Madrid numerosos embajadores, entre otros uno de Alemania y otro de Inglaterra.

Hubo anteriormente un embajador inglés en Madrid que se enamoró de una mujer llevándole su amor a hacerse cristiano y seguir a la gente de la cruz [1], porque los ingleses no adoran la cruz. Cuando se en-

(1) A veces el autor, para distinguir los católicos de los demás cristianos, les llama «la gente de la cruz» o «los adoradores de la cruz». Pero más a menudo emplea la misma palabra para decir cristiano y *católico*.

teraron de esto lo sustituyeron por otro, quedando él en Madrid, donde se casó, habiendo recibido del Rey un sueldo anual de doce mil duros y perdido todo cuanto poseía en su país.

Hay también en Madrid un embajador de Venecia y otro de Portugal. Estos tienen, en esta ciudad, residencia fija y viven con sus hijos y mujeres. Otros vienen en misión especial; una vez terminada ésta regresan a su país.

Había antes en Madrid un embajador de Francia. Pero volvió al lado de su soberano a causa de la guerra actual entre los países cristianos.

Esta guerra tiene dos causas:

He aquí la primera: El Rey de Francia fué embargado por un sentimiento de orgullo y despotismo; su país era frontero con una provincia independiente gobernada por un príncipe que la había heredado de sus predecesores, porque es costumbre de los reyes cristianos cuando tienen numerosos hijos, que el mayor herede el trono y el segundo gobierna independientemente, bajo el título de Duque, una provincia determinada, en el extremo del país, sin tener ambición alguna al trono, a menos que su hermano falleciese sin dejar descendientes, pues en virtud de las leyes de herencia, el hermano o cualquiera de sus descendientes pueden heredar al hermano fallecido sin heredero.

Ocurrió que este Duque, gobernador de una provincia, no pertenecía a la raza francesa y por eso el Rey de ésta quiso destituirle y sustituirlo por otro. El Duque se vió incapaz de oponerle resistencia.

El Papa protestó contra esta agresión, pero el Rey de Francia permaneció en su actitud sin hacer caso a esta protesta.

Como todos los cristianos están sometidos al Papa (aquí el autor emite juicios contrarios al jefe del Catolicismo), de manera que no toman ninguna decisión de importancia sin su autorización, éste protestó contra el proceder del Rey francés, transformándose la protesta en enemistad porque éste no le hizo caso, manteniéndose en su decisión de

violar las leyes y destituir a los personajes de prestigio de sus puestos y herencias.

Mientras tanto, hubo conversaciones entre el Rey de Francia y el Emperador de Alemania a propósito del acuerdo franco-turco. En dichas conversaciones, el Emperador alemán pidió la denuncia de aquel acuerdo con Turquía. El Emperador goza entre los cristianos de un gran prestigio y consideración por haberse enfrentado siempre en la guerra contra los musulmanes, dedicándose por completo a esta tarea. Por este motivo lleva el título de Emperador.

Sucedió entonces que las naciones sometidas al Papa y aliadas con el Emperador, se declararon enemigas de Francia, y sus soberanos dirigieron al Rey francés el ultimátum siguiente: «Tu proceder es contrario a la voluntad del Papa, nuestro Jefe Supremo. Violando las costumbres, destituyes de los altos cargos a sus dueños e insistes en conservar el acuerdo con Turquía sabiendo las guerras sostenidas por ésta contra el Emperador, que todos debemos ayudar en virtud de nuestra religión. Pues, o denuncias el acuerdo con Turquía y te pones con nosotros al lado del Emperador o acordamos declararte la guerra.» Esto hicieron pensando que, al ver su unión y su decisión unánime en declararle la guerra, se vería incapaz de resistirles y se arrepentiría de su actitud. Mas si permanece en su posición lo combatirían por tierra y por mar, y le derrotarían.

Cuando vió esta decisión unánime y sintió el deseo de resistir, les escribió diciendo: «Recibí vuestro ultimátum y quisiera que me enviasen esta declaración escrita por vuestros soberanos para que yo pueda pensarlo bien.» Ellos lo acordaron y le enviaron el escrito. Al ver esta decisión de combatirle si no denunciaba el acuerdo con Turquía y ayuda el Emperador abandonando lo que acometió contra la voluntad del Papa, escribió bajo sus firmas: «Estas naciones son enemigas de los franceses y los franceses son enemigos de ellas.» Al recibir esta contestación le declararon la guerra, que aún sigue, por tierra y por mar.

Dichas naciones son: España, Alemania, Italia, Suecia y Saboya. Sólo Portugal permaneció neutral, rechazando su soberano la invitación para tomar las armas contra Francia. También quedaron neutrales los genoveses, gobernados entonces por el Gran Duque, que mantenía con el Rey de Francia relaciones, pagándole un tributo fijo y teniendo un número determinado de barcos a su disposición de modo permanente.

Los ingleses y los flamencos tampoco habían tomado parte en esta guerra porque, como no están sometidos al Papa como las demás naciones, no están considerados entre los cristianos y por este motivo éstos les llaman herejes.

El Rey de Inglaterra murió durante las hostilidades entre los cristianos sin dejar más heredero que su hermano Jacobo, el cual profesaba en secreto, con su esposa, el catolicismo.

Al caer entre sus manos la herencia del trono, el pueblo lo invitó a ocuparlo. Jacobo se negó a ello. Pero cuando vió su insistencia y la imposibilidad de entregar el poder a otro, según las leyes de herencia, les dijo: «No acepto vuestra oferta más que con la condición siguiente: Cada cual seguirá la religión que quiera.» Ellos aceptaron esta condición y lo coronaron. Pero fueron sorprendidos el día siguiente al verlo con su esposa llevar cruces, ostentar los frailes que tenía, entrar en las iglesias y rezar como los católicos, siguiéndolo en esto quien de su séquito se había enterado. Quiso además obligar a su pueblo a profesar la misma religión que él.

Cuando los ingleses vieron que su rey profesaba el catolicismo, separándose así de la creencia de la nación, temiendo que el pueblo siguiese el ejemplo del soberano, protestaron contra su proceder y decidieron matarlo. Al darse cuenta, Jacobo huyó con su esposa a Francia, poniéndose bajo la protección de su Rey. Este decidió prestarle ayuda por odio a los ingleses y tuvo con éstos conversaciones sobre el asunto. Pero dichas conversaciones fueron sin resultado, y entonces les dijo:

«Vosotros sois mis enemigos, como los demás cristianos. ¡Preparáos a la guerra porque he decidido devolver el fugitivo a su casa y a su trono!»

Los ingleses, al ver huir a su Rey y estallar la guerra entre ellos y los franceses, ofrecieron el trono al Príncipe de Orange, jefe de los flamencos, por ser éstos de la misma religión que ellos. El Príncipe de Orange tomó el poder; los ingleses le dieron el título de Rey y decidieron la guerra contra los franceses por tierra y por mar. El país de los Flamencos y Holanda son vecinos con el país de Flandes. Este formaba parte de la raza flamenca y sus habitantes profesaban la misma religión. Pero cuando pasó al reino de España por el traslado del conde, esposo de la hija del Rey Fernando, como ya mencionamos, tuvo que adoptar el catolicismo, profesado por sus gobernantes. El Rey de Francia dirigió contra ella, en este año, una expedición bajo el mando de su hijo el *Delfín;* salió luego él mismo en su ayuda y cercó su capital, Mons, dudurante pocos días, disponiendo contra ella los cañones y las bombas, encontrándose la población en el máximo de dificultades. Había en la población doce mil españoles, los cuales, al verse en esta situación y por miedo a perecer, se rindieron. Así el Rey de Francia se apoderó de la ciudad y de más de setecientos pueblos que de ella dependen. Fué realizada su entrada en esta capital el día de Pascuas, mediado el mes de abril del año actual. Entonces regresó a París, la capital de su reino, dejando a su hijo a la cabeza del ejército, enfrentado con el Príncipe de Orange, Rey de los flamencos e ingleses.

Dicen que éste dispone de un ejército de setenta y cinco mil soldados y de una escuadra que derrotó a la francesa, averiándole cuarenta barcos.

El Rey de Francia sostuvo también contra España una guerra por tierra y mar. Por tierra cercó la ciudad de Barcelona, de la provincia de Cataluña [1]. El ejército español fué mandado por el Duque de Medinasidonia, conocido con el nombre de Guzmán. Durante nuestra estancia

(1) El manuscrito árabe dice equivocadamante «La ciudad de Cataluña de la provincia de Barcelona»

en Madrid tenían miedo de que los franceses lo combatiesen y mandaron en su ayuda un pequeño ejército, esperando todavía el resultado.

Pretenden que este mes los franceses dispusieron contra ella y contra la ciudad de Barcelona las bombas y los cañones, destruyendo en ella varias casas. Entonces los habitantes de Barcelona cogieron a todos los franceses que se hallaban en esta ciudad y obligaron a los solteros a abandonarla, dejando sólo a los casados.

La escuadra francesa, después de bombardear Barcelona, se fué a Alicante, donde tiró numerosas bombas, destruyendo más de setecientas casas. Entonces los habitantes de esta ciudad cogieron a todos los franceses que en ella se encontraban y los mataron. Dicen que eran unos tres mil.

Cuando los españoles se enteraron de que la escuadra francesa se dirigía contra Barcelona y Alicante, la española se hallaba en el Océano Atlántico en busca del correo de América que había tardado en llegar. Mandaron llamarla para que regresase hacia Alicante. Pero al llegar, ya la escuadra francesa había realizado sus bombardeos y regresado a su país. Así la escuadra española no alcanzó ningún barco francés.

Los franceses están también en guerra con Venecia, Italia, Alemania y Saboya, pues ésta la gobierna un duque llamado el Duque de Saboya, que intervino en la guerra entre los franceses y los demás países cristianos.

En este año el ejército francés se dirigió hasta Saboya, poniendo a sus habitantes en una situación muy difícil; se apoderó de todo este país, quedando en manos del Duque sólo la capital, en la cual reside. Aún el ejército francés mantiene el sitio de esta ciudad.

Como el Rey de Francia combate contra el Emperador por los motivos ya indicados, le acusan de ayudar al Rey de Turquía—¡hágalo Dios fuerte!—y pretenden que le envía todo el material de guerra que necesita, como cañones y otros. El otro motivo para acusarle de esto, es la estancia de un embajador francés en Estambul.

Pero la realidad es que los franceses son gente de comercio y la mayor parte de su comercio está con Estambul. El Rey de Francia—¡que Dios lo aniquile!—tiene en gran consideración a los comerciantes, pues en estos últimos años eran los que formaban su gobierno y la mayor parte de su séquito. El les concedía ventajas útiles al comercio y favorables a las empresas y al mismo tiempo le dejaban a él un gran ingreso. Esta conducta era distinta de la de los soberanos de otras naciones, como la española, donde el comerciante no se cuenta para nada. Por este motivo disminuyeron los comerciantes españoles y así no encuentras a ninguno de ellos que haya viajado por el extranjero para comerciar, salvo los que están en América.

La mayoría de los comerciantes en España son ingleses, flamencos, genoveses y otros. Pues el buen trato que el Rey de Francia procura a los comerciantes de su pueblo, es debido a la utilidad que ve en ello. En cuanto a los turcos sólo piden ayuda a Dios y no como pretenden estos ignorantes engañados, que el Rey francés haya pasado al lado del Emperador y se haya ligado con él contra los turcos el año pasado, a causa de la toma de Belgrado y sus alrededores.

Las últimas noticias recibidas dicen que el Rey de Turquía—¡que Dios le ayude!—reunió numerosos ejércitos y declaró que no abandonaba las armas—con la ayuda de Dios—hasta que tomase la ciudad de Viena, capital de Alemania. Corre además la noticia de que el Ministro del Sultán Soleimán, avanzó con un ejército de cien mil guerreros, habiendo salido para su ayuda otro ejército de ochenta mil tártaros. Cuando llegaron al campamento encontraron a uno de los generales del Emperador con seis mil combatientes. Los tártaros los derrotaron, cogiendo cuatro mil prisioneros y matando a los demás. Sólo se salvó un pequeño grupo.

El Conde de Takeli

Acompañaba a los turcos una guarnición mandada por un Conde llamado Et-Takeli.

Este era un vasallo del Rey turco, contra el cual se sublevó haciéndose independiente. Pero volvió a someterse al Sultán Soleimán después de la conquista de Belgrado, realizando luego, contra los cristianos, actos que le valieron para ser citado en sus historias.

Cuentan que el Emperador intentó varias veces alejarlo del Rey turco, pero sus esfuerzos fueron sin resultado. Más tarde, uno de sus generales atacó la tropa de Et-Takeli y cogió gran número de prisioneros, entre los cuales estaban su esposa y uno de sus hijos. A pesar de la amenaza del Emperador de matarlos, el Conde permaneció en su actitud y, cuando por orden imperial fueron encarcelados su esposa y sus hijos, entonces, por represalia, intensificó sus ataques contra los cristianos.

Polonia ayuda al Emperador

El Emperador no cesa de pedir auxilio a los cristianos contra los musulmanes, concluyendo tratados con los países limítrofes con Turquía, como Polonia, cuyo soberano está en guerra con ésta.

Intervención de Rusia

También quiso el Emperador meter en esta contienda al país moscovita, situado en el Norte. Pero cuando ya lo había conseguido, hubo entre ellos un conflicto que les separó. Pretenden también que hay, bajo la autoridad del soberano moscovita, gran número de tártaros peleados con sus hermanos [1].

(1) Con esta palabra, el autor se refiere a los tártaros que ayudan al Sultán como se ha dicho anteriormente.

El ingreso en la Nobleza española por méritos de guerra en Alemania

El español que desea ingresar en la Nobleza y no puede demostrar su derecho a ello o no tiene apoyo en el Gobierno para adquirir un puesto que le dispensa de practicar el comercio, se va a Alemania, a pesar de su lejanía, y toma parte en la guerra contra los musulmanes—¡que Dios les haga poderosos!—, recogiendo luego las pruebas de su servicio y esfuerzo. Regresando a España, presenta las pruebas de su actuación y de sus servicios. En recompensa se le otorga el título de Nobleza que merece, igual al que adquieren sus semejantes que tienen apoyo al lado del Gobierno o que pueden demostrar sus derechos.

Acostumbran recurrir a este procedimiento los militares que, a pesar de pertenecer a la Nobleza y ser hijos de duques, condes, marqueses u otros, no poseen un feudo para heredar el título del padre. Entonces se alistan en uno de los ejércitos que luchan contra los musulmanes, estando la mayor parte de éstos en Alemania. Al regresar, habiendo tomado parte en la guerra o no, aporta un certificado favorable del jefe del ejército indicando la guerra a la cual asistió y los servicios heroicos que cumplió. Con este documento solicita un puesto o un sueldo porque en sus costumbres sólo hereda el hijo mayor, sea hembra o varón.

La herencia en la Nobleza

Cuando muere un noble, su hijo mayor hereda su título y su fortuna, de manera que sus demás hermanos, por numerosos que sean, no heredan nada y sólo poseen lo que el padre les habrá concedido durante su vida, como donación o dote que se acostumbra dar a la hija.

Si la muchacha es la heredera del título de su padre y se casa con uno que tiene un título igual o más importante, ella toma el del marido. Pero

si éste pertenece a la Nobleza sin tener título ni herencia, adquiere el título de su esposa. Por eso son numerosos los que tardan en contraer matrimonio, esperando encontrar como partido a alguna hija de noble, heredera de su padre.

A la muchacha que no tiene derecho a la herencia se da una dote de cien mil reales, cantidad determinada por el Rey y que no puede ser sobrepasada [1].

La herencia del título de Condestable

Tienen en la herencia de los títulos de Nobleza unas tradiciones que no obedecen a la misma ley, como pasa en el de Condestable, uno de los ministros del Rey de España.

Ya desde sus antecesores, cuando muere y no deja un hijo varón, su herencia, su título y su puesto de ministro no pasan a sus parientes, sino a manos de su servidor más antiguo.

Si no hay acuerdo para determinarlo, fijan una hora en la cual sale de su casa una persona de confianza en su religión. El primer transeunte que vea, sea quien sea, lo llaman, le entregan el puesto y el título, y lo llevan ante el Rey, delante del cual se arrodilla. Al cabo de una hora, el Rey le ordena ponerse de pie, a su derecha, en el puesto del ministro fallecido, y cubrirse la cabeza. Así el nuevo ministro toma el puesto del fallecido, apoderándose de todos sus bienes y de las provincias que estaban en su poder; porque la Nobleza cristiana tiene provincias y ciudades adquiridas al conquistar el país y conservadas por herencia sin que se pueda quitárselas.

Tiene este Conde un sobrino y una sobrina que, según las leyes, no tienen derecho a su herencia. Tampoco lo puede heredar su hijo bastardo, el actual Gobernador de Cádiz.

(1) Aquí, el manuscrito de Tetuán añade la observación siguiente: «El real en España es la veintigésima parte del duro, el cual se llama real en los otros países y vale cincuenta francos o la quinta parte del Luis oro. Así resulta el dote veinte mil duros, de la división de cien mil por cinco, resultando veinte mil.»

La hija del Príncipe de Barcelona

En Barcelona, de la provincia de Cataluña, un hombre llamado el Príncipe adoptó otro procedimiento. Al morir dejó una hija, la más bella de su época, y una fortuna inmensa en dinero, muebles, joyas, aldeas y ciudades. En su testamento legaba todo a su hija, con la condición de que sólo se casara con quien triunfase en el duelo celebrado en su presencia. Después de la muerte del Príncipe, al ser conocida por los cristianos la condición establecida por él, acudieron de todos lados los hijos de la Nobleza pidiendo el duelo, con el deseo de obtener la muchacha y su fortuna.

El plazo era de seis meses; cada pretendiente que llegaba visitaba a la muchacha, y de acuerdo con ella fijaba la fecha del duelo, yendo luego a alojarse fuera de la ciudad. En el día determinado salen al sitio del duelo montado cada cual de los combatientes en su caballo, bien preparado y llevando lo que puede de hierro y de corazas y en la mano una lanza con un diamante en la cabeza. Cada uno de los dos se dirige hacia su rival y le pone la lanza en el pecho y empuja. El que hace caer al otro resulta victorioso. Cuando está vencido pasa a un lado y la muchacha lo mantiene para su cuenta hasta que termine el plazo y no quede ningún pretendiente.

Entonces, todos aquéllos que habían vencido salen y efectúan el duelo de nuevo. El que resulta victorioso en final, se casa con la muchacha y toma la herencia.

Cuentan que una vez vino un grupo de notables y se combatieron en duelo. Había entre ellos un joven que era el primo del Rey de Francia. Al verlo la muchacha se enamoró de él, y contra la costumbre le mandó un regalo ofreciéndole además su hospitalidad el mismo día de su llegada.

La libertad del testamento

Por este caso y otros semejantes que no obedecen a ninguna ley, se ve que el hombre entre ellos tiene absoluta libertad para disponer de sus bienes y herencia; incluso puede legarla a un ajeno, desheredando a sus hijos. Si hereda sus bienes uno que no sea de sus hijos, por ejemplo, si su hija heredera de su título y fortuna contrae matrimonio con un noble sin título o con título inferior al suyo, éste toma el del padre de la esposa mientras sus hijos llevan otro distinto.

En virtud de estas leyes que conceden a las mujeres el derecho de herencia, se espera que el trono de España pasará al Rey de Francia por uno de los motivos siguientes: O por herencia, porque el Rey de Francia se había casado con la hermana del actual soberano español, hija de Felipe IV, de su primer matrimonio, de la cual tuvo un hijo llamado El Delfín, más astuto que su padre. Si Carlos II muere sin descendiente, el trono de España cae en manos del Delfín, como herencia de su madre. Pero si no lo obtiene por herencia, lo tendrá merced a la guerra que les está librando, conduciendo personalmente los ejércitos, mientras el soberano español nunca dirigió una batalla ni acompañó un ejército.

Por estos motivos pusiéronse a aprender el idioma francés y a enseñarlo a sus hijos en las reuniones y las ceremonias, sin hacer caso a su Rey. Pero lo que sucedió este año, matando a los franceses, provocó una irritación que aviva el odio y la enemistad entre ellos.

Cuentan que el Papa, antes de morir, este año intentaba reconciliarlos. Pero como el Rey francés estaba peleado con el Papa, se puso a crear leyes sin consultarlo.

Protestantes y católicos

Dicen que el motivo de la divergencia entre los flamencos e ingle-

ses, de un lado, y los católicos del otro, fué el siguiente: Algunos frailes habían tenido con el Papa una discusión, por la cual éste los encarceló. Al darles la libertad, lo abandonaron y se fueron al Rey de Francia [1] poniéndose a crear leyes según su deseo, a tal punto que le autorizaron casarse con una mujer que quería, a pesar de estar casado, ya que el Papa le había prohibido contraer matrimonio con esta mujer en la vida de su esposa. No obstante esta prohibición, el soberano hizo según su deseo.

La Cuaresma

Los católicos no pueden desobedecer al Papa en nada. Pues es él quien les hace las leyes y los reglamentos para la comida durante la Cuaresma, cosa en la cual se diferencian de los cristianos de Oriente. Resulta que en su pretendido ayuno comen durante todo el día.

Al fin de Febrero celebran unas fiestas y ferias para prepararse a la Cuaresma, que empieza el primer día de Marzo y dura cuarenta y seis días, que son los cuarenta días del ayuno de los israelitas a los cuales se añaden seis domingos.

Este ayuno que practican no consiste en abstenerse de comer, beber o cumplir el acto conyugal, sino en no comer carne, excepto los nobles y los enfermos, que pueden hacerlo por autorización del Papa. Los demás se alimentan de pescado durante toda la Cuaresma y pueden tomar huevos a condición de obtener un permiso de los frailes en cambio del cual se paga la octava parte de un duro por alma. La tercera parte de este ingreso pertenece al Rey, quien la dedica para su escuadra marítima. Así verás a personas mendigar en las calles para reunir dinero, con el cual compran la Bula, que es el permiso para comer huevos. Fuera de esto pueden comer en todo el día. Cuando el cristiano se despierta por la mañana, toma una taza o dos de chocolate con bizcocho, que es pan amasado con azúcar y yema de huevos.

(1) El autor dice equivocadamente Rey de Francia. En realidad se trata del Rey de Inglaterra, Enrique VIII.

A la una de la tarde toman una comida fuerte. Los notables y los enfermos pueden comer carne. Los que no son notables o desean ayunar, toman pescado, huevos y otros, y beben el vino que quieren, puro o mezclado con agua, pudiendo beber cuando sienten sed.

A media noche toman una comida ligera de una media libra aproximadamente y duermen hasta el día siguiente. Por la mañana repiten lo del día anterior, continuando así todo el tiempo del ayuno.

Los frailes están autorizados para comer una media hora antes del medio día y pretenden que lo necesitan a causa de las fatigas que sufren en la devoción y rezos nocturnos.

Durante la Cuaresma, además del domingo, dedican el viernes para entrar a las iglesias y oir la misa, y en aquel día hacen la promesa de andar a pie, dejando así su caballo o su coche y caminando una hora.

El Domingo de Ramos

Perseveran en el ayuno del modo descrito durante treinta y ocho días. Entonces empiezan las fiestas fijadas en esta fecha para conmemorar lo que ocurrió al Cristo, según sus creencias. El día treinta y nueve es la fiesta de los Ramos[1], que conmemora la entrada del Cristo en Jerusalén según refiere el evangelio que manejan. En aquel día los israelitas salieron a su encuentro, habiendo cubierto el camino de ramos de palmeras y hojas de árboles. Ellos buscaban una prueba para cogerlo y matarlo. Pero dice su evangelio que en aquel día fueron numerosos los que creyeron en él. Por eso no pudieron detenerlo. Los cristianos celebran este día reuniéndose en las iglesias y recordando en sus sermones lo que ocurrió en aquel día. Luego sacan la cruz y la llevan recorriendo las calles llevando cada cual en la mano un ramo de palma, de olivo o de cualquier árbol fresco y flexible, como el laurel u otro semejante. Terminado el recorrido, devuelven la cruz a su sitio.

He visto entrar al Rey en aquel día en la iglesia de su palacio y es-

(1) El Domingo de Ramos.

cuchar todas las impiedades [1]—¡que Dios nos libre de ellas!—que contó el cura, administrador de la iglesia. Luego salió con todos los curas, los monjes, el arzobispo y el nuncio representante del Papa. Los monjes iban vestidos con magníficas ropas incrustadas de piedras preciosas. Cada cual llevaba en la mano un ramo de palma y delante de todos una cruz de plata cubierta con una tela de seda.

Les acompañaba un grupo de monjes pequeños [2], expertos en cantos que, con sus instrumentos de música, tocaban mientras los frailes cantaban lo escrito en unos papeles que tenían en la mano. Tras de ellos venía la Nobleza y tras de ésta los que forman el séquito del Rey y detrás de todos venía el Soberano llevando en la mano una palma adornada con flores. Así recorrieron el palacio real con la cruz y luego la devolvieron a su sitio en la iglesia.

Asimismo hacen en todas sus iglesias, pues en aquel día encuentras en mano de todo cristiano una palma o un ramo de olivo o de otro árbol.

Como el Rey asistió solo a aquella fiesta y no le acompañó su esposa, mandó presentarnos excusas, diciéndonos que no pudo salir porque estaba enferma.

Al día siguiente se reunen en las iglesias y pronuncian sermones recordando lo que ocurrió al Cristo después del Domingo de Ramos con los israelitas, que habían hecho complot contra El para detenerlo y matarlo.

El Jueves Santo

Al llegar el día cuarenta y cuatro de la Cuaresma—llamado día de pascuas—el Rey prepara una comida, invita a trece pobres y les da puesto en su mesa. Asisten a esta comida el arzobispo y el nuncio. El Rey sirve a los pobres como un criado, presentándoles personalmente los platos y quitándolos después de presentar a cada uno treinta o cua-

(1) Así califica el sermón.

(2) Los monaguillos.

renta platos, pero sin carne ninguna porque está prohibido en la Cuaresma, aunque éste sea el del término del ayuno, lo han incluído en los seis días que añadieron. Sólo les da pescado y lo completa con frutas secas y del tiempo hasta que haya presentado comida a todos, ofreciéndoles además agua y vino. Cuando terminan la comida, el jefe de la iglesia trae una palangana, el nuncio aporta el agua y el Rey lava los pies de todos aquellos pobres, secándolos luego con toallas preparadas para esto.

Después les da un vestido y una cantidad de dinero a cada uno y ellos salen llevando consigo lo que les dió y la comida que quedó en sus platos. Los encuentras vendiéndola en las calles y la gente aglomerándose a su alrededor para comprársela, porque creen en la bendición de aquella comida.

Asimismo hacen su mujer y su madre, dando cada cual una comida a trece mujeres como la que da el Rey a los pobres. Este acto del lavatorio de pies había sido, según dice su evangelio, una ofrenda y ley hecha por el Cristo en el día de Pascuas. Pues en este día al Cristo, deseando romper el ayuno, le preguntaron sus discípulos: «¿Dónde quieres que te preparemos las Pascuas para comer?» El les contestó: «Idos a tal sitio (que él les nombró) hasta que venga a vuestro encuentro un hombre llevando una jarra de agua. Seguidlo al sitio en el que entrará, y decid al dueño de la casa: «El Maestro quiere comer la Pascua en tu casa.» Los discípulos partieron y encontraron al hombre portador de la jarra. Habiéndole seguido hasta el sitio que el Cristo había descrito, dijeron al dueño de la casa: «El Maestro te dice: Prepárame la Pascua para que la coma en tu casa.» El hombre preparó la Pascua y el Cristo llegó con sus discípulos, que eran trece. Comió la Pascua con ellos y al terminar se puso de pie, cogió una toalla, con la cual se ciñó los riñones, y se puso a lavar los pies de sus discípulos, uno tras el otro. Cuando llegó a Simón-Es-Safa (Simón-Pedro), éste le dijo: «¡Tú lavarme los pies!» El Cristo le contestó: «Lo que hago tú no lo conoces ahora, mas lo conocerás después.» Simón replicó: «¡Jamás tú me lavarás los pies!»

«En verdad—contestó el Cristo—si no te lavo los pies no serás de los míos.» Entonces dijo Simón: «¡Oh, Señor mío; no sólo me lavarás los pies, sino las manos y la cabeza!» El Cristo añadió: «Si yo, que soy vuestro maestro, os lavé los pies, pues es propio que os lavéis vosotros los unos a los otros. Sólo he hecho esto para daros ejemplo, porque como yo os hice haréis vosotros también.»

Por este motivo el Rey lava los pies de estos pobres. Asimismo hacen los notables, los grandes y todos los personajes que, por la consideración o la fortuna, ocupan un rango elevado.

Pretenden también que el Cristo, mientras celebraba la Pascua con sus discípulos, les dijo: «Uno de vosotros me entregará esta noche.» Cada uno de ellos se puso a protestar y jurar que era inocente. Había entre los trece un hombre llamado Judas el Iscariote. Pretenden que era uno de los discípulos y que el diablo le sugirió la idea de entenderse con los judíos dispuestos contra el Cristo, a los cuales lo vendió por treinta piezas de plata, entregándolo a ellos en la noche de su detención, mientras rezaba de noche en su jardín. Judas llegó con los guardias venidos para detenerlo.

Cuando el Rey haya dado de comer a los pobres y éstos hayan salido, se reunen todos los cristianos, curas y frailes en general y en particular y sacan todas las cruces e imágenes que adoran, paseándolas en las calles de la ciudad y llevando innumerables velas encendidas durante el día. Nadie se niega a llevar las velas y andar ante las cruces y las imágenes.

El Viernes Santo

Con éstas van de una iglesia a otra manifestando tristeza y pena, pretendiendo que así se hizo con el crucificado. Pasan con numerosas imágenes del Cristo. En una está rezando en un jardín, mientras un ángel le presenta la copa de la muerte y El cogiéndola en su mano. En

otra aparece un grupo de guardias y los cristianos pretenden que así se agruparon alrededor del Cristo. En otra se ve al Cristo crucificado y, por fin, pasean su imagen en un ataúd, después de haberle bajado de la cruz.

Algunos cristianos, deseando imitar al crucificado, se tapan la cara pretendiendo que se esconden, pero se olvidan que tienen detrás un criado o un amigo que les guarda para que no se desmayen del azote que se dan en la espalda y así verás la sangre correr sobre sus piernas.

Hay quien se crucifica atando su cabeza y su mano sobre una columna de hierro, pasando así por las calles durante los días de procesión, habiéndose tapado la cara para no ser conocido.

Al día siguiente pasean otras imágenes del Cristo. En una está ya crucificado, en la otra lo han bajado de la Cruz y en la última viene enterrado. Acompañan todo esto de cantos tristes; entran en la iglesia y lo esconden, apagando todas las luces y colgando ropas negras sobre las puertas de las iglesias. No tocan campanas ni montan en coche ni en caballo durante los días de la procesión. Dicen que fué Juan de Austria, el hermano del Rey actual, quien prohibió circular en coches y caballos durante estos días.

El Sábado de Gloria

Al día siguiente, que es el tercero después del de Pascuas, cerca del medio día, abren las iglesias, encienden las velas, cambian las ropas negras colgadas por otras de color, tocan las campanas, se alegran e imprimen en unas tarjetas ciertas imágenes, pretendiendo que son ángeles, y escriben entre estas imágenes en caracteres caldeos la palabra «Aleluia», que significa «¡Alegráos!» «¡Alegráos!» Cuando tocan las campanas vuelan de ellas las tarjetas, que los cristianos recogen y se regalan entre sí, contentos y alegres por la resurrección del Cristo, porque creen—erróneamente—en su crucifixión, enterramiento y resurrección de la tumba.

N.—Aquí el autor rechaza esta creencia de los cristianos y trata de demostrar su error, creyendo que el Cristo es el hijo de Dios. Habla de San Pablo y del Papa. Trata de la confesión y de los frailes, y su pluma escribe conceptos duros para ellos y para la ciencia de los cristianos.

Luego añade:

A pesar de esto hay entre ellos gente de buen carácter y uno desea que fuesen en el verdadero camino.—¡Quiéralo Dios!—Así vi en la iglesia llamada El Escorial un hombre viejo, de buen aspecto y carácter. Nos demostraba gran alegría y buen recibimiento. Era el jefe de aquella iglesia, de los pueblos que la rodean y de las aldeas que dependen de ella. Este hombre dejó toda esta jefatura, abandonó el mundo y dejó su puesto a un alumno suyo llamado D. Alonso. Este monje, jefe actual de El Escorial, demostraba mucha alegría, buen recibimiento y buen hablar. No cesó de visitarnos durante nuestra estancia en Madrid, cuando venía a ver al Rey, que le tiene en gran consideración. También nos llegaban sus cartas desde El Escorial.

El Escorial

Esta es una iglesia construída por Felipe II que, habiendo destruído la iglesia de San Lorenzo, en una ciudad francesa, para poder tomarla, prometió construir otra mayor a nombre del mismo Santo. Cuando volvió de la guerra construyó la iglesia que prometió, al pie del monte que separa Castilla la Nueva y Castilla la Vieja, a veintiuna millas de Madrid.

La iglesia y la casa del Rey con sus accesorios están construídas de piedras grandes y duras, parecidas al mármol y traídas del monte que domina la iglesia.

Dicen que al momento de construirla elevaron un puente de madera desde la cima del monte hasta el sitio del edificio para arrastrar las carretas que llevan las piedras sobre este puente y colocarlas en

su puesto sin tener que cargarlas. No quedan huellas de este puente de madera. El monte está muy elevado y entre su cima y la iglesia hay la distancia de una «masafa» (1).

Este Escorial es un edificio grande y alto. Tiene del lado occidental tres puertas. La puerta central es la de la iglesia y sus dependencias. Encima de ellas hay una estatua del monje Lorenzo el Real, bajo cuyo nombre fué construída la iglesia. Las dos otras puertas, una a la derecha y la otra a la izquierda, son de dos grandes casas donde estudian los frailes novicios. Cada grupo de ellos tiene sobre el hombro una cinta en azul y colorado, como signo del grado que alcanzaron. Lo primero que estudian es la filosofía y lo que se aproxima de ella. En estas dos casas hay un gran número de estudiantes que vienen de Madrid y de todas las regiones.

Pero en donde terminan sus estudios es en la ciudad de Salamanca, a *tres* (2) millas de Madrid. Pues para ellos, quien no terminó sus estudios y adquirido estos conocimientos en Salamanca, no se considera aprovechado.

De pequeños aprenden, sobre todo, la religión; luego la aritmética y después la geometría en latín.

El latín para ellos es como la sintáxis «Ilm An-Nahu» entre los árabes, de manera que no todos los cristianos lo entienden, sino sólo los que lo han estudiado de pequeños.

Así ves a los cristianos enviar a sus hijos a los sitios destinados para el estudio, como El Escorial y Salamanca.

Sobre la puerta central que conduce a la iglesia hay numerosas figuras grabadas. Entrando por esta puerta se encuentra uno frente a un gran patio con grandes columnas alrededor. Sobre cada columna hay una figura vestida y todas de la misma piedra. Hay cinco y dicen que son las de cinco reyes israelitas. La primera lleva la inscripción siguiente: «El Profeta David.» Lleva una corona de cobre dorado que pesa cinco

(1) El manuscrito lleva sólo la palabra.

(2) Distancia mal definida.

«rubh» y en su mano el instrumento musical que inventó y con el cual cantaba los salmos, y se llamaba arpa.

Este es un gran instrumento en madera tan alto como un hombre; tiene unas cuarenta cuerdas y produce buenos sonidos en manos de quien sabe tocarla.

Los cristianos la utilizan con frecuencia y la enseñan a sus mujeres, hijos e hijas. Pues es raro encontrar una casa donde toda su gente no sepan tocar el arpa. Pero los que más la utilizan son los hijos y las hijas de la Nobleza. También las utilizan en sus iglesias, ceremonias y fiestas; es el instrumento musical que más emplean. En cuanto al instrumento que llamamos el laúd no está conocido por ellos; sólo tienen uno muy parecido que llaman la guitarra, un poco más pequeña que el laúd, pero tiene dos cuerdas más. Sin embargo, el arpa es el instrumento musical más bonito.

A la derecha de la figura de David hay otra que lleva la siguiente inscripción: «Este es Salomón, hijo de David.» Lleva sobre su cabeza una corona de cobre dorado que pesa cinco «rubh» y en la mano lleva un bastón de cobre dorado también que pesa tres «rubh».

A su derecha hay otras tres figuras, llevando cada cual el nombre de uno de los reyes célebres que reinaron en aquella época.

Al interior del patio hay otro más amplio y en su extremidad del lado derecho hay catorce grandes departamentos destinados para viviendas de los alumnos y frailes. Cada departamento se compone de varias habitaciones y tiene un grifo, una fuente y unas veinte columnas. Todos los departamentos comunican entre sí. A la izquierda del que penetra del patio a la iglesia y frente a la puerta de los departamentos, hay otra puerta que comunica con la casa del Rey. Es una gran casa construída con las mismas piedras que la iglesia y es tan majestuosa y tan alta como ésta.

Tiene este palacio tres puertas: una comunica con el interior de la iglesia, otra con el exterior y la tercera con el jardín que se halla al lado

de la iglesia. Como en este sitio hace fresco por hallarse al pie del monte, cada año el Rey acostumbra pasar en este palacio un mes de verano.

La iglesia por sí es grande y tiene varias columnas y patios. Al entrar aparece enfrente, en plata dorada, el crucifijo que tanto adoran.

En el centro de la iglesia hay una cúpula muy alta y muy bien trabajada, apoyada sobre cuatro columnas, de doce picos la circunferencia de cada una, y en su interior hay un asiento cubierto de seda, sobre el cual se sienta el fraile cuando reza.

Al interior de esta iglesia hay numerosas lámparas de oro, de plata y de cobre dorado. Hay también preciosas joyas de valor inmenso.

En su parte superior hay un sitio donde se ponen para rezar y cantar la misa. Tienen allí un instrumento musical muy grande llamado el órgano, que tiene cañones y fuelles de plomo dorado y produce unos sonidos admirables. Pretenden que cantan con este instrumento los salmos de David y la Biblia de Moisés. (¡La paz sea con él y con nuestro profeta!)

Su creencia en la Biblia se limita al decálogo (1), en las cuales participan con los judíos y que pretenden conservar; éstas son la prohibición de matar, robar, cometer el adulterio, desear la mujer o los bienes del prójimo, etc.....

En esta iglesia hay doscientos frailes mayores que dicen la misa y otro número de pequeños.

En su parte más elevada tiene nueve minaretes muy altos. En cada minarete hay relojes con grandes campanas que tocan a las horas una especie de música, oyéndose ésta desde varias millas.

A la derecha de la iglesia están los armarios de sus libros de ciencia y religión y sus tesoros legados a la iglesia desde la época de su fundador, de manera que nadie puede disponer de ellos sino aumentándolos. A estos armarios habían trasladado los libros de los musulmanes de Córdoba, Sevilla y de otras ciudades, pretendiendo luego que se habían quemado hace unos diez años. Hemos visto las huellas del incendio en aque-

(1) Se refiere a los diez mandamientos de Dios.

llos armarios y en la iglesia. Aún está el Rey trabajando en la restauración de lo quemado. Si no fuese por el techo de piedra desprovisto de toda madera, el fuego hubiese destrozado toda la iglesia. A pesar de ello llegó hasta la cima de sus minaretes, de donde cayeron unas grandes piedras en el jardín que rodea la iglesia. Estas piedras son tan grandes que actualmente no se han podido devolver a su sitio.

Al lado de la iglesia, a la izquierda, están las tumbas de los reyes de esta dinastía, desde Carlos V, quien se hizo fraile, hasta Felipe IV, el padre de Carlos II. Están enterrados en una cúpula construída en una profundidad a la cual se baja por medio de una escalera en mármol dorado, de un trabajo muy fino. Sus tumbas son cajas de mármol dorado, elevadas sobre columnas y llevando cada cual el nombre del soberano que contiene. Ya han sido enterrados en este lugar cinco reyes con sus mujeres, pues tienen la costumbre de no enterrar allí más que a los soberanos. En cuanto a los demás miembros de la familia real tienen un cementerio distinto, situado al lado de éste.

Está la iglesia rodeada de todas las necesidades de la vida como molinos, cocinas, tenerías y otras cosas que se hallan en las ciudades. Tiene también numerosos depósitos de medicamentos, bebidas y aguas. Rodea todo esto un gran jardín, administrado por los frailes y conteniendo arroyos, canales y árboles de formas extrañas. Alrededor de la iglesia y de un jardín, está el coto del Rey, rodeado por una fuerte muralla de piedras. Pretenden que su circunferencia es de treinta y tres parasangas y a cada dos masafa de éstos hay una casa con un jardín, donde el Rey se refugia del sol cuando sale de caza. He visitado algunos de ellos cuando llegamos al Escorial, habiéndonos invitado el Rey para verlo, siendo éste para él un objeto de orgullo.

Este Escorial es de las cosas más importantes que consideran en España, no teniendo otra iglesia igual.

Los españoles no niegan la importancia de las mezquitas musulmanas como las de Toledo, Córdoba y Sevilla, muy célebres. La de Cór-

doba ha sido descrita en el sitio que le corresponde y más adelante trataremos de las de Toledo y Sevilla, (1) que visitamos a nuestro regreso de Madrid, porque durante nuestra estancia en España el Rey deseaba siempre procurarnos distracciones, invitándonos a ver sus cotos, jardines, fiestas, palacios, armas, etc.

Fiestas en el Palacio Real

Organizó en su Palacio varias fiestas, a las cuales nos invitó durante tres noches seguidas. Nos preparó un asiento bajo una cúpula elevada, igual que el suyo. Asistía toda la nobleza y su séquito. Una vez reunidos todos entraba el soberano acompañado de su madre y esposa; las hijas de los grandes y de los notables les precedían llevando numerosas velas. Cuando llegaba a su asiento, frente al nuestro, nos saludaba descubriéndose y luego se sentaba y a su izquierda su esposa y a la izquierda de ésta su madre. Entonces avanzaban los músicos, hombres y mujeres, y cantaban, según sus costumbres, hasta media noche. Cuando terminan, el Rey, después de saludarnos, se retiraba el primero y después todos los demás. Luego preguntaba a quien nos servía si habíamos estado contentos, y con el deseo de que no nos faltase nada preguntaba por nosotros todos los días.

Tiene otro sitio de recreo y de caza, al cual se dirige cada año, en abril, para pasar casi un mes con su familia y sus amigos íntimos. Llámase este sitio Aranjuez.

Aranjuez

Cuando el Rey se marchó este año dejando el asunto por el cual vinimos en manos de su ministro y jefe del tribunal, el Cardenal, manifestamos a éste nuestro deseo de regresar a nuestro país y le incita-

(1) Sin embargo, el Visir autor no describió la mezquita de Sevilla.

mos a que nos lo facilitase pronto. Pero el soberano, deseando que visitásemos Aranjuez, nos mandó un día el jefe de los escribientes del Tribunal, el cual nos dijo que su soberano deseaba que fuésemos a Aranjuez para distraernos en sus jardines y cotos. Pero le dijimos que sólo deseábamos despedirnos de él porque no nos queda interés en recreos y paseos por haber tardado tanto en regresar a nuestro país y ahora éste es lo único que nos preocupa. El escribiente le envió esta contestación y a los dos días volvió con una orden del Rey, diciéndonos que nuestro viaje a Aranjuez era para despedirnos de él, porque se había enterado de nuestra inquietud. Ordenó al conde encargado de nosotros de acompañarnos él y el intérprete Alepino, pues nadie puede penetrar allí sin su autorización.

Salimos por la mañana de Madrid y caminamos nueve millas, atravesando así tres pueblos. A dos masafa llegamos al primero, llamado Verde a causa de sus numerosas plantaciones y huertas. Es una pequeña aldea de carácter más bien urbano. A una masafa de ésta se halla otra más grande llamada Venta, y después de ésta otra más grande que las dos, llamada Balad-El-Moro. En ésta hallamos una fonda, en la cual estuvimos hasta que pasó el calor. Por la tarde continuamos la marcha y, atravesando otras nueve millas, llegamos cerca de Aranjuez. Allí nos encontró un grupo de jinetes enviados por el Rey para recibirnos y saludarnos. Nos dijeron: «El soberano creyó que llegaríais al medio día y os preparó un espectáculo para distraeros al llegar.» Como tardamos, envió éstos a nuestro encuentro. Llegamos cerca de media noche y no hubo tiempo más que para dormir. Nos hospedaron en una casa del ministro Cardenal, que domina todo aquel recreo; allí pasamos la noche, habiendo enviado el Rey un representante para saludarnos y darnos la bienvenida.

Al día siguiente nos mandó llamar. Entramos en un jardín suyo rodeado por dos ríos que, encontrándose, forman el Tajo, que atraviesa Toledo, a un día de este sitio.

Este es un jardín magnífico en cuanto a sus arroyos y al orden con

el cual están dispuestos sus árboles. Contiene toda clase de flores, norias, fuentes y magníficos asientos que dan al río de los dos lados.

De este jardín entramos a la casa del Rey, habiendo éste enviado un grupo de su séquito para recibirnos.

Cuando entramos le hallamos de pie; a su derecha estaba su ministro y a su izquierda su mujer y algunas hijas de la Nobleza; a su alrededor estaban sus ayudantes e íntimos.

Le saludamos como de costumbre, diciéndole: «La paz sea sobre el que sigue la dirección.» Nos dió la bienvenida y nos saludó. En su mano hallamos una carta que escribió para nuestro Sultán el Victorioso por la gracia de Dios. La besó y nos la entregó después de preguntarnos por nuestro estado y por la inquietud que tuvimos. Le presentamos nuestras excusas, que él aceptó, de que no podíamos tardar más. Nos contestó: «Como presentáis unas excusas justificadas, no queremos reteneros más; presentad nuestras salutaciones al Sultán y esperamos el buen trato para los prisioneros que tenéis. Todo lo que Su Majestad desee de nosotros lo haremos inmediatamente por respeto a su alta persona.» Nos preguntó si teníamos algún deseo, para que lo cumpliera en seguida. Contestamos que no, como es digno de nuestro puesto islámico. ¡Gracias a Dios!

Después de despedirnos de él y de entregarnos la carta para nuestro Sultán, salimos de allí. El Rey mandó tras de nosotros uno de sus íntimos para preguntarnos si teníamos deseos de permanecer en aquel coto. Le contestamos que nuestros corazones volaban hacia nuestra patria y que no podíamos permanecer una hora más. Como él deseaba volver a Madrid, nos envió al día siguiente los encargados de aquel lugar y con ellos salimos de caza. Encontramos grandes cantidades de ciervos y conejos. Al otro día regresamos a Madrid para prepararnos el viaje.

El Visir sale de Madrid hacia Marruecos

Salimos de Madrid el primero de Ramadán del corriente año. El Rey ordenó, a quienes nos acompañaban, hacernos pasar por Toledo para ver su mezquita, que es una de las maravillas del mundo por su construcción y celebridad.

En la noche de nuestra salida de Madrid pernoctamos en una aldea llamada Ueschca (Illescas), la cual era de las capitales de España y tenía celebridad merced a su Universidad; aún guarda huellas de la antigua construcción musulmana, como la puerta por la cual se entraba a la ciudad en aquella época. Pero hoy es una aldea de carácter más bien rústico y se halla a veintiuna millas de Toledo.

Toledo

Toledo, antigua residencia real, es una gran ciudad y una de las capitales de España. Está situado sobre una colina que domina el río llamado Tajo, que atraviesa Aranjuez, antes citada. Rodea la ciudad por tres lados, siendo el cuarto el que conduce a Madrid. La muralla de esta ciudad, sus paredes y sus calles se conservan en su antiguo estado desde su construcción por los musulmanes. Tiene también huellas de civilización. Pero la mayor parte de sus calles son muy estrechas. Sus casas conservan la construcción islámica, sus planos y sus inscripciones árabes en el techo y en las paredes.

La mezquita de Toledo

Su mezquita es una maravilla. Construída con piedras duras parecidas al mármol, se eleva a una altura considerable con un techo de piedras también.

Tiene grandiosas columnas, magníficamente construídas, llevando preciosos grabados.

Los cristianos añadieron en el centro una construcción con una reja de cobre amarillo, en la cual pusieron numerosas imágenes, cruces y el instrumento musical llamado órgano, que tocan cuando rezan. Delante de esta ventana pusieron un crucifijo de oro ante el cual están siempre encendidas, de noche y día, lámparas de oro y de plata, y numerosas velas.

Las puertas de esta mezquita son de un trabajo muy perfecto, pero los cristianos, como de costumbre, colocaron encima de ellas varias imágenes. También añadieron en los lados varias habitaciones donde están numerosos depósitos, en los cuales se hallan los tesoros, las piedras preciosas, los rubíes, las coronas incrustadas con perlas, todos de un valor inmenso. Con éstas hay también una gran corona de oro soportada por unas columnas del mismo metal. Pretenden que esto era de la época de los musulmanes.

A la derecha de estos depósitos hay un armario que contiene un gran libro escrito con agua de oro. Dicen que es la Biblia. Lo tienen en el máximo de conservación, de cuido y de reserva, de manera que no puede salir de su sitio. Cuentan que Felipe IV, el padre del Rey actual, quiso sacarlo de allí para tenerlo en su palacio, ofreciéndoles por ello una gran ciudad con sus impuestos. Pero no aceptaron porque lo guardan con mucho celo.

A la derecha de este armario hay otro que contiene una gran caja llena de cosas preciosas en oro incrustado, como collares, cadenas y anillos preciosos. A su derecha vimos un minarete de plata, pasando la altura de un hombre, cuyo interior y cima son de oro, incrustado de piedras preciosas. Este minarete fué construído al ejemplo del de la mezquita de Toledo. Lo tienen como adorno que ostentan en sus fiestas, con las cruces que acostumbran llevar en sus recorridos por las calles durante las procesiones.

El minarete de Toledo, a cuyo ejemplo fué edificado este otro, es una de las maravillas de la construcción. Comprende trescientos escalones; doscientos, desde la base hasta el sitio del cual el almuédano llama a la oración, y otros cien hasta la cima. En ese sitio los enemigos de Dios colocaron nueve grandes campanas, cada una de treinta y seis palmas de circunferencia y de tres cuartos del pico de espesor. La construcción está hecha de piedras duras, parecidas al mármol, y de la misma clase que la de la mezquita.—¡Devuélvala Dios al Islam!—

Al lado de estos armarios hay numerosos otros llenos de candelabros dorados y plateados, de cruces incrustadas y de vestidos bordados en oro que ponen los frailes, los monjes y sacerdotes de alta categoría.

Todos los sacerdotes de esta iglesia se hallan bajo la autoridad del Cardenal, que es hoy el primero de este título entre los cristianos (1) y viene después del Papa, como explicamos anteriormente.

Como Toledo era una de las capitales de España y antigua residencia real, resultó que entre todos los que llevan el título de Cardenal entre los adoradores de la cruz, el suyo era el de más alta categoría. El Cardenal que tiene Toledo actualmente es el presidente del Consejo de España y de él dependen todos sus asuntos religiosos y civiles. Todas las consultas y las decisiones le pertenecen; él comunica con el Rey directamente y con su aprobación actúan todos los escribientes del tribunal.

Quedan en Toledo las huellas de la alcazaba, en la cual vivían los reyes anteriores a éste. Los que fijaron en ella su residencia después de la reconquista, introdujeron algunas modificaciones (2).

La importante ciudad de Toledo era la capital del reino cristiano desde los tiempos antiguos, o mejor dicho, ella y Sevilla. Tárik, a quien

(1) Seguramente que el autor se refiere a los cristianos de España.

(2) Esta parte, desde aquí hasta el fin del manuscrito, apareció con su traducción al castellano el año 1926 en la *Colección de Obras Arábigas de Historia y Geografía*, que publica la Real Academia de la Historia. Tomo II, traducción de D. Julián Ribera. Asimismo la confirmamos en nuestra traducción. Sólo hemos introducido algunas modificaciones, sobre todo en la transcripción de nombres de personajes.

Dios haya perdonado, en la expedición que hizo cuando invadió la tierra de allende, después de pasar por Córdoba, se dirigió, sin pararse en otra parte, a la ciudad primeramente nombrada, es decir, Toledo, donde, al llegar, encontró restos que indicaban los tesoros y riquezas incalculables que allí debía haber habido. Entre el cúmulo de objetos de que se hizo dueño, estaba la célebre mesa. No faltan, sin embargo, historiadores que pretendan que la tal mesa no se la halló en Toledo, sino en otro sitio no distante de esta ciudad llamado Guadalajara, y que Tárik, después de conquistar Toledo, se fué a dicho sitio de Guadalajara, próximo al desfiladero que recibió el nombre de Tárik, tras los montes, hasta que al fin llegó a la ciudad de Almeida, así llamada por haberse hallado allí la mesa. Sea de esto lo que quiera, el caso es que se la denominaba la mesa de Salomón, hijo de David. (¡Sobre ambos sea la paz!) Se dice que por los lados y los pies era de verdes esmeraldas, y hasta se afirma que tenía 365 pies, pero esto me parece muy dudoso; ahora, lo que otros dicen, que llevaba incrustaciones de oro, ya es cosa más admisible.

Dice el historiador: En cuanto Tárik se convenció de que Musa le había de alcanzar, y que, al enterarse de lo de la mesa, se la habría de pedir, arrancó uno de sus pies; de esta manera podría defenderse ante el emir El Ualid (Algualid) el día de mañana que pretendiera Musa haber conquistado el país y ser él el que halló la mesa. Desde Almeida volvióse Tárik otra vez a Toledo; aunque también hay quien dice que en esta excursión pasó desfiladeros y puertos y se lanzó bruscamente en tierras de Galicia hasta llegar a la ciudad de Astorga y de allí volvió a Toledo. A todo esto corría el año 93 de la Hégira. Una vez en Toledo esperó que su jefe, Musa ben Nosair, viniera a su encuentro.

Musa entró en España en este mismo año 93, acompañado de dieciocho mil hombres pertenecientes a la tribu de Coraich y a otras tribus árabes y gente principal. Lo primero que hizo fué procurarse un guía cristiano que le indicara y condujera a las ciudades que Tárik no hu-

biese conquistado, prometiéndole por este servicio buenos presentes y cumplida retribución. El guía le condujo al castillo de Zaguac, del distrito de Sevilla, que fué lo primero que atacó, pues Tárik no se había parado en este distrito; de allí se fué a Niebla, luego a Béjar, después a Ocsonoba, que está a la orilla del mar, cayendo todas en su poder sin apelar a la fuerza. Después salió de esta comarca por el desfiladero que recibió su nombre, que se halla en la región de Alicante, cuyos habitantes le ofrecieron voluntariamente someterse; él, por su parte, les tranquilizó respecto a su suerte, con lo cual ellos le proclamaron por señor patrono y fueron llamados «manali Musa.» Continuando la expedición se dirigió a Toledo. En el camino paróse en un río o valle, donde pasó revista a los hombres que llevaba, por lo cual vino a llamarse desde entonces el *río* o «Valle del campo de la revista». De esta manera se enteró de cuántos y quiénes le acompañaban. Al acercarse a Toledo, salióle Tárik al encuentro y se apeó delante de Musa para hacerle el debido acatamiento y honor; pero éste le volvió desdeñosamente la cara delante de todos y mostró con claridad lo enfadado que estaba contra él, dándole una paliza y una severa reprimenda por haber campado él solo por sus respetos, faltando a las órdenes que le había dado de no pasar adelante. Tárik se excusó humildemente, diciéndole: «Señor, yo no soy sino tu liberto, uno de tus generales; aquello, pues, que he conquistado y obtenido, a tí sólo se ha de atribuir.» Tárik se esforzó en procurarse su benevolencia, y por fin obtuvo su gracia. Entonces le presentó la mesa que, como botín, había logrado. Se dice que era de oro engastado con perlas, jacintos y esmeraldas. Hay quien pretende que había pertenecido a Salomón, hijo de David (¡Sobre ambos la paz!), pero no es así. Como al presentársela le faltase el pie que le había arrancado Tárik, Musa preguntó por él, pero se le dijo que así la habían encontrado. También le presentó Tárik el quinto del botín obtenido en la guerra, que era muy considerable, y esto acabó de afirmar la benevolencia de Musa, de tal modo que hasta le mandó que continuase avanzando hacia

la frontera. Musa quedóse en Toledo hasta celebrar allí la Pascua de los Carneros del año siguiente.

Abdelmálic ben Habib, refiere, por habérselo oído decir a personas que a su vez lo oyeron contar a un virtuoso *tabi* (o musulmán que trató a los compañeros de Mahoma) llamado Alí ben Rabah, que entró en España en compañía de Musa, lo siguiente: «Cuando llegó a noticia de Musa que Tárik había conquistado tan gran parte de las comarcas de España, le dió tal envidia y disgusto, que se puso enfurecido contra él, y, sin perder tiempo, atravesó El Estrecho y se plantó en Córdoba, que era la más populosa ciudad de los reyes cristianos y la más famosa, a pesar de estar tan cerca de las costas del mar. Su salida de Ifriquiya tuvo lugar en el mes de Recheb del año 93, y la travesía marítima a España en el mes de Ramadán del mismo año. Se dice que la travesía la hizo desde Túnez; pero otros dicen que desde el Monte de los Monos, conocido por el Monte de Musa, cerca de Ceuta. Cuando se encontró con Tárik, le dió una buena reprimenda; pero éste procuró después calmarle y contentarlo, hasta que lo logró, hallando que Tárik tenía tal cantidad de cautivos, oro, plata y piedras preciosas cual en ninguna expedición habían conseguido jamás los musulmanes.»

Refiere el autor: «Dos individuos del ejército de Tárik encontraban un tapiz bordado de oro y plata en figura de ramajes y adornado de aljófar, jacintos y esmeraldas. Como uno de ellos no lo podía cargar, ni sabían ponerse de acuerdo para cargarlo ambos, traían un hacha y a hachazo limpio lo dividían; cada uno tomaba su parte sin más disputa, ni certificarse si estaba bien hecha la división. Así andaba en todas partes la gente, ocupada en cosas parecidas.»

Cuenta Abdelmélic ben Habib, citando como autoridad a Al-Laiz ben Saad, que al llegar Musa a las cercanías de Toledo se le acercó un hombre y le dijo: «Manda a alguien que venga conmigo, pues quiero descubrirte un tesoro escondido.» Aquél mandó a algunos hombres que le acompañasen. Al llegar a cierto sitio, el hombre se paró y les dijo:

«Descubrid aquí.» Apenas comenzaron a descubrir se les apareció un gran tesoro con multitud de perlas, jacintos, esmeraldas y topacios. Al ver riqueza tanta, quedáronse estupefactos y enviaron recado a Musa para que viniese a presenciar aquello.»

Refiere también Abdelmélic ben Habib que Musa primeramente se fué a Ifriquiya, es decir cuando le nombró gobernador de la misma Abdelmélic ben Meruán, antes de ir, por supuesto, a España; y en la guerra que sostuvo contra los berberiscos logró apoderarse de un crecido número de cautivos, cuya quinta parte, que ascendía a veinte mil, la envió al Jalifa. Luego hizo una segunda expedición contra los mismos y resultaron, como quinta parte para el Emir, otros mil cautivos. Aquello le produjo a Abdelmélic tal admiración que le escribió recomendándole que continuara excursiones que tan buenos resultados producían. Musa, en vista de esto, continuó conquistando los países de más allá, hasta que, por fin, con la ayuda de Dios, conquistó a España, en tiempo del Emir El Ualid (Algualid) ben Abdelmélic.

Refiere Er-Rasi (Rasis), por autoridad de Abdelmélic ben Habib, que entró en España, en compañía de Musa ben Nosair, uno de los más jóvenes compañeros del profeta—¡Dios le sea propicio!—, llamado Almonáidir, el Africano, a quien no se le conocía por otro nombre que por «El Africano», porque había residido en Africa. De él cuenta Abderramen Alhabali lo siguiente: «Refiérenos Almonáidir (amigo del profeta, a quien Dios bendiga y salve) que le oyó decir al mensajero de Dios—¡Dios le bendiga y salve!—: «Aquel que diga: Estoy contento con Aláh como señor, con el Islam como religión y con Mahoma como profeta, a ese le garantizo que en el día del juicio final le cogeré de la mano y le introduciré en el paraíso.»

Por varias referencias se sabe que los tabies que entraron en España, fueron los siguientes: Musa ben Nosair el Bekrí, Alí ben Rabah el Lajmí, Haiat ben Racha el Temimí, Abuabderramen Abdalal ben Ziad el Ansari el Habalí y Hánax ben Abdalal ben Omar ben Hantala el

Sabai. Este último es el Sanaani, apodo derivado de Sanaa, ciudad de la Siria, llamado también Aburrachdin, el cual era uno de los más virtuosos tabies, y hasta estuvo en Cufa en compañía de Alí ben Abutálib—¡Dios le sea propicio!—Murió en Zaragoza y fué enterrado cerca de la puerta de los judíos, en las inmediaciones de la ciudad, donde su sepulcro era venerado y conocido. Es cosa aceptada y recibida, que todos los tabies que fueron a España lo hicieron en compañía de Musa ben Nosair, e inmigraciones sucesivas; pero especialmente, acerca de los que acabamos de nombrar están conformes las tradiciones, en que vinieron a España con Musa y que asistieron con él al reparto del botín y a la distribución de cautivos, mercancías, tierras y campos cultivables, y que algunos de los mismos se volvieron también en compañía de Musa o después que él; sin embargo, no hay conformidad en que algunos de ellos vinieran con Musa, por ejemplo, Haya ben Rachá el Temimi, de quien algunos, aunque pocos, lo contradicen, y Abusaid el Sadafi, respecto del cual hay muchas tradiciones que no se muestran de acuerdo con ello; sólo se cita para probarlo, la autoridad o referencia de Abuámer ben Al-Aasi. De manera que, en resumen, podemos decir que no hay conformidad en las versiones acerca del número de tabies que vinieron a España. Unos dicen que fueron cuatro, sobre los cuales no hay discusión; otros suponen que fueron cinco, incluyendo al Sadafi, sobre el cual ya hemos dicho que no están conformes.

Mohámed ben Mozáin, refiere lo siguiente: «En una tienda de libros de Sevilla, allá por el año 471, en tiempos de Arradi ben Almotamid, me encontré un tomito que contenía la obra de Mohámed, hijo de Musa Arrasi (Rasis), a la que el autor puso por nombre «El libro de los estandartes». En él se menciona la venida del emir Musa ben Nosair, y el número de estandartes que entraron en España en compañía suya, tanto de los de la tribu de Coraich como los de las demás tribus árabes; en total eran veinte estandartes y pico. Entre los mismos había dos estandartes pertenecientes al emir Musa ben Nosair, uno de los que había

recibido del emir Abdelmélik ben Meruán, cuando le nombró gobernador de Ifriquiya y comarcas de allende; el otro, que se lo había mandado el emir de los creyentes, El Ualid (Algualid) ben Abdelmélik, al nombrarle de nuevo gobernador de Ifriquiya y las comarcas de más allá hasta el Magreb, que había conquistado; un tercer estandarte era de su hijo Abdelaziz, que entró en compañía suya; y así iba citando los estandartes de las demás personas que le acompañaban, ya de los Corachies, ya de los generales árabes y principales gobernadores de provincias, mencionándose allí además todas las nobles familias que iban sin estandarte. Decíase (en este libro) que Musa hizo con los suyos la travesía marítima, embarcándose en el «Monte de los Monos», lugar que hoy se llama Puerto de Musa, dirigiendo el rumbo hacia la parte de Algeciras, con vehemente deseo de internarse en España. En esta población permaneció algunos días descansando y arreglándose, hasta que decidió ponerse en movimiento. Entonces hizo reunir a su alrededor los estandartes de los árabes y los jefes de las brigadas, para consultarles acerca de cómo se había de llevar a efecto la expedición. Todos estuvieron de acuerdo en que se debía marchar hacia Sevilla y que debiera comenzarse la excursión guerrera por las comarcas que quedaban por conquistar al Occidente de esta ciudad, es decir, por los lugares más apartados que están en la costa del Océano, por la parte de Ocsonoba, para conquistarlos. Se dice que la reunión de esta ilustre asamblea tuvo lugar en el espacio de terreno que hoy ocupa la «Mezquita de los estandartes», de Algeciras, y que de eso le vino el nombre, como también por la misma razón Rasis llamó de este modo a su libro.

Añade también, que Musa ben Nosair no abandonó aquel sitio ni disolvió aquella asamblea antes de que se marcara, por orden suya, con un surco de arado aquel lugar, destinándolo ya para emplazamiento de la futura mezquita.

Añade Mohamed: Y conforme a lo acordado en esa asamblea, se

llevó a cabo la expedición y conquistaron el Occidente de España, hasta los lugares más apartados de la comarca de Ocsonoba.

Una vez acabada la conquista de España, Musa ben Nosair el Bekri el Tabi dividió el territorio de la península entre los militares que vinieron a la conquista, de la misma manera que había distribuído, entre los mismos, cautivos y demás efectos cogidos como botín. Entonces dedujo también el quinto de las tierras y de los campos cultivados, del propio modo que lo había antes deducido de los cautivos y objetos muebles. De los cautivos escogió cien mil de los mejores y más jóvenes y se los mandó al emir de los creyentes El Ualid (Algualid), hijo de Abdelmélic; pero dejó los otros cautivos que estaban en el quinto, especialmente campesinos y niños adscritos a las tierras del quinto, a fin de que las cultivasen y diesen el tercio de sus productos al tesoro público. Eran éstos la gente de las llanuras y se les llamó los quinteros (El Ajmas), y a sus hijos los hijos de los quinteros (Banu Al Ajmas).

En cuanto a los otros cristianos que estaban en lugares inaccesibles y en los montes elevados, Musa les dejó sus bienes y el uso de su religión, mediante el pago de un tributo, quedando dueños de una parte de sus bienes en la tierra del Norte, pues ellos capitularon con condición de ceder el resto y pagar un tributo por las tierras de árboles frutales y de siembra, según lo hizo muy bien aquel a quien se debe imitar (Mahoma) con los judíos de Jáibar, respecto a sus palmerales y tierras labrantías. Excepción hecha de tres distritos: Santarén y Coimbra en el Occidente y Ejea en el Oriente de España, Musa distribuyó entre sus soldados las tierras de todas las comarcas conquistadas a viva fuerza, después de haber reducido el quinto para el tesoro. Esta división se llevó a efecto ante los tabíes Hánax el Sanani, el Habalí y Abdenrabah, que se hallaban en el ejército de Musa; desde entonces, estas tierras han venido a transmitirse por herencia de padres a hijos. Cuando la gente y los sabios mencionan la tierra conquistada a la fuerza, entiéndase que se trata entonces del quinto. Los territorios que se sometieron por capi-

tulación son los del norte, donde los cristianos conservaron la propiedad de las tierras y arbolado, pero no el de los otros bienes. Algunos sabios antiguos dicen, hablando de España, que la mayor parte de ella se sometió por capitulación, excepto algunos lugares bien conocidos, porque después de la derrota de Rodrigo todas las ciudades capitularon; de aquí que los cristianos que las habitaban continuaron poseyendo sus tierras y demás propiedades con el derecho de venderlas.

Después de haber llegado al emir de los creyentes, El-Ualid (Algualid), la noticia de la conquista de España, Musa y varios de sus compañeros de armas enviaron embajada al Jalifa pidiendo permiso para abandonar a España y volverse a sus casas. El Jalifa les recibió muy bien, les agasajó y trató cariñosamente, les dió feudos en la Península, pero les imposibilitó de dejar España, no admitiéndoles excusa alguna para hacerlo. Les hizo, pues, volver con orden de comunicar la contestación a sus camaradas.

Más tarde, el emir de los creyentes Omar ben Abdelaziz—¡Dios se haya contentado con él!—, dedicó especial cuidado a España y separó el gobierno de la misma de la jurisdicción de Ifriquiya, nombrando gobernador a Es-Samah ben Malek. Este se fué a España con sus tropas y quiso establecerlas en las propiedades de los otros militares como partícipes. Entonces éstos enviaron emisarios a la corte del Jalifa. Estos emisarios se quejaron de Es-Samah y le pidieron al emir de los creyentes permiso para volver a sus antiguos lares, pues querían que los soldados de Es-Samah los reemplazaran en España. Pero el Jalifa no admitió aquello; les trató bondadosamente, les confirmó sus derechos en documentos expedidos ante testigos y concedió otros feudos a los soldados de Es-Samah. «Si Omar ben Aljatab—¡que Dios le haya sido propicio!—, dijo el Jalifa, no hubiera dado en la India feudos a los soldados, la defensa de los países hubiera sido imposible. Si aquéllo fué bueno para la India, ¡cuánto más no lo será para España! Quiera Dios que los musulmanes

no se vean en el trance de abandonar este país.» (Sin embargo, esto llegará, porque lo decretado por la Providencia ha de cumplirse.)

Según otra tradición, cuando Musa fué llamado a la Corte aún no había realizado de una manera completa y acabada la división de tierras entre sus soldados y el tesoro. El pidió al Jalifa El Ualid (Algualid) que acabara lo que había comenzado; pero esto no tuvo efecto hasta el Jalifato de Omar, que dió el gobierno de España a Es Samah ben Abdelmélic el Jaulaní, ordenándole que dedujera el quinto a lo que quedaba por deducir. Este lo hizo, enviando a las diversas comarcas personas que se encargaran de llevar a cabo la operación. Algunos de los que habían conquistado España a las órdenes de Musa y Tárik fueron a la Corte de El Ualid (Algualid), el cual les confirmó los derechos a las tierras que les habían cabido en suerte por medio de documentos. Respecto a los que posteriormente vinieron a España, les dió en feudo muchas tierras que pertenecían al quinto del Estado.

Dice Abdelmélik ben Habib: «Cuando en el año 100, en el jalifato del emir de los creyentes Omar, hijo de Abdelazis (¡Dios le haya sido propicio!), fué nombrado gobernador de España Es Samah ben Mélik el Jaulaní, las tropas que le acompañaban quisieron tener participación en lo que poseían los primeros militares que vinieron a la conquista; pero entonces algunos de estos se fueron a Omar ben Abdelaziz y le dijeron que Musa había dividido entre ellos las tierras, después de haber asignado el quinto al Tesoro, y que Algualid les había confirmado en sus derechos, como lo probaban los documentos que éste les había expedido. El emir de los creyentes, Omar ben Abdelaziz, entonces les confirmó a su vez los derechos que les había concedido El Ualid (Algualid), expidiéndoles otras cédulas reales parecidas a las anteriores; además escribió a Es-Samah ben Abdelmélik una carta en que le recomendaba que se respetase lo dispuesto en esas cédulas y se llevase a efecto lo que ordenaba en favor de los peticionarios. Estos volviéronse muy regocijados, alabando la generosidad y justicia del Jalifa, el cual ordenó a Es-

Samah que diera en feudo a los soldados que le habían acompañado a España tierras del quinto.»

Otro sabio dice lo siguiente: «Las propiedades pertenecientes al quinto en España no dejaron de ser bien conocidas y cultivadas en beneficio del Tesoro Público durante la época de los gobernadores o emires; luego, durante el imperio de los Beniomeya, se las cultivó a nombre suyo, hasta que por todas partes se les sublevaron jefes insurrectos y acreció la guerra civil; de modo, que por largo tiempo y a través de diversas dinastías, subsistieron cultivándose conocidamente. Después de todo, Dios es el heredero de la tierra y de los que la habitan; no hay duda de que es el mejor heredero.»

Dice Rasis, tomándolo de Abdelmélik ben Habib: «A principios del año 94 penetró Musa en territorio de Afranch (Europa) y se internó hasta llegar a un gran desierto, una extensa llanura que.....[1] y encontró un grande ídolo, de pie, sobre una base, con una esculpida inscripción arábiga, que decía así: «Oh hijos de.....[1] lleguéis (aquí) volvéos.....[1] esto.» Al leerlo, dijo Musa: «Esto quiere decir algo grave.» En seguida abandonó aquel país, volviéndose a Córdoba, donde celebró la Pascua de los Carneros de aquel año. Al emir de los creyentes, El-Ualid (Algualid) ben Abdelmélik, le llegaron nuevas de que el emir Musa ben Nosair entretenía a los musulmanes en España precipitándose con ellos ciegamente en tierras enemigas, fuera de razón y buen consejo. Esto le puso en cuidado y mandó a su enviado Moguiz con orden terminante de que reprochara duramente a Musa por su conducta y que le hiciera volver a Ifriquiya. Moguiz se fué a Córdoba, donde estaba Musa, y éste le regaló el lugar que durante el tiempo de la dominación musulmana se ha llamado «El Palacio de Moguiz» (Bilat-Moguit), con la tierra adjunta al palacio, que pertenecía al quinto, propiedad del Estado. Moguiz, en lugar de cumplir la orden del Jalifa, se fué entonces a hacer una excursión militar a Galicia. Al Jalifa, entre tanto, le pareció que Musa tardaba, y venía a achacarlo a que sin duda habría faltado a su deber, y se decidió a mandar

(1) Blanco en el manuscrito.

otro mensajero llamado Abunásar, con encargo de ir a España y no dejar de la mano a Musa hasta hacerle ir a su presencia. Abunásar partió y llegó allá a principios del año 95.

Otros dicen que, según se desprende de tradiciones antiguas, Musa ben Nosair fué el que dedujo el quinto de Córdoba, y que en ese quinto entró aquel delicioso valle del Este de esta ciudad, que actualmente es cementerio. Pasó a serlo cuando Omar ben Abdelaziz—¡Dios se haya contentado de él!—dió la gobernación de España a aquel varón fiel, leal y justo cual pocos, Asámah, hijo de Mélic, a quien dió órdenes expresas para que lo destinara a este objeto.

Ahmed Er-Razi (Rasis), en su crónica, da otra versión acerca de la autenticidad de la deducción del quinto de lo adquirido en España por los musulmanes; es la siguiente: Dice Abdelmélik ben Habib, haciendo derivar la noticia de algunos tabíes que vinieron a España, que los Jalifas Beniomeya tenían la costumbre, cuando habían de llegar a sus manos los tributos de los distintos territorios de sus dominios, de ordenar que fueran juntamente con ellos diez habitantes del país, de los más honrados y principales, a fin de que no entrara en el Tesoro Público un solo dinar ni dirhem, hasta que estos diez diputados juraran por Aláh, aquel que no hay otro Dios sino él, que no había un solo dinar o dirhem que hubiese sido tomado fuera de derecho y sin mediar violencia con sus hijos y mujeres. Sucedió, pues, que vino una diputación de Ifriquiya en los últimos tiempos de Suleiman a traer los tributos, y cuando se les ordenó que prestaran juramento, sólo juraron ocho; dos de ellos se abstuvieron; eran éstos Ismael ben Obaidalah, liberto de los Benimajzum y Es-Samah ben Málik el Jaulaní. A Omar ben Abdelaziz, aquello le chocó, y al subir al jalifato se los adscribió a su propio servicio, y una vez convencido, por experiencia, de la religiosidad y virtudes de ambos, dióles, respectivamente, el gobierno de Ifriquiya a Ismael ben Obaidalah, y a Es-Samah ben Málik, el de España. A este último le ordenó que dividiese en cinco partes la tierra que allí quedaba por divi-

dir y los bienes muebles, y que sacara el quinto que al Tesoro Público religioso correspondía, dejando las poblaciones en manos de sus señores. Le mandó además que le escribiera dando noticias de lo que España era, de sus mares y ríos, y la forma o manera de hacer la travesía para ir a ella, pues tenía el pensamiento de hacer que la abandonaran los musulmanes, porque, estando a la otra parte del mar, se hallaban demasiado alejados de los países musulmanes. Es-Samah se fué a España, y, por orden del emir de los creyentes, Omar, la separó del gobierno de Ifriquiya. Para deducir más correctamente el quinto, hizo distinción entre el territorio conquistado a la fuerza y el que se había sometido pacíficamente, al llegar a sacar el quinto. Una vez que llevó a efecto Es-Samah lo que se había propuesto, escribió al emir de los creyentes dándole noticias de lo que había hecho, ya en el territorio conquistado a la fuerza, ya en las comarcas del Norte, que habían sido sometidas de grado. Los habitantes de estas comarcas habían capitulado, obligándose a pagar una capitulación y un tanto de los productos de sus tierras; unas habían de pagar el tercio, otras el cuarto de sus productos, según la calidad y fertilidad de las mismas, conforme lo había hecho el mensajero de Dios en Jáibar. Es-Samah, en la misma carta pidió permiso al Jalifa para construir el puente (sobre el Guadalquivir) utilizando la piedra de las murallas de Córdoba, pues no se conocía entonces en esta comarca cantera de donde sacarla. La contestación afirmativa del emir de los creyentes Omar ben Abdelaziz, llegó diciendo: «Que el valle que había resultado como quinto al Sur de Córdoba se convirtiera en cementerio, y que el puente se construyera con las piedras de los muros, recomponiendo de adobes los portillos que resultaran.» Desde entonces, el susodicho valle, que correspondía como propiedad al Tesoro del emir de los creyentes Omar, pasó a ser cementerio de los musulmanes. Asimismo se llevó también a cabo la construcción del puente.

Entre las gracias que debe España a los tabies que estuvieron en la conquista, en compañía de Musa ben Nosair, está la siguiente, según re-

fieren algunos tradicionistas: Cuando ellos hicieron la expedición a Afranch, en la que sirvieron como militares Hánax ben Abdalah y Abuabderramen el Habalí, se encargaron de echar los cimientos a la mezquita de Córdoba construyéndola de nueva planta, levantaron el mihrab y trabajaron en su cimentación con sus propias manos. Según antiguas tradiciones, aquel templo vino a ser un jardín del paraíso. Al venir los Beniomeya hicieron nueva construcción, pero sin demoler el mihrab, el cual fué mantenido y trasladado sobre plataformas de fuertes y bien trabajadas vigas, al lugar que hoy ocupa. Ambos le habían colmado de bendiciones por haberse encargado de llevar a efecto su construcción con sus propias manos—¡Dios les haya concedido su misericordia!—. Así permanece aún hoy día.

Cuando acabaron estos dos tabies la construcción de la mezquita, según se acaba de decir, los otros tabies, con Musa ben Nosair, su emir, volvían de la expedición y todos se reunieron en el monte de Almaida, que está al lado del río que corre al Sur de Toledo, e hicieron rogativas al cielo en favor de la gente de España.

De la excelencia de los tabies y de lo gratas que eran a Dios sus oraciones, se cuentan muchos hechos dignos de mención. Uno de ellos fué el siguiente: Musa ben Nosair puso sitio a una de las fortalezas del Oriente de España; más de veinte días con sus noches habían transcurrido combatiéndola con persistencia; la plaza no se tomaba por ser fuerte y hasta inaccesible. Al fin, al ver que aquello se hacía demasiado largo, hizo pregonar en medio del ejército que a la madrugada siguiente tomasen las armas. Uno del ejército, que refería este hecho, decía: «Nosotros creíamos que el general habría tenido noticia de que el enemigo había recibido refuerzos, y querría levantar el sitio; pero a la mañana siguiente, cuando nos disponíamos a formar, levantóse el general, alabó y loó a Dios, y luego dijo: «¡Soldados! voy a ocupar el primer lugar delante de vuestras filas. Cuando me veáis orar, orad; y cuando me veáis atacar, atacad.» Los del ejército, al oir aquello, decían: «¡Alabado sea Dios!

Ciertamente es una tontería el mandarnos atacar una fortaleza que no hay medio para tomar: ¿dónde vamos a combatir?» Sin embargo, el general se puso al frente de las filas en sitio donde la gente pudiera verle, levantó las manos hacia el cielo, volvióse a la quibla y se puso a orar, suplicar y pedir humildemente a Dios y hasta a llorar. Nosotros estábamos esperando que acabara y dijera: «*Dios es grande.» Poco tardó en decirlo* y en lanzarse en dirección a los muros del castillo. Los del ejército repitieron la frase «Dios es grande», y atacaron. De repente, la parte aquella del castillo que estaba próxima a él, se desploma y la caballería se introduce por la brecha, y Dios excelso y sublime dió la victoria a los musulmanes, sus siervos y escogidos.

Otro de los hechos admirables, debido sin duda a las oraciones de los tabies, fué también el siguiente: Combatía Musa en otra ocasión una fortaleza en la que los enemigos eran evidentemente muchos y bien equipados; de una y otra parte luchaban encarnizadamente; en medio de una batalla sostenida con gran empeño, mandó Musa ben Nosair que se sacaran de su tienda a las mujeres e hijas con el rostro descubierto, sin velo, para exponerlas delante de las tropas; luego se puso a orar a la vista de todos. Aquello estimuló tanto a los musulmanes, que la lucha se arreció formidablemente, y, al cabo, Dios alto les hizo obtener la victoria. Musa solía llevar a su familia en sus expediciones guerreras, pues pensaba que esto hacía más probable que sus súplicas u oraciones fuesen oídas por Dios.

Cortas noticias acerca de la vuelta de Musa ben Nosair a Oriente

A principios del año 95, Abunasar, el mensajero que el emir de los creyentes *El Ualid* (Algualid) ben Abdelmélik había mandado al emir Musa ben Nosair, llegó a España y ordenó a éste que se pusiera en camino para Oriente. Tárik, los tabies y demás gente que quisieron dejar a

España por volver a las comarcas orientales, salieron en compañía de Musa,. el cual, antes de marcharse, dejó a su hijo como lugarteniente suyo en España, dándole como ministro a Habib ben Ocba ben Nafí el Fihri. Con estos dos últimos permanecieron en España todos los que quisieron quedarse, habitando los lugares que habían fundado y elegido como residencia. Moguiz y Abunásar, los dos mensajeros del Jalifa, también salieron en compañía suya y todos se pusieron en marcha hasta llegar a Sevilla, donde hicieron alto. En esta ciudad hizo quedar Musa a su hijo, al que había nombrado lugarteniente, por ser sitio no alejado del mar y punto a propósito para hacer, a cualquier evento, la travesía. Allí se hizo a la vela con los demás viajeros, dirigiendo el rumbo a vuelta al Oriente, con el alma apenada, por no poder continuar haciendo la guerra santa, y entristecido por tener que abandonarla. Esto sucedía en el mes de Ramadán del mismo año, es decir a su salida de Sevilla.

Refiere Abdelmélik ben Habib la siguiente noticia que la había tenido de Abunoáin el Tochibi: «Cuando Musa ben Nosair salió de Córdoba, después de haber llegado el mensajero del emir de los creyentes El Ualid (Algualid), este cogió las riendas de la cabalgadura que Musa montaba para hacerle salir de España, según las órdenes del Jalifa.» Un testigo presencial, por quien se sabe este relato, decía: «Cuando llegamos a las inmediaciones del cerro del agua (fachol-má), a la otra parte de Secunda, Musa picó a la mula blanca que montaba para que se volviera en dirección a Córdoba (separóse de la carretera) y subió sobre aquella colina para ver a Córdoba desde la altura; a todo esto los tabies y demás gente principal no le abandonaban; paróse, al fin, en lo alto y exclamó: «¡Oh Córdoba, qué hermosa y agradable eres! ¡Cuán deliciosas son tus noches! ¡Cuán placenteros tus días! ¡Cuán grata la templanza de tu ambiente!» Inmediatamente guió otra vez a su cabalgadura hacia el camino en dirección a Sevilla. Llegado a esta ciudad, pasó el mes de Ramadán, cumplió el ayuno, celebró la Pascua y después marchóse a Oriente.»

Abdelmélik añade: «Musa ben Nosair se puso en marcha en dirección a Oriente y pasó de largo sin pararse ni entrar en Cairouán, celebrando la Pascua de los carneros de ese año en el Alcázar del Agua (Casar-al-má), a una milla de dicha ciudad. Pero coincidió que la gente de aquel país, por falta de lluvias, estaban afligidos de terrible sequía, y Musa les acompañó a hacer las prerrogativas por agua y les predicó el sermón. Acabada la plática, se le dijo: «¿No ruegas por el Emir de los creyentes?»; pero él contestó: «Hoy no es día para ello.» El resultado fué que llovió copiosamente. Luego emprendió el viaje a Oriente para presentarse ante el Emir de los creyentes El Ualid (Algualid), acompañado de Tárik, llevando consigo todas las riquezas, piedras preciosas, botín y esclavos elegidos (mujeres y mancebos) y la célebre mesa, de la cual se dice que fué evaluada en doscientos mil dinares, por las piedras preciosas que contenía.»

Algunos historiadores refieren, respecto a esto de la mesa, que fué traída de Jerusalén en los tiempos antiguos, y que la manera como esto se verificó, fué la siguiente: el primero que habitó la capital de España como fundador y dominador del reino fué Ispán, hijo de Túbal, hijo de Jafet, hijo de Noé—¡sobre éste sea la paz!—, de cuyo apellido esta comarca tomó el nombre de Ispania. De esta dinastía se sucedieron más de cien monarcas, que reinaron hasta allá por los años 4000 de la creación, que corresponde aproximadamente al año 1000, del diluvio, en cuya fecha comenzó la dominación de los griegos en ese país. Sucedió, pues, que al pretender los judíos hacer llevar a efecto la muerte de Jesús, hijo de María—¡sobre El sea la paz!—, los cristianos, dondequiera que los hubo, se encolerizaron y sus reyes se escribieron unos a otros con este motivo. El monarca de España que entonces reinaba, Petrus, según unos, Hércules, según otros, juró que iría contra Jerusalén con las tropas españolas; y lo cumplió, pues llevó la guerra a Jerusalén con la mayor parte de las tropas que a sus órdenes tenía. El rey de Roma y el de Armenia por su parte, emprendieron también la expedición, después de haberse

convenido, por las cartas que se cruzaron, en acudir a un lugar de cita, donde se reunieron, marchando después juntos contra Jerusalén. Allí hostilizaron a los que la mantenían, hasta que al fin cayó la ciudad bajo su poder. De trescientos mil judíos que había, a cien mil los mataron, otros cien mil fueron cautivos y los restantes cien mil fueron dispersados por el mundo. El botín y todo lo más precioso que encontraron en Jerusalén se lo repartieron entre sí, correspondiendo, a la porción que tocó al Rey de España de aquel entonces, la célebre mesa, que es la que después se encontró en las comarcas toledanas; al Rey de Roma le cupo en suerte el vestido de Adán y la vara de Moisés—¡sobre ambos la paz!—; y al Rey de Armenia, el jacinto de Alejandro Magno (Dulcarnáin). También se dice que este jacinto vino a caer en Mérida en manos de Musa ben Nosair, juntamente con la *Alquila*, porque el Rey de España había obtenido esto al propio tiempo que la mesa. El caso es, que todos estos objetos los encontró Musa, ya en Toledo, ya en Mérida. La alquila servía para alumbrar la mencionada mesa. Resultado, que al emir de los creyentes le fueron llevados estos objetos. Abdelmélik ben Habib el Salemi, da también otra versión de estos sucesos, pues refiere que Nabucodonosor alistó tropas de todos los países del mundo para hacer la guerra a Jerusalén, y que entre la multitud de los que fueron invitados a tomar parte en esa expedición estaba el Rey de España, que estuvo presente allí y le cupo en suerte la mesa de Salomón, que trajo después a su país.

Corriendo los tiempos vino el año 96, y en él se presentó Musa ben Nosair con todo el botín recogido en España, ante el emir de los creyentes El-Ualid (Algualid), dos meses antes de su muerte o cosa así. Entonces le mostró todo lo que consigo traía, poniéndole delante la susodicha mesa; al dársela al Jalifa, pretendió él haberla obtenido, pero Tarik le dió un *mentís*, diciendo: «No es verdad eso; fuí yo el que la obtuve. La prueba es que el pie que le falta es este que traigo aquí.» Sacó en seguida el pie y Algualid hubo de darle la razón en lo que decía,

apreciando de todos modos en gran manera aquel regalo. Musa permaneció en la Corte de Algualidad hasta que éste murió.

A su muerte subió al trono su hermano el emir de los creyentes Suleiman, que recibió de Musa ben Nosair y de los gobernadores del Occidente que le acompañaban, las rentas que habían percibido de los pueblos que tenían en feudo, pertenecientes al quinto del Tesoro público y los productos que en aquel entonces se habían sacado. Además les impuso a todos una multa, especialmente a Musa, a quien hizo pagar un pecho de 100.000 dinares con lo que.....[1] cien mil por intermedio de Yecid ben Almohalab.

Suleimán ben Abdelmélik veía siempre con malos ojos a Musa ben Nosair y solía llamarle «el viejo mentiroso», por haber sostenido que la mesa habíala él logrado; pero en esto no estaba en lo cierto Suleiman, porque Musa ni era por costumbre mentiroso, ni en las palabras que había dicho, de haber sido él el que había logrado la mesa, había faltado a la verdad, pues aunque no presenciase personalmente el acto, al fin y al cabo Tarik, su representante y liberto, no era más que un mandatario suyo; por consiguiente, si éste la logró, fué por habérselo el otro ordenado y aún haberle dado los medios para llevarlo a cabo; de modo que la conquista de España, a Musa y no a otro debe ser atribuída.

(1) Blanco en el manuscrito.